أ. د. محمد عبدالرحمن يونس

مدن ألف ليلة وليلة

المكان والثقافة والمجتمع والحضارة والعمران

أ. د. محمد عبدالرحمن يونس

مدن ألف ليلة وليلة

المكان والثقافة والمجتمع والحضارة والعمران

يُعدّ هذا الكتاب رحلة معرفية عميقة في طبيعة المسكوت عنه في حكايات ألف ليلة و ليلة، إذ يدرس بالتفصيل أهم مظاهر المدينة العربية والإسلامية والخيالية في متن حكايات ألف ليلة وليلة، سياسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً وعمرانياً وسحرياً وعجائبياً، وهو يحاول أن يسلط الضوء على أدوار المرأة في بناء حكايات ألف ليلة وليلة، وقدرتها على تشكيل أحداث الحكايات، وعلى التأثير في قرارات الحكام في قصور ألف ليلة وليلة، من خلال قدرات جسدها الجمالية والجنسانية. إنه يعنى تحديداً بالمدينة في ألف ليلة وليلة موضوعاً ودراسة وتحليلاً أكاديمياً.

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ الدكتور محمد عبدالرحمن يونس، الأستاذ في عدة جامعات عربية وأجنبية، وهو من الباحثين المتخصصين في دراسة حكايات ألف ليلة وليلة، في معظم جوانبها المعرفية.

ينطلق مؤلف هذا الكتاب من رؤية نقدية أكاديمية عميقة تتجاوز البنى السطحية لحكايات الليالي، وذلك من منظور تاريخي واجتماعي وحضاري وأنثروبولوجي، معتمداً منهجاً علمياً يفيد من عدة مناهج نقدية، منها الوصفي والتاريخي والاجتماعي والإيديولوجي والاستقرائي و الثقافي. وقد عمد إلى التوثيق الدقيق والأمين لما جاء في كتابه، حيث توافرت فيه الأمانة العلمية على نحو شديد الوضوح، من خلال استيفاء البيانات الخاصة بالمصادر والمراجع هذه المصادر الغزيرة الممتدة التي تنهل من ثقافات العالم وحضاراته، سواء أكانت عربية أم أجنبية، قديمة أم حديثة، والتي تجاوز عددها مائة وعشرين مصدراً ومرجعاً.

ISBN: 978-9953-33-446-4

أ. د. محمد عبدالرحمن يونس

مدن ألف ليلة وليلة

المكان والثقافة والمجتمع والحضارة والعمران

مؤسسة الانتشار العربي

1415هـ
وزارة الثقافة

مدن ألف ليلة وليلة

المكان والثقافة والمجتمع والحضارة والعمران

أ. د. محمد عبدالرحمن يونس

النادي الأدبي في منطقة الباحة
المملكة العربية السعودية
www.adbialbaha.com

مؤسسة الانتشار العربي

ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com

@Alintishar Alarabi @Alintishar Alarabi

بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-9953-93-446-4

الطبعة الأولى 2021

الإهـداء

إلى روح والدي ووالدتي
اللذين تركا روحي صحراء سوداء بعد رحيلهما.

وإلى أرواح أصدقائي وأساتذتي:
ميهوب محمد مرهج، وعبد المعين الملوحي، ومحمود أحمد زينة،
ومحمد أحمد زينة، وعلي إسماعيل يونس، والأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي،
والأستاذ الدكتور علي جميل السامرائي، والدكتور أسد محمد،
وحسين أحمد حيدر، وأحمد الخيّر، وسمير عامودي،
عليهم واسع الرحمة والمغفرة.

أقدّم هذا الكتاب

بطاقة شكر

أشكر أخي وصديقي الأستاذ الشاعر محمد حسن الزهراني رئيس نادي الباحة الأدبي، بمدينة الباحة السعودية، وجميع أعضاء الهيئة الإدارية لنادي الباحة على تفضلهم بطبع كتابي هذا ضمن منشورات نادي الباحة الأدبي، فلهم مني بطاقات احترام وتقدير، وعربون وفاء وشكر.

المقدّمة

ما من عمل أدبيّ شعبيّ نال شهرة واسعة في آداب المجتمعات الإنسانيّة أكثر من ألف ليلة وليلة. وكثيرة هي الدراسات التي تناولت هذا العمل في جوانبه المتعدّدة، بوصفه نتاجاً معرفيّاً وحضاريّاً لكثير من الأمم والشعوب. ويمكن القول: إنّ حكايات ألف ليلة وليلة تعبّر عن مخزون الذاكرة المعرفيّة الجمعيّة للمجموع الإنسانيّ عبر رحلته التاريخيّة والحضاريّة، هذه الذاكرة التي عايشت تاريخ المجتمعات، وعاداتها وأحوالها، والتحولات الفكريّة والسياسيّة لهذه المجتمعات في تطوّرها الحضاريّ. ومن هنا فإنّ السرد الحكائيّ في ليالي ألف ليلة وليلة ليس سرداً بعيداً عن الإيديولوجيا الّتي تشكّل خلفيّة معرفيّة، يؤسّس عليها الرّواة مقولات أبطالهم الفكريّة، وحركة هؤلاء الأبطال، وما يقومون به من أفعال، وليس هذا السرد بعيداً عن التاريخ والسياسة. وكل محاولة لدراسة حكايات ألف ليلة وليلة بعيداً عن بنية المجتمعات التي تتحدّث عنها اللّيالي ستفرض علينا اعتبارها عملاً تخيليّاً صِرْفاً، وبالتالي ستفقدنا المتعة الكامنة في السرد الحكائيّ المرتحل في مدن هذه المجتمعات، وفضاءاتها المتعددة، وعلاقاتها الإنسانيّة والطبقيّة الّتي يمكن أن تكون علاقات قد قامت فعلاً، في زمان تاريخيّ معيّن، وفي فضاء مكانيّ معروف.

وإذا كانت حكايات ألف ليلة وليلة تنهل من كثير من الأبعاد الأسطوريّة والخرافيّة، والأحلام البشريّة الجمعيّة الجامحة للطبقات الوسطى والفقيرة، فإنّ ذلك لا ينفي أن تكون هذه الحكايات قد نهلت من بنية الواقع بعلاقاته وعاداته، ومكوّناته

الفكريّة والرؤيويّة، ولا ينفي أن تكون هذه الحكايات رصداً أنثروبولوجياً لحضارة الجماعات البشريّة بأزمنتها وأمكنتها، لأنّ هذه الأزمنة والأمكنة ـ وإن كان من المحتمل أن تكون تخيّليّة متشكّلة بفعل الخبرات المعرفيّة للرّواة الذين قرأوا كثيراً من معارف عصورهم والعصور التي سبقتهم أو حفظوها بعد أن سمعوها شفاهياً ـ قد تكون حقيقيّة، بل هي أقرب إلى الحقيقة منها إلى التخيّل.

إنّ وضع اللمسات على الحدود الفاصلة بين ما هو واقعيّ وبين ما هو تخيّليّ وحلمي في ألف ليلة وليلة من الصعوبة بمكان، إذ لا يمكننا أن نحدد بدقّة متى ينتهي الواقعيّ ومتى يبدأ التخيّلي، لأنّ الواقعيّ في مدن ألف ليلة وليلة يبدو أحياناً أغرب من التخيّلي نفسه، من حيث سحريّته وعجائبيّته، فالباحث في الأدب الشعبيّ ـ وبطبيعة الحال تشكّل ألف ليلة وليلة جزءاً مهماً منه ـ «يواجه (...) مشكلة الحدود الفاصلة بين الأحداث الواقعيّة وبين إبداعات الخيال، ونوع التفاعل القائم بينهما، وتداخلهما معاً في بناء الإبداع أو الحكاية أو الملحمة، بما يفضي إلى مشكلة أكثر تعقدّاً، هي العلاقة بين التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، وبين القصّ الخياليّ بوجه عام»[1]. فالسّرد التاريخي في حكايات ألف ليلة وليلة، وفي بعض الأحيان، لا يعني مجرد ذكر الحادثة التاريخيّة بشخوصها وأفعال هذه الشخوص، وعلاقاتهم في الزمان والمكان، بل هو يخرج عن إطار الحدث ومحدوديّته ومصداقيّته، ليصبح سرداً مؤسطراً يتجاوز ما هو تاريخيّ إلى ما هو تخيّلي وحلمي. فعلى سبيل المثال يُلاحظ ـ أحياناً ـ أن السّرد الذي يذكر الخليفة العباسيّ هرون الرشيد يتخطّى حدود التاريخ، ليُدخل هذا الخليفة في دائرة العجائبيّ الأسطوريّة، إذ يبدو مستهتراً ماجناً، وعاشقاً مغتلماً، لا همّ له إلاّ إشباع لذائذه الجنسيّة، وباطشاً مستبدّاً بأقرب المقرّبين إليه، وزيره جعفر البرمكي، وقادراً على إخضاع الجان لمشيئته.

ويبدو أنّ الراوي سبق له وأن رأى كثيراً من أخطاء الدولة العباسيّة، وتجاوزات خلفائها وسلطاتها لما هو شرعي ودينيّ وأخلاقي، فعمد إلى تبنّي إيديولوجيا مضادة

(1) الجوراني، وداد: «حكايات ما قبل الألف ليلة وليلة»، **مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات**، دار الشروق، عمّان، العدد الثاني عشر، شتاء 1996م، ص 74.

لإيديولوجيا هذه الدّولة، ومن خلال هذه الإيديولوجيا المضادة أضفى على تاريخ خلفاء هذه الدولة ـ ومنهم الخليفة هرون الرشيد ـ سرداً نأى عن الحدث التاريخيّ بواقعيّته، وحقيقة أبطاله، ومسيرتهم التاريخيّة، على أنّ إيديولوجيا الرّاوي في نهاية المطاف ليست فردية، ولا يمكن أن تكون كذلك، لأنّها تمثّل رغبة الجماعات المستضعَفَة ـ بفتح العين ـ والفقيرة، والمحرومة، في الدولة العباسيّة وتطلّعاتها. ومن هنا يبدو طبيعياً أن تشكّل نصوص ألف ليلة وليلة حقلاً مرجعيّاً، ووثيقة تاريخيّة واجتماعيّة، يمكننا من خلالهما أن نفهم طبيعة الإنسان والمجتمع، والحضارات الإنسانيّة، وقيمها وأعرافها، وأنظمتها الفكريّة والسياسيّة، إذ لا يمنع التخيّليّ الخارق في ألف ليلة وليلة هذه الليالي من أن تكون هذا الحقل المرجعي، لأنّ التخيّلي ـ ومهما كان خارقاً وعجائبيّاً ـ فإنّه في نهاية المطاف يستمدّ كثيراً من عناصره التخيّليّة من الواقع وإشكالياته، وحركته، وقبحه وجماله، وأحلام جماعاته، وهو بهذا يعمل على تخطي هذا الواقع، ليؤسّس مكوّناته التخيّلية الجمالية المتجاوزة لهذا الواقع، والقادرة على الدخول بالذات الإنسانيّة إلى عوالم سحريّة أخّاذة مليئة بالدهشة والغرابة.

وتحاول دراستي هذه ـ رحلة إلى مدن ألف ليلة وليلة ـ أن تتبيّن الملامح الرئيسة لمدن ألف ليلة وليلة الواقعيّة، منطلقة من بنية نصوص الليالي، باعتبارها نصوصاً منفتحة على التاريخ والسياسة، والعلاقات بين الحاكم والمحكوم، في المدن العربيّة الإسلاميّة، وغير العربيّة، إلاّ أنّ هذه الدراسة لا تركّز على نصوص الليالي باعتبارها عملاً تخيّلياً صرفاً، بل تعدّها عملاً يمكن أن يكون معبّراً ـ في كثير من جوانبه ـ عن الواقع الحقيقيّ المعيش للطبقات الاجتماعيّة والسياسيّة في أزمنتها وأمكنتها، فاعتبار مدن ألف ليلة وليلة مدناً متخيّلة لن يساعدنا على فهم العلاقات القائمة، سياسيّاً واجتماعيّاً، بين سكان المدينة في ما بينهم من جهة، وبين السلطات القائمة فيها، وبين أفراد الشعب من جهة أخرى.

وإذا كانت بعض العلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة التي ظهرت في مدن ألف ليلة وليلة علاقات عجائبيّة سحريّة لا تتحقق إلاّ في الحلم والتخيّل، وأوهام الذاكرة، ووفقاً لنسق ميثولوجي وسحريّ، فإنّ كثيراً من مدن ألف ليلة وليلة كانت مدناً واقعيّة معروفة

بتاريخها وحكّامها، وطبيعة الحياة فيها بمختلف أشكالها، فلقد قامت هذه المدن منذ القديم، وعُرِفت، ولا تزال معروفة حتى الآن، ومن هذه المدن: بغداد والبصرة والكوفة، ودمشق، وحلب، وصنعاء، والقاهرة والإسكندريّة، وخراسان وسمرقند، وفاس ومكناس، وغيرها من المدن الكثيرة التي ذكرتها نصوص الليالي[1]، في حين أنّ مدناً وجزراً أخرى ذكرتها الليالي، كانت غاية في العمران والهندسة المعماريّة الفائقة فنّاً وإبداعاً، وتخطيطاً جمالياً مدهشاً، غير أنّ هذه المدن، إذا حاولنا أن نتتبّع معالمها على الخريطة الجغرافيّة الحديثة ـ بعد أن تشكل العالم الحديث تشكُّلاً جغرافياً جديداً ومعروفاً من حيث معالمه وحدوده وبحاره ومحيطاته، وعواصمه ودوله ـ فإنّنا لن نجد أسماء لهذه المدن. فإمّا أن تكون قد اندثرت بفعل عوامل الطبيعة من زلازل وبراكين، وسيول وأنهار، وإمّا أن تكون قد تغيّرت أسماؤها، بفعل التحولات التاريخيّة والجغرافيّة التي تعرّضت لها قارات العالم وفق تشكّلاتها الجديدة، وإمّا أن تكون مدناً قد تشكّلت مورفولوجيّاً وجمالياً وفق رؤية الرّواة الجماليّة الخاصّة، ومن خلال عمليات التخيّل والحلم، أو من خلال المثاقفة الفكريّة والحضاريّة بين ثقافة رواة ألف ليلة وليلة وبقيّة الثقافات الأخرى، هذا إذا أخذنا في الاعتبار أنّ هؤلاء الرّواة كانوا على قدر كبير من العلم والمعرفة، إذا اطّلعوا على ثقافات الشعوب وعاداتها وتاريخها وأدبها، وعادات مدنها. وإمّا أن تكون هذه المدن قد خُرّبت وتهدّمت بفعل صيرورة التاريخ نفسه، وحركات الاضطراب والفتن والثورات المعارضة والحروب، وبالتالي تأسّست مدن جديدة بدلاً منها، وبأسماء جديدة، وإمّا أنّها انتهت بزوال سلطتها السياسيّة وقوّة ملكها، لأنّ «الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها (...)، [و] الدولة إذا اختلّت وانتقضت فإنّ المصر الذي يكون كرسيّاً لسلطانها ينتقض عمرانه وربّما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب ..»[2].

ومن هذه المدن التي ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة، والتي تبدو مجهولة،

(1) سأثبت في نهاية الفصل الثالث جدولاً بأسماء جميع المدن الواقعيّة التي ذكرتها ألف ليلة وليلة.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: **مقدمة ابن خلدون** «كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، تحقيق وشرح د.علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرم 1401 هـ، الجزء الثاني، ص893.

أو التي لم تعد محتفظة بأسمائها في خارطة التسميات الجغرافية المعاصرة: مدينة النحاس[1]، ومدينة اختيان الختن[2]، والطيران،[3] وجوهر تكني[4]، وواق الواق[5]، والمدن والجزر الكثيرة التي كان يصل إليها السندباد البحري، كمدينة الملك المهرجان[6]، ومدينة القرود[7]، وإقليم الملوك[8]، وجزيرة السلاهطة[9]، وتلك التي لا تأخذ اسماً، وهي معظم الجزر التي وصل إليها في رحلاته السبع، ومدينة أخرى، يبدو أنّ الرّاوي لا يعرف اسماً لها، إذ يقول عنها:

«والله لا أعرف للمدينة (...) اسماً ولا طريقاً»[10]. يُضاف إلى ذلك مجموعة كبيرة أخرى من المدن المتخيّلة التي تتوزّع على حكايات ألف ليلة وليلة، والتي شكّلها الرّواة من خلال قراءاتهم الكثيرة في الأساطير والخرافات والحكايات الشعبيّة، ويبدو أنّ جميع مدن ألف ليلة وليلة الواقعيّة والمتخيّلة غير المعروفة، باختلاف تشكيلاتها الاجتماعيّة وتوجهاتها الدينيّة، هي مدن موشّاة بالسحر والأسطورة والغرابة، وقلّما نجد مدينة في ألف ليلة وليلة إلاّ ولها سحرتها الخاصّون، ومنجّموها الذين يستشعرون الخطر قبل قدومه، ونساؤها الخبيرات في جميع فنون المكايد والحيل والمكر، ورجالها السلطويّون الذين أفنوا أعمارهم في مجالس الشراب والطرب، والتمتع بأجساد الجواري، والحروب الطاحنة، رغبة في تعزيز بطشهم وسلطاتهم، بعيداً عن أيّة قوانين أو شرائع إنسانيّة أو أخلاقيّة، من شأنها أن تحمي مواطنيهم البسطاء من شرورهم واستبدادهم.

(1) مجهول المؤلف: **ألف ليلة وليلة**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، الجزء الرابع، ص32.
(2) **ألف ليلة وليلة**، 376/4.
(3) م ن، 253/2.
(4) م ن، 355/3.
(5) م ن، 299/4.
(6) م ن، 404/3.
(7) م ن، 443/3.
(8) م ن، 15/4.
(9) م ن، 422/3.
(10) م ن، 13/4.

إنّ قسماً من مدن ألف ليلة وليلة مدن واقعيّة معروفة عبر منها رجال التاريخ السلطويون فارضين رؤيتهم وقسوتهم، واستبدادهم المطلق بشعوبهم، والقسم الآخر مدن متخيّلية شكّلها عدة رواة متشعّبو الثقافات، وينتمون إلى حضارات متعددة، متعاقبة، ومتجاورة زمنيّاً وتاريخيّاً.

وسأحاول في هذه الدّراسة التركيز على أهمّ ملامح بعض المدن الواقعيّة في ألف ليلة وليلة، وهي: بغداد والبصرة والقاهرة ودمشق، معتمداً بالدرجة الأولى ما تُقدّمه نصوص ألف ليلة وليلة الحكائيّة من خطابات فكريّة وإيديولوجيّة، وعلاقات متناقضة ومتداخلة ومعقّدة ومنسجمة في آن، ومستفيداً أيضاً، إلى حدّ بعيد، من ملامح المدينة الإسلاميّة في العهدين: الأموي والعباسيّ، كما تشير إليها المصادر والأدبيات التاريخيّة.

وتعدّ حكايات ألف ليلة وليلة من بين أكثر النصوص الأدبية الإسلامية والعربية تأثّراً بالمجتمعات العربية والإسلامية، وبخاصة في عهد الدولتين الأموية والعباسية، بعلاقاتها السياسية والاجتماعية، فقد صوّرت هذه الحكايات عادات المجتمعات العربية والإسلامية، وأنماط معيشتها، وعرّجت على تركيبتها الطبقية والسياسية، ووقفت طويلاً عند مظاهر الترف واللهو والفجور التي انغمس بها كبار رجال السلطة ونساؤهم وأبناؤهم، وعرّجت على هموم الفقراء والمهمشين ومآسيهم في هذه المجتمعات، وأشارت بشكل جريء إلى فساد الرجال والنساء في هذه المجتمعات المنفتحة حضارياً ومعرفياً على ثقافات الحضارات الأخرى المجاورة.

إذا كانت القراءة الإيديولوجيّة للنّصوص الأدبيّة، بما فيها الحكائيّة، تعتمد كثيراً مفاهيم وقناعات مسبقة يؤمن بها الباحث، وبالتالي تجعل من النصّ المقروء «خطاب أطروحة»، قبل أن يكون خطاباً جماليّاً وإبداعيّاً، وتعمد إلى قسر هامة النصّ أمام هذه المفاهيم، بدلاً من أن تضيء مكوّناته، فإنّ نصوص ألف ليلة وليلة هي نصوص لا تستطيع أن تتخلّى عن إيديولوجيّتها، لأننا أمام رواة مؤدلجين مع مدنهم وحكّامهم أحياناً، وضدّ هذه المدن، وهؤلاء الحكّام أحياناً أخرى، ومن هنا فإنّ قراءتي لهذه النصوص قد تحمل بعض معطيات المنهج الإيديولوجي. وإن بدت بعض هذه

المعطيات على هذه القراءة، فإنّها ليست مقصودة بذاتها، أو مدروسة بشكل مسبق، بل هي قد تظهر لأنّ لها قدرة على إضاءة كثير من جوانب ألف ليلة وليلة الهنديّة والفارسيّة والعربيّة، وقد تظهر انطلاقاً من نصوص ألف ليلة وليلة، التي تحمل في فضاءاتها السرديّة مزيداً من المقولات، والأطروحات الإيديولوجيّة.

وقد قسّمت دراستي ثلاثة فصول، يبتدئ الفصل الأول والثاني منها بمدخل، وقد جاءت هذه الفصول على الشكل الآتي:

الفصل الأول وعنوانه: المدن المركزيّة في ألف ليلة وليلة. (مدن العراق)

وقد تحدّثت في هذا الفصل عن أهمّ ملامح المدن التي بدا لي أنّها مدن مركزيّة، على المستوى الاجتماعي والسياسي والتجاري، ومن حيث عدد الحكايات التي حدثت فيها، ومن حيث كونها فضاءات مهمّة وأليفة يعشقها الأبطال، وينمو فيها السرد محتضناً هؤلاء الأبطال من الملوك والخلفاء ورجال السلطة، والتجّار والنساء، وهذه المدن هي: بغداد والبصرة وقد انطلقت من نصوص الحكايات نفسها. واعتمدت في الوقت نفسه كثيراً من المرجعيّات المعرفيّة التي أرّخت لهاتين المدينتين عبر مسيرتهما الحضاريّة والتاريخيّة.

الفصل الثاني وعنوانه: المدن شبيهة بالمركزية في ألف ليلة وليلة. (مدن مصر وبلاد الشام)

ودراستي لهذا الفصل لا تختلف كثيراً عن الفصل السابق، إذ اتّبعت الخطوات التي اتّبعتها في الفصل السابق، وقد عرضت لملامح القاهرة التي يسميها الرّواة مدينة مصر، ولملامح دمشق في عهدها الأمويّ، وكما أرّخت لها نصوص ألف ليلة وليلة. وهاتان المدينتان هما أهمّ مدن مصر وبلاد الشام في حكايات ألف ليلة وليلة. ويمكن اعتبارهما مدينتين مركزيّتين، إلاّ أنّهما أقلّ مركزيّة من بغداد والبصرة، غير أنّ مدينة القاهرة تفوق مدينة دمشق، من حيث عدد الحكايات، ومن حيث ارتحال السرد وحركة الأبطال، على الرغم من أنّ دمشق كانت عاصمة للدولة العربيّة الإسلاميّة في العهد الأموي. وقد حاولت في هذا الفصل أن أشير إلى معظم الملامح السياسيّة الاجتماعيّة والتجاريّة، التي بدت على وجوه هذه المدن سواء أكانت جميلة أم قبيحة،

وتأسيساً على وصف الرّواة لهذه المدن.ثم ألحقت هذا الفصل بمدخل ذكرت فيه أهم المدن الثانوية التي هي محكات يتوقف فيها السرد، في ارتحالاته إلى المدن البعيدة، وهي لا تشكل بنية مهمة فاعلة في نمو الأحداث وتداخلها، وحركة شخوصها.

الفصل الثالث وعنوانه: المدن الخيالية في ألف ليلة وليلة.

وحاولت في هذا الفصل أن أدرس أهم ملامح المدن والجزر الخيالية التي لا تبدو معروفة على خارطة العالم الجغرافية المعاصرة، وركّزت على مظاهر المدهش والغرائبي، والسحري والعجائبي الخارق في بنيات السرد وارتحالاته إلى هذه المدن والجزر الخيالية، كما أشرت إلى أهم أشكال السحر وطرقه وأدواته، ودوره في مساعدة الشخوص والأبطال للوصول إلى غاياتهم وأهدافهم حين ارتحالهم إلى هذه المدن الخيالية الغارقة بالجمال والثراء، والكنوز المقنطرة من الذهب والفضة ونساء الجان ورجاله المؤمنين الأخيار، والأشرار الكفار في آن، والنساء فائقات السحر والبهاء، اللواتي قلّما تجود بهن مدن ألف ليلة وليلة الواقعية والمعروفة. كما قمت بتلخيص أهم واحدة من أهم حكايات ألف ليلة وليلة السحرية التي يرتحل فيها الأبطال من البصرة إلى واق الواق، مبينًا أهم مظاهر حالات السحر فيها، كما أشرت إلى بعض مظاهر النصب والاحتيال وطرقها وأهدافها، من خلال بعض الحكايات.

وقد لاحظت، من خلال كثير من الدراسات حول ألف ليلة وليلة، والتي استطعت الاطلاع عليها، سواء أكانت مترجمة إلى اللغة العربيّة أم مكتوبة بها، أنّ هذه الدراسات لم تدرس موضوع المدينة في ألف ليلة وليلة دراسة مستقلّة ومستفيضة، ولا موضوع السلطة، سواء أكانت سياسيّة أم دينيّة أم تجاريّة، داخل هذا الفضاء المكانيّ المتشعب من واق الواق وجوهر تكني، إلى الصين والهند وخراسان، وإلى أبعد مكان تخيّله الرّواة، وأضفوا عليه هالة أسطوريّة وخرافيّة، وإلى أقرب أمكنة واقعيّة بدت هي الأخرى ممزوجة بالسحر والغرابة، ومن هذه الأمكنة: دمشق وبغداد والبصرة والقاهرة والإسكندرية وصنعاء وفاس وغيرها من المدن الكثيرة، فمعظم الدّراسات التي اطّلعت عليها لم تولِ المدينة في حكايات ألف ليلة وليلة، بقصورها ومنازلها، والعلاقات القائمة في هذه القصور والمنازل، وأسواقها وحمّاماتها

وبساتينها ومشافيها، الأهميّة التي تستحقها، ولم تول هذه الدراسات السلطة بسلوكها واستبدادها وعلاقاتها مع شعوبها، أهميّة كبرى أو رئيسة أو مستقلّة، ولهذه الأسباب مجتمعة كان اختياري لموضوع يعد جديدًا في الدراسات المعاصرة وهو موضوع المدينة ألف ليلة وليلة.

ومن هنا، فإنّ الآراء التي تطالب بالتوقّف عن البحث في حكايات ألف ليلة وليلة، بدعوى أنّ هذه الحكايات قد استوفت حقّها من الدراسة والتحليل ليست صائبة تماماً، لأنّ نصوص الليالي قابلة لمزيد من الدرس والتحليل، ومن زوايا نظر متعددة، بتعدّد الباحثين وقدراتهم ومواهبهم، وطرائقهم المختلفة في التحليل والدراسة. فالأبحاث في ألف ليلة وليلة لا يمكن أن تكون نهائيّة، لأنّ هذه النصوص تنفتح على تاريخ الأمم والحضارات، وميثولوجياتها، وعاداتها وقيمها وثقافتها، وحروبها وانتصاراتها وهزائمها، وعلى ما هو جميل وقبيح، وخيّر وشرير فيها، وبالتالي فإنّ البحث في هذه النصوص يظلّ قائماً ومشروعًا، لأنّ نصوص ألف ليلة وليلة تظلّ نصوصاً خالدة على مرّ العصور، وقادرة على أن تكون منبعاً ثرّاً لكثير من النصوص الإبداعيّة الحديثة، سواء في الشعر، أو في القصّة، أو في الرواية، أو في المسرح، أو في السينما.

أمّا مصادري ومراجعي في هذا البحث فهي كثيرة، بحيث يبدو الحديث عنها مجتمعة صعبًا جدًا . وقد أشرت إليها بكلّ أمانة في هوامش البحث، بالإضافة إلى فهرس المصادر والمراجع والدّوريّات في آخر البحث، ومن المراجع التي اطّلعت عليها، والتي تناولت مواضيع شتّى في ألف ليلة وليلة: مدخل إلى الأدب المقارَن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة لمحمود طرشونة، وألف ليلة وليلة لسهير القلماوي، ورحلة في ألف ليلة وليلة لعبد الغني الملاّح، وألف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر العباسي لميخائيل عوّاد، والوقوع في دائرة السحر ـ ألف ليلة وليلة في النقد الأدبي الإنكليزي لمحسن جاسم الموسوي، وخير الزاد من حكايات شهرزاد لبوعلي ياسين، والمساحة المختفية ـ قراءات في الحكاية الشعبيّة لياسين النصير، ومضمون الأسطورة لخليل أحمد خليل، والمرأة واللغة لعبد الله محمد

الغَذّامي، وفي الكتابة والتجربة لعبد الكبير الخطيبي، والسّرديّة العربيّة لعبد الله إبراهيم، و«ألف ليلة وليلة» ضمن كتب دائرة المعارف الإسلاميّة. وأعداد مجلة فصول القاهريّة، الأعداد الخاصّة بالحديث عن ألف ليلة وليلة «المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، شتاء 1994م. والمجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع 1994م». وجميع هذه المراجع، على الرغم من أهميّتها الكبيرة وصلتها المباشرة بألف ليلة وليلة، لم تقدّم لي العون الكبير في بحثي، لأنّها لا تقترب من موضوعه، ولأنّها درست ألف ليلة وليلة انطلاقاً من رؤى وموضوعات مغايرة لدراستي، ولذا فإنّ اقتباساتي منها، وإشاراتي إليها نادرة جداً، كما سيلاحظ القارئ الكريم. أي أنّ هذا البحث لم يؤسّس ما جاء فيه على هذه الدراسات السابقة، بل أسّس بالدرجة الأولى على ما جاء في نصوص ألف ليلة وليلة، من أحداث وموضوعات وعادات وقيم ومفاهيم، ولا أعني أنّ هذا البحث سبق غيره، وأتى بنتائج أكثر دقة من النتائج التي توصّل إليها باحثون آخرون، بل أعني أنه جديد من حيث التركيز على موضوع المدينة، عادات وثقافات وقيمًا وأعرافًا، غير أنه لا يتعدّى المحاولة المنهجية الجّادّة، وقد تخطئ هذه المحاولة وقد تصيب، لأنّ البحث في عمل متشعّب مثير، وخصب مشبع بالدّلالات والأبعاد المعرفيّة، كألف ليلة وليلة، لا يمكن أن يقدّم نتائج نهائية وثابتة، بل إنّ هذه النتائج قابلة للتباين من باحث إلى آخر، وستظلّ متباينة بتباين قدرات الباحثين ومواهبهم، وطرائقهم في التحليل والتأويل.

أمّا المراجع الآتية، وعلى الرغم من عدم صلتها المباشرة بنصوص ألف ليلة وليلة، فقد كانت ذات أهميّة خاصّة في بحثي، وذلك لأنّها شكّلت لي خلفيّة معرفيّة، استطعت من خلالها أن أفهم طبيعة الحياة في المدينة العربيّة الإسلاميّة، وتشكيلاتها الطبقيّة، وبعض الملامح العمرانيّة. وهذه المراجع هي: هرون الرشيد لأحمد أمين، وتخطيط المدن الإنسانيّ عبر العصور لمحمد حمّاد، والمدينة الإسلاميّة لعبد الستّار عثمان، وتاريخ الإسلام السياسيّ والديني والثقافي والاجتماعي لحسن إبراهيم حسن، ومدن وشعوب إسلامية لحسّان حلاّق، وكتاب «بغداد» ضمن كتب دائرة المعارف الإسلاميّة لمجموعة من الباحثين، والعصر الإسلامي لشوقي ضيف، والمرأة

والمؤسّسات الاجتماعيّة في الحضارة العربيّة لسعيد عبد الفتاح عاشور.

أمّا كتاب العصر العباسي الأوّل لشوقي ضيف، وكتاب الحضارة العبّاسية لوليم الخازن، فقد كانا أهمّ مرجعين استطعت من خلالهما أن أفهم بعض جوانب الحياة العبّاسية، وبالتالي بعض جوانب الحياة في المدينة الإسلاميّة العبّاسيّة في ألف ليلة وليلة.

أمّا المراجع الآتية: في تراثنا العربي الإسلامي لتوفيق الطويل، والإسلام والجنس لعبد الوهاب بوحديبة، وتراث الإسلام لمجموعة من المؤلفين (تصنيف جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث)، ومسيرة الحضارة ضمن موسوعة بهجة المعرفة بإشراف الصادق النيهوم، فقد أفدت منها حين الحديث عن العلوم التي كانت سائدة في مدينة بغداد العباسية.

وتبقى المراجع الأجنبيّة المترجمة الآتية: جغرافية دار الإسلام لأندريه ميكيل، والإسلام منهج حياة لفيليب حتّي، والإسلام والعرب لروم لاندو، أهمّ المراجع المترجمة التي أمدّتني بمعلومات مهمّة، ساعدتني بدورها على صياغة كثير من مفاهيم هذا البحث.

أمّا الأبحاث الطويلة الكثيرة المنشورة في الدوريّات العربيّة فقد أمدّتني بمادة عمليّة مهمّة ساعدتني على فهم بعض نصوص ألف ليلة وليلة. وقد يكون من أهمّ هذه الأبحاث:

ـ «يوم كانت القاهرة عاصمة للدنيا «لمصطفى نبيل: (مجلة الهلال المصريّة، العدد الرابع، إبريل 1993م). وقد أمدّني هذا البحث بمعلومات مفيدة في ما يخصّ مدينة القاهرة في الفصل الثاني من هذا البحث.

ـ «البصرة في ذاكرة الحضارة» لهادي العلوي: (مجلة البديل العراقيّة، تشرين الأول 1987م)، وقد قدّم لي هذا البحث معلومات مهمّة عندما تحدّثت عن البصرة في الفصل الأول من هذا البحث.

أمّا المصادر المهمّة التي شكّلت خلفيّة مرجعيّة، استطعت من خلالها أن

أقيم علاقة بين النصّ الحكائي في ألف ليلة وليلة، وبين حقيقة هذا النصّ التاريخيّة، فهي: الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة لمحمد بن علي بن طباطبا، ومروج الذهب لعلي بن حسن المسعودي، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والفرج بعد الشدّة لأبي علي المُحَسِّن بن علي التنوخي، والعقد الفريد لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي. وقد ساعدتني هذه المصادر أيضاً في إعطائي معلومات مهمّة، عندما تحدّثت عن ملامح بعض الشخصيات التاريخية التي احتفى بها السرد الحكائي في نصوص ألف ليلة وليلة.

أمّا معجم البلدان لياقوت الحموي، فقد كان أهمّ مصدر، أسّستُ ـ اعتماداً عليه ـ معظم ما جاء من معلومات عن بعض بلدان ألف ليلة وليلة ومدنها المهمّة التي تحدّثت عنها في الفصل الأول والثاني من هذا البحث، وهي: بغداد والبصرة ودمشق والقاهرة.

ويبقى أهمّ مصدر رئيس اعتمده هذا البحث في دراسة الموضوعات الرئيسة والفرعيّة، هو: ألف ليلة وليلة (بأجزائه الأربعة، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ). غير أنّ هذه الطبعة ليست الوحيدة التي اطّلعت عليها، فقد اطّلعت على الطبعات الآتية من ألف ليلة وليلة: (طبعة المكتبة الشعبيّة، بيروت، د.ت، بأجزائها الأربعة)، و(طبعة دار مكتبة التربيّة، بيروت، بأجزائها الأربعة الطبعة السادسة، 1412هـ/1992م)، و(طبعة دار صارد بيروت، الطبعة الأولى 1999م)، والطبعة المهذّبة التي أعدّها رشدي صالح (دار الشروق، القاهرة، جزءان)، وهي طبعة ناقصة، وبالتالي كان طبيعياً ألاّ يعتمدها هذا البحث.

أمّا سبب اعتمادي طبعة دار مكتبة الحياة؟ فإنّه يعود إلى مقارنتي بين الطبعات الأربع (مكتبة الحياة ـ المكتبة الشعبيّة ـ مكتبة التربية، دار صادر)، فبعد هذه المقارنة وجدت أنّ الفروق بين هذه الطبعات طفيفة جداً، وأنّ هذه الطبعات تكاد تكون متطابقة تماماً: في الحكايات، والأحداث، والمدن الواقعيّة والمتخيّلة، والأبطال من الملوك والخلفاء والنساء والتجّار. من هنا بدا طبيعياً أن أختار نسخة رئيسة أعتمدها في هذه الدراسة، وهي طبعة دار مكتبة الحياة، ونسخة فرعية أخرى، كان رجوعي

إليها قليلاً جدًا في الفصل الموسوم بـ (المدن الخيالية في ألف ليلة وليلة) وهي طبعة المكتبة الشعبية، فقد اضطررت للرجوع إليها عندما اكتشفت أن قليلاً من أوراقها فيه بعض الزيادات عن طبعة دار مكتبة الحياة، ولعلّ السبب الرئيس في اختيار هذه النسخة الرئيسة، دار مكتبة الحياة، هو ببساطة: أنّ الخط الطباعي الذي طُبعت به هذه النسخة أكثر وضوحًا من خلال كثافته اللونيّة، مقارنة بخط الطبعات الأخرى. وهذا الخط، كما أرى، مريح للعينين، ويجعل من القراءة فعلاً ممتعاً وجذّاباً، أكثر مما لو كان الخط الطباعي غير واضح.

وأخيراً آمل أن تكون هذه الدراسة قد شكّلت لبنة جديدة مساندة لمجموعة الدراسات التي سبقتها، وأضافت إليها كثيرًا من الآراء الجديدة، وأن تكون قادرة على إثارة مزيد من القضايا التي طرحتها حكايات ألف ليلة وليلة، ومحرّضة على كتابة مزيد من الأبحاث عن هذا العمل الخالد، الذي يعدّ من أهمّ الأعمال التي أبدعها العقل الإنساني في تاريخ الحضارات الإنسانيّة، والذي هو بحاجة إلى مزيد من الأبحاث والدراسات الجادّة، ولا سيما أنّ هناك قضايا وجوانب كثيرة فيه لم تتناولها هذه الدراسات بعد على الرغم من كثرتها. وآمل مستقبلاً أن أستطيع إنجاز المزيد منها.

والله ولـيّ التوفيـق

تـايبيــه ـ تايوان في 2014/7/18م
اللاذقية ـ سورية في 2021/3/14م

محمد عبد الرحمن يونس
أستاذ في جامعة جين جي الوطنية، تايوان، تايبيه
نائب رئيس جامعة ابن رشد في هولندا للشؤون العلمية، التعليم المفتوح.
Mohammad Abdul Rahman Younes
Taipei – Taiwan

الفصل الأول

المدن المركزيَّة في ألف ليلة وليلة
(مدن العراق)

مدخل

1 ـ بغداد

أ ـ لمحة تاريخية عن بغداد.

ب ـ بغداد في ألف ليلة وليلة.

2 ـ البصرة

أ ـ لمحة تاريخية عن البصرة.

ب ـ البصرة في ألف ليلة وليلة.

مدخـل

تشكّل حكايات ألف ليلة وليلة من المدينة محوراً أساساً لوصفها وسردها، ومن خلال هذه الحكايات يقدّم الرواة مدنهم تقديماً جمالياً ومثيراً، وبمزيد من الاحترام والإكبار لتخطيط هذه المدن، ومظاهرها الخارجية والزخرفية وبساتينها المنظّمة وأسواقها التجارية ومعاملاتها، وقصورها الشامخة ولذة العيش فيها، وما يدور فيها من علاقات وتقاليد ودسائس ومؤامرات.

وتتعدد المدن والبلدان في ألف ليلة وليلة لتشمل معظم مدن العالم التي عرفها الرواة معرفة شخصيّة، عن طريق معايشتهم لها سكناً أو سفراً إليها، أو سماعاً عنها، أو قراءةً من خلال المصادر التاريخية التي تتحدّث عن أوصافها وأعرافها وقيمها وتشكيلاتها الجغرافية، ببحارها وجزرها، وقلاعها، وأسوارها، سواء أكانت مدناً عربية إسلامية أم فارسية أم أوروبية، أم شرق آسيوية. فمن المدن والبلدان العربية يذكر الرواة صنعاء واليمن، والشام (دمشق)، وحلب، والقدس وعكّا وغزّة وعسقلان، والقاهرة ودمياط والإسكندرية وبلبيس، وبغداد والبصرة والكوفة والموصل، ويذكرون من مدن المغرب الأقصى فاس ومكناس وذلك في حكاية «**جودر ابن التاجر عمر وأخويه**». ويذكرون بعض البلدان الأوروبية التي يسميها الرواة «بلاد الإفرنجة». بمدنها وأقاليمها، ويذكرون منها فرنسا والنمسا. وعندما يذكر الرواة بلاد الإفرنجة، فإنّهم يعمّمونها على كثير من المدن الأوروبية، من دون أن يذكروا اسماً لهذه المدن، وذلك في حكاية «**عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان**». ومن مدن تركيا

يذكرون «القسطنطينية»، ويصلون إلى إيطاليا ليذكروا مدينة «جنوى» و«البندقية»، في حكاية «**عمر النعمان وولديه**»، ويعرّجون على بلاد السند والهند وعجائبها.

ومن البلدان الشرق آسيوية يذكرون الصين، وهناد[1]، وأحياناً تُطلق الصين على كل المدن الصينية التي يذكرها الرواة من دون تحديد اسم أية مدينة. ومن الحكايات التي تذكر الصين حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، وحكاية «**الملك قمر الزمان والملكة بدور**».

ومن البلدان المتاخمة للبلاد العربيّة الإسلاميّة، يذكر الرواة بلاد فارس «بلاد العجم»، ومن أهم الأقاليم الفارسية التي ترد في الحكايات إقليم «خراسان»، إذ يشير الراوي بهذا الإقليم إلى بلاد فارس كلها، وعندما يصل بقصصه إلى فضاءات فارسية بعيدة لا يعرف اسماً لها، فإنه يسمّيها بالمدينة الخضراء[2]، والأرض البيضاء[3].

ونلاحظ أنّ الرّواة عندما يذكرون المدن العربية الإسلامية، فإنهم يذكرونها مقرونة بأسماء خلفائها وحكّامها، إذ تُذكر بغداد مقرونةً باسم الخليفة هرون الرشيد: «وسافر بها إلى بغداد وكان ذلك في زمن هرون الرشيد».[4]، وتُذكر مقرونةً أيضاً باسم ولده المأمون[5]. وهناك إشاراتٌ طفيفة إلى محمد الأمين (ابن هرون الرشيد)، وذلك في «**حكاية الحمال والبنات**»: «ثمّ إنّ الخليفة أحضر ولده الأمين بين يديه»[6].

وتُذكر البصرة مقرونة باسم سلطانها محمد سليمان الزيني[7]. ويتزامن ورود الكوفة مقروناً باسم واليها الظالم ـ كما يرى أحد الرواة ـ الحجاج بن يوسف الثقفي[8]، وذلك في حكاية «**نعمة ونعم**».

(1) سأثبت جدولاً يبيّن بالتفصيل مواضع هذه المدن في مجلدات ألف ليلة وليلة، وذلك في نهاية الفصل الثالث من هذه الدراسة.
(2) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 410.
(3) م ن، 1 / 411.
(4) م ن، 1 / 217.
(5) م ن، 3 / 71.
(6) م ن، 1 / 88.
(7) م ن، 1 / 183.
(8) م ن، 2 / 325.

وتُذكر دمشق مقرونةً باسم الخلفاء الأمويين،كالخليفة عبد الملك بن مروان[1]. وفي حكاية أخرى يذكر أحد الرّواة أن ملك دمشق هو الملك عمر النعمان. يقول في حكاية «**عمر النعمان وولديه**»: «كان بمدينة دمشق، قبل خلافة عبد الملك بن مروان، ملك يقال له عمر النعمان، وكان من الجبابرة الكبار»[2].

ومن هنا يمكن القول إنّ راوي هذه الحكاية لا يعرف تماماً وبدّقة تاريخ الخلافة الأمويّة، وأسماء الخلفاء الذين تعاقبوا على الدولة الأمويّة، فلا يوجد بين الخلفاء الأمويين خليفة يُدعى «عمر النعمان». وتذكر المصادر التاريخية أن الخليفة السابق لعبد الملك بن مروان هو والده مروان بن الحكم (ت 65 هـ/685 م)[3]. ويبدو أن الرّاوي شكّل هذه الشخصية من تخيّلاته ليتخلّص من الحرج الذي يصيبه، وهو يتحدّث عن مفاسد هذا الملك وجبروته، وانهماكه في نكاح النساء[4]، هو وولده شركان، وبالتالي عن المفاسد والملاهي التي رافقت حياة بعض خلفاء الدولة الأمويّة.

والغريب أنّ رواة ألف ليلة وليلة لا يحتفون بالجزيرة العربية، ولا بمدنها، على الرغم من مركزيتها الإسلامية، إلاّ أنّ أحد الرّواة يذكر الحجاز[5]، ومكّة وجدّة[6]. وتبقى فضاءات الجزيرة العربية فضاءات غير مركزيّة في ليالي ألف ليلة وليلة، إذ لا يتوقّف السرد عندها طويلاً، ولا يسجّل ملامح حياة شعوبها، وإن ذُكِرت فإنها تُذكر لمجرد كونها طريقاً يمرّ فيه الأبطال من دون توقّف.

غير أن أحد الرّواة يذكر فضاءً مهماً من فضاءات الجزيرة العربية، وهو فضاء الكعبة، باعتباره فضاءً مركزياً دينياً مقدّساً يؤمّه الزوّار من الدول الإسلامية كافة، وذلك في حكاية «**الحشاش مع حريم أحد الأكابر**»[7].

(1) م ن، 2 / 328.
(2) م ن، 1 / 242.
(3) الذّهبي، شمس الدين أبو عبد الله: **دول الإسلام**، دون محقق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، طبعة 1985 م، ص39.
(4) **ألف ليلة وليلة**، 2 / 243.
(5) م ن، 1 / 242 ؛ 4 / 141، 445.
(6) م ن، 4 / 281، 79.
(7) م ن، 2 / 421.

إنّ هذه المدن الآنف ذكرها، هي من أهم المدن المتشكّلة جغرافيّاً على خارطة العالم المعروفة قديماً وحديثاً، والتي عايشها رواة ألف ليلة وليلة، أو سمعوا عنها، أو قرأوا عنها في المصادر التاريخية. ونظراً لأنّ هذه المدن كثيرة جداً ومعروفة، وقد احتلّت مكانةً متميّزةً مرموقةً في عصور التاريخ ولا تزال، فإني سأكتفي بعرض وصف للمدن الآتية: **بغداد، البصرة، دمشق، القاهرة** [1]، لأنها أهم المدن العربيّة الإسلاميّة التي ذكرتها الليالي، منطلقاً من نصّ الليالي نفسه، ومعتمداً أحياناً بعض الأدبيات التاريخيّة التي ذكرت هذه المدن وأرّخت لها.

(1) في نهاية الفصل الثاني من هذه الدراسة، وفي ملحق: المدن الثانوية، تحدثت عن بعض ملامح مدينتي الإسكندرية وحلب، وكما وردت في حكايات **ألف ليلة وليلة**.

1 ـ بغداد

لمحة تاريخية عن بغداد

بغداد هي «أمُّ الدنيا وسيّدة البلاد»[1]، و«كانت فيما مضى قصبة العباسيين الزّاهرة وعاصمـــة العالم الإسلامي (...) ويخترقها نهر دجلة، وهي على خط عرض 39ْ 19َ شمالاً وخط طول 44ْ 44َ شرقي كرينوتش»[2]. وعندما أراد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[3] بناءها لجأ إلى المنجّمين لكي يرشدوه إلى تعيين الوقت الملائم لبنائها[4].

وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ المنصور: «استشار دهقان بغداد، وكانت قرية (...) فقال: الذي أراه يا أمير المؤمنين أن تنزل في نفس بغداد، فإنّك تصير بين أربعة طساسيج[5]: طسوجان في الجانب الغربي، وطسوجان في الجانب الشرقي، فاللذان

(1) ياقوت، الحموي: **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1979 م/ 1399 هـ، 1 / 456

(2) شترك، م ؛M . Streck: «بغداد» في: «بغداد»،كتب دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت الطبعة الأولى، 1984 م، ص 11.

(3) أبو جعفر المنصور: (عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، 95 ـ 158 هـ / 714 ـ 775 م): ثاني خلفاء بني العبّاس وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب.كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدّماً في الفلسفة والفلك، محبّاً للعلماء.ولد في الحميمة من أرض الشراة (قرب معان) وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفّاح سنة 136 هـ.
الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، شباط / فبراير 1997، الجزء الرابع، ص117

(4) نادر، د. ألبير نصري: في شرح كتاب «أبو نصر الفارابي – كتاب الجمع بين رأيي الحكمين «،دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، د.ت، ص 63 .

(5) طساسيج: مفردها طَسُوج: ناحية.

في الغربي قَطْربُّل وبادوريا، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلوَاذى، فإنّ تأخّرت عمارة طَسُوج منها كان الآخر عامراً وأنت يا أمير المؤمنين على الصّراة ودجلة، تجيئك بالميرة (...) فأعجب المنصور هذا القول وشرع في البناء»[1].

هذا وقد شرع المنصور في بنائها سنة 145 هـ/ 763 م، ونزل إليها سنة 149 هـ/766 م[2]. وقد بُنيت هذه المدينة التاريخيّة المهمّة، لتكون عاصمةً رئيسةً للدولة العباسيّة، ومركزاً حضارياً سياسياً مهمّاً، وقد أخذت في تخطيطها المعماري: «شكل دائرة يتوسّطها قصر الخليفة والجامع، وتحيط به قصور القادة ورجال الدولة. وكان لها سور وأربعة أبواب وهي: باب خراسان، وباب الكوفة، وباب الشام، وباب البصرة.»[3]

إنّ انفتاح بغداد على بلدان العالم التي حددها دهقان بغداد، كما ورد في معجم البلدان، جعل منها مدينةً حضاريّةً قابلةً لأن تتفاعل مع حضارات المدن المحيطة بها، وبالتالي لأن تكون مركزاً علمياً ومعرفياً في تاريخ العواصم العربيّة الإسلاميّة في العهد العباسي. وقد خُططت بغداد «لتكون عاصمة عهد إسلامي جديد، ولذا كانت فيها مؤسسات للخلافة إضافة إلى مؤسسات خاصة بالمدينة (...) فبغداد العاصمة،كانت مقرّ المؤسسة السياسيّة الأولى، الخلافة، مع تأكيد جديد على دورها الإسلامي، وفيها كان الإمام ـ الخليفة، الحامي، وأحياناً الدّاعي إلى آراء دينية سياسيّة (المهدي والزندقة، المأمون والاعتزال، المتوكّل والسنّة.»[4].

وبالإضافة إلى كون بغداد مركزاً سياسياً مهمّاً في تاريخ الدولة العباسيّة، فقد رُوعي في بنائها أن تصدّ هجمات المغيرين، لأنّ أهل الكوفة كانوا يفسدون جند أبي جعفر المنصور «فبلغه ذلك من فعلهم، فانتقل عنهم يرتاد موضعاً.»[5]. ومن هنا كان

(1) **معجم البلدان**، 1 / 458.

(2) م ن، 1 / 457.

(3) حلاّق، د. حسان: حلاّق، د.حسان:**مدن وشعوب إسلامية**، دار الراتب الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى، آذار / مارس، 1992م، 1 / 166.

(4) الدوري، د. عبد العزيز:» المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية – نظرة تاريخية إلى بغداد «، **مجلة الأبحاث**، الجامعة الأميركية، بيروت، السنة السابعة والعشرون، 1978 م / 1979 م، ص 12.

(5) **معجم البلدان**، 1 / 457.

تخطيطها يعتمد على تحصينها تحصيناً متيناً، بحيث يجعلها تصمد أمام هجمات المعتدين، وقد ساعد تخطيطها الدائري على ذلك، هذا التخطيط الذي:

«أوفى بالغرض الحربي بإعطاء رؤية متكاملة وواضحة للجند المدافعين عن أسوار المدينة عمّا لو كانت المدينة مستطيلة أو مربّعة، كما أنّ هذا التخطيط المستدير حقّق غرضاً اقتصادياً من ناحية التوفير في تكاليف البناء. فمحيط قطعة الأرض على شكل دائرة أقلّ من محيط المربّع المساوي لها في المساحة بمقدار 11.27 %. ولا شكّ أنّ التوفير في تكاليف الإنشاء أمر مرغوب فيه، ويدعم الموقف الحربي بصورة غير مباشرة، بالإضافة إلى أنّ الاقتصاد شرط من الشروط الأساسيّة التي يجب توافرها في العمارة بمعناها الصحيح»[1]

وقد كلّف هذا التخطيط المعماري لمدينة بغداد خزانة الدولة، في عهد المنصور، ثمانية عشر ألف ألف دينار، وفي رواية الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي، ت 463 هـ/ 1072 م)، أنّ الخليفة المنصور أنفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والأبواب والأسواق، حتى غاية انتهائه من بنائها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثمانين ألف درهم[2].

إنّ بغداد أهمّ و«أشهر مدن الشرق، ومركز حضارة عالمية حتى سقوطها عام 1258م، على يد هولاكو المغولي. [وهي] وقرطبة في الأندلس، كانتا مهد الحضارة الشرقية.»[3]. ومع اتساع رقعة الدولة الإسلاميّة في العهد العبّاسي، وانفتاحها المعرفي والحضاري على حضارات العالم الأخرى، وتعقُّد الهيكليّة التنظيميّة والسياسيّة في الدولة العباسيّة، وحاجة الدولة إلى مؤسسات إدارية جديدة،ستتسع بغداد في عهد

(1) عثمان، د. محمد عبد الستار: **المدينة الإسلامية**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، «سلسلة عالم المعرفة»، العدد 128، ذو الحجة 1408 هـ / آب (أغسطس)، 1988 م، ص 141.

(2) **معجم البلدان**، 1 / 459.

(3) الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية 1992 م، ص 40 – 41.

الخليفة هرون الرشيد (78 ـ 809م)، وعهد ولده المأمون (813 ـ 833م)، لتصبح «تجمعاً كثيفاً يمتدّ على حوالي تسعة أو عشرة كلم. وذلك يعني أنّها أصبحت أهمّ مدن الشرق وأكبر مدينة في العالم، وقيل إنّ بيزنطيّة تمنّت بعض عزّها والطرق البريّة والبحريّة تتلاقى فيها، مما جعلها صرّة العالم، يصبّ فيها الغنى المادي والروحي من مختلف الأقطار. وقد ظلّت مركز العالم الإسلامي طوال خمسة قرون»[1]

أخذت بغداد عبر تاريخها أسماءً عديدةً فهي «مدينة السلام»، أو «دار السلام»[2]ويبدو أنّها سمّيت بدار السلام تيمناً بالنصّ القرآني الكريم، فدار السلام في النصّ القرآني تعني الجنّة[3]. وقد وردت «دار السلام» في الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]. ووردت أيضاً في الآية: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5]. وفيما بعد حدّد المسلمون جنان الأرض بأربعة مواضع وهي: الأبُلّة[6] وغوطة دمشق ووادي بقران ببلاد فارس وبغداد[7].

ويروي ياقوت الحموي[8] عن موسى بن عبد الحميد النسائي، أنّه قال: «كنت جالساً عند عبد العزيز بن أبي روّاد فأتاه رجل فقال له: من أين أنت؟ فقال له: من بغداد، فقال: لا تقل بغداد فإنّ بغ صنم وداد أعطى، ولكن قل مدينة السلام، فإنّ الله

(1) الخازن، د. وليم: **الحضارة العباسية**، ص 43.
وأخذ الخازن عن/ Lombard, Maurice: L´eslam dans sa première grandeur (x1e – x111e s.), Flammarion, paris 1971, pp. 127 – 129.

(2) شترك .م ؛ Streck . M: «بغداد» في: «بغداد»، **دائرة المعارف الإسلامية**، ص 12.

(3) الكاشاني، المولى محسن الفيض: **تفسير الصافي**، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثانية، 1402 هـ/ 1982م، الجزء الثاني، ص 399.

(4) سورة يونس، آية 25.

(5) سورة الأنعام، آية 127.

(6) الأبُلّة: بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة وكانت مدينة تابعة لكسرى وفيها مسالح وقائد من قبل كسرى.
- **معجم البلدان**، 1 / 77.

(7) شترك، م: «بغداد «في: «بغداد»، **دائرة المعارف الإسلامية**، ص 13.

(8) **معجم البلدان**، 1 / 456.

هو السلام والمدن كلّها له». ويطلق ياقوت الحموي[1] على بغداد الأسماء الآتية: بغداد وبغدان، وبغداذ، ومغداذ، ومغداد، ومغدان،ومدينة السلام، والزوراء.

وتنتسب بغداد في بعض التسميات، إلى منشئها أبي جعفر المنصور، فتسمّى بـ«المنصوريّة»[2]. وقيلِ سمّيت بالزوراء قديماً، لأنّ قبلتها غير مستقيمة، إذا يحتاج المصلّي في مسجدها الجامع ؛ إلى أن ينحرف إلى جهة اليسار قليلاً حتى يقابل الكعبة[3].

لقد اختار المنصور لبغداد موقعاً استراتيجياً مهمّاً، راعى فيه أن تكون محصّنة ضد هجمات الأعداء، يساعدها في ذلك موقعها الطبيعي الجغرافي، حيث نهرا دجلة والفرات، يشكّلان ما يماثل الخنادق الطبيعية التي تحمي المدينة، ويسهمان أيضاً في نقل الزاد والمؤونة والبضاعة التي تأتي إلى بغداد من ثغور المدن الأخرى، بالإضافة إلى توسّطها مجموعة من المدن الكبيرة والمهمّة التي شكّلت حواضر الدولة الإسلاميّة. ويبين ابن طباطبا [4] أهمّية موقع بغداد قائلاً:

> **«ونبّهه [أي نبّه المنصور] بعض عقلاء النصارى على فضيلة مكانها فقال: يا أمير المؤمنين تكون على الصّراة بين دجلة مع الفرات فإذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك، ثمّ إنّ الميرة تأتيك في دجلة من ديار بكر تارة ومن البحر والهند والصين والبصرة، وفي الفرات من الرّقة والشأم، وتجيئك الميرة أيضًا من خراسان وبلاد العجم في شطّ تامرّا. وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصل عدوّك إليك إلاّ على جسر أو قنطرة،فإذا قطعت الجسر أو أخربت القنطرة لم يصل إليك عدوّك. وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد. وأنت قريبٌ من البرّ والبحر والجبل».**

(1) م ن، 1 / 456.

(2) شترك، م : م س، 13.

(3) ابن طباطبا، محمد بن علي: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دون محقق، دار صادر، بيروت، د. ت، ص 163.

(4) **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص 162.

ويبدو أنّ هذا الموقع الجغرافيّ المهمّ لمدينة بغداد، يحقق الشروط التي يجب أن تتوافر في بناء المدن، حتى لا يصيبها الخراب لاحقاً، كما حددها ابن خلدون[1] في مقدّمته إذ يجب أن تُبنى المدن في رأيه:

«إمّا على هضبة متوعّرة من الجبل، وإمّا باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلاّ بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها. وممّا يُراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض ؛ فإنّ الهواء إذا كان راكداً خبيثاً، أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفّنة أو مروج خبيثة أسرع إليه العفن من مجاورتها (...) وأمّا جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور. منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرّة،فإنّ وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية (...) وممّا يُراعى أيضاً المزارع ؛ فإنّ الزروع هي الأقوات ؛ فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتّخاذه وأقرب في تحصيله».

ويبدو أنّ موقع بغداد كان يحقق جميع هذه الشروط التي وضعها ابن خلدون، فهي قريبة من مناهل الماء، وهواؤها نقيّ، وتربتها صالحة لإنبات الزروع [2]، ومن هنا فقد امتلأت بغداد بالبساتين في العهد العباسي، كما تصوّرها ألف ليلة وليلة.

لقد غدت بغداد من أهمّ الحواضر الإسلاميّة، بل والعالميّة في العصر العباسي، وتبوّأت مكانة الصدارة في العلم والثقافة والنشاط التجاري والاجتماعي في العالم[3].

(1) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، «**مقدمة ابن خلدون**» تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر،الطبعة الثالثة،شهر محرم 1401 هـ، الجزء الثاني، ص 851 ـ 852 ـ 853.

(2) لمزيد من الاطلاع، ينظر: **معجم البلدان**، 1 / 460 ـ 461.

(3) الموسوي، مصطفى عباس: **العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربية الإسلامية**، وزارة الثقافة والإعلام / دار الرشيد، بغداد،الطبعة الأولى 1982 م، ص 139.

وزادت غنىً وثراءً في عهد الخليفة هرون الرشيد، وبلـغ العمران المدينـي فيهـا، أوج ازدهاره، وازدحمت شوارعها وأزقّتها بالناس، حتى قيل إنّهم بلغوا ما يزيد على مليون نسمة[1].

(1) م ن، ص 139.

بغداد في ألف ليلة وليلة

تُعدّ مدينة بغداد درّة مدن ألف ليلة وليلة، فهي أهم فضاء مكاني مركزي في هذه المدن، إذ يوليها الرّواة أهميّة خاصة، ويتوقف السرد في فضاءاتها وأزقّتها وقصورها طويلاً، ليعرّج على بنيات المكان والزمان، وتحديداً إبّان الخلافة العباسيّة (132هـ/750م ـ 232هـ/ 847م)، وحياة خلفائها، إذ تحتفي الحكايات بالخليفة هرون الرشيد، وزوجته زبيدة، وولديه الأمين والمأمون، وقاضيه أبي يوسف ووزيره جعفر البرمكي، وأخته دنيا البرمكيّة، وندمائه ومسامريه كأبي نواس، والخليع الدمشقي.

لقد كانت بغداد في التاريخ مركزاً للعالم الإسلامي، وقد احتضنت العلماء والمتكلّمين والفقهاء العرب والمسلمين من غير العرب، وانفتحت على حضارات العالم الآخر، وبخاصّة الحضارة الفارسيّة لتحتضن كثيراً من علمائها ومعارفها، وكانت «مدينة زاخرة بكلّ العلوم والفنون (...) وما لبثت أن ازدهرت واحتوت على كلّ أسباب الترف والنعيم. وبعد مدة قصيرة من بنائها، كانت عروس الأقطار الإسلاميّة والأوروبيّة، فلم تكن على وجه الأرض أزهر منها.»[1] ولأنّها كانت كلّ ذلك فقد شكّل فضاؤها ـ بعلاقاته وعاداته وثقافاته وأخبار نسائه ورجاله ـ حقلاً مرجعياً مهمّاً، استمدّت الحكايات منه كثيراً من أبنيتها الفكريّة والمعرفيّة، وحوادثها التاريخيّة. ففي بغداد ألف ليلة وليلة، بالإضافة إلى أخبار الخليفة هرون الرشيد وحاشيته، أخبار

(1) أمين، د. أحمد: **هرون الرشيد**، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال، العدد الثالث، 1370هـ / 1951م، ص 63 ـ 64.

العشق والغزل، والشخوص التي تسجّل ذكرياتها مع النساء والجواري، بجرأة معرفية في قضايا الجسد والجنس، يحسدها عليها أكبر الروائيين والقاصين المعاصرين، الذين عُرِفوا بجرأتهم في الحديث عن خبايا الجسد. ومن حكايات العشق والجنس التي جسّدتها الليالي: «**حكاية الحمّال والبنات**»[1]، وحكاية «**التاجر غانم بن أيوب وقوت القلوب جارية الخليفة هرون الرشيد**»،[2] وحكاية «**علي بن بكار وشمس النهار**»،[3] وحكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»،[4] وحكاية «**هرون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري**»،[5] حكاية «**هرون الرشيد مع جعفر والجارية والإمام أبي يوسف**»[6] وحكاية «**الجواري المختلفة الألوان**»[7]، وغيرها من الحكايات الأخرى التي تأخذ مساحات جدّ واسعة من فضاء السرد وامتداداته من بغداد وإليها، كحكاية «**علي الزيبق مع دليلة المحتالة**»[8]، وحكاية «**حسن الصائغ البصري**»[9].

ومن خلال تعاطف أحد الرّواة مع مدينة بغداد، ومحبّته لها، فإنّه ينسى المدينة التي تكون فضاءً لحكايته في بداية سردها، ثمّ ينتقل إلى بغداد. ففي حكاية «**الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان**»، نجد أنّ الرّاوي ينقل الملك عمر النعمان من دمشق إلى بغداد من دون مسوّغ يذكر، وانتقال هذا الملك لا يخدم معمار الحكاية وبناءها، ولا منطق الحكي، أو الوحدات السردية في تشكيلها للأحداث، بل هو انتقال إيديولوجي، يعبّر عن رغبة الرّاوي في أن تكون بغداد هي المدينة المركز والأهمّ من دمشق، وبالتالي يعبّر عن وعي الرّاوي المؤدلج ضد الدولة الأمويّة، وفي أن تصبح بغداد هي العاصمة المركزيّة بدلاً من دمشق الأمويّة التي لا يتعاطف معها

(1) **ألف ليلة وليلة** 1 / 46.
(2) م ن، 1 / 217.
(3) م ن، 2 / 183.
(4) م.ن، 2 / 347.
(5) م ن، 2 / 425.
(6) م ن، 2 / 445.
(7) م ن، 3 / 71.
(8) م ن، 4 / 111.
(9) م ن، 4 / 245.

هذا الرّاوي. فبغداد في ألف ليلة وليلة «موطن الخلفاء والسلطان والسياسة قد احتلت هذا المركز [الأهمّ] في الأذهان، وأصبحت كلّ مدينة لا تجد من نفسها قوة التأثير التي تتمتع بها بغداد».[1]

لقد كانت دمشق مقرّاً لإقامة الملك عمر النعمان وحاشيته، باعتباره ملكاً أمويّاً، وعندما يرتحل السرد بأولاد عمر النعمان صوب العالم، فإنّهم لا يعودون إلى دمشق، بل إلى بغداد، بعد أن يكون الرّاوي نقل أباهم إليها، وكأنّ دمشق الأمويّة، التي بدأ نجمها يأفل، أو التي يتمنّى الرّاوي أن يسرع في الأفول، لا تليق بملك عظيم الشأن استطاع أن يقهر «الأكاسرة والقياصرة»[2]، بل لا تليق به إلاّ بغداد العباسيّة العريقة. أو لا يليق بزمان انتصاره على الملوك إلاّ الزمن العباسي[3].

يقول الرّاوي[4]: «ثمّ إنّه أرسل [شركان بن عمر النعمان] جماعة من أصحابه إلى بغداد ليعلم والده عمر النعمان بقدومه.»، مع العلم أنّ حركة الوحدات السردية لم تنقل سابقاً عمر النعمان من دمشق إلى بغداد، ولا يشير نمو الأحداث وحبكتها إلى ضرورة هذا الانتقال لا من قريب ولا من بعيد. وبدلاً من أن يعود الوزير دندان إلى دمشق، حيث مقرّ الملك ضوء المكان ابن الملك عمر النعمان، فإنّ الرّاوي ينقله إلى بغداد: «ثم سار حتى أشرف على بغداد.».[5]وبعد أن كان هذا الرّاوي قد جعل عمر النعمان صاحب دمشق، فإنّه أسرع وجعله صاحب بغداد وخراسان[6].

(1) القلماوي، د. سهير: **ألف ليلة وليلة**، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1966 م، ص 263.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 292.

(3) الزمن الذي انتشر فيه العرب في الشرق والغرب فاتحين، الزمن الذي تحوّلت فيه لغة العرب إلى لغة عالمية في الدين والسياسة والعلم والحضارة، والذي وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية إلى قمّة أمجادها في السلم والحرب والفكر والفن، وقدّمت للعالم رؤياها الخاصّة في كل جوانب الحياة، وتوطّدت سلطتها ما بين قلب آسيا قي التيبت حتى أمواج المحيط الأطلسي، وورثت مهام الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية معًا.
نبيل، مصطفى :«بغداد العباسية ـ رحلة في المكان والزمان»، **مجلة العربي**، وزارة الإعلام، الكويت العدد 241، ديسمبر/ كانون الأول، 1978، ص 79 .

(4) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 270.

(5) م ن، 2 / 81.

(6) م ن، 1 / 293.

ويبدو أنّ «ممّا يزيد تشويق الحكاية ويضاعف مصداقيتها أن تقع أحداثها في مدينة كبيرة كبغداد، حتى وإن كان الرّاوي من خارج بغداد وعليه أن يأتي إليها. إنّ وقوع الأحداث في بغداد يجعلها أقرب إلى (...) وجدان المتلقي سواء كان ذلك الخليفة أو المتلقّي العام الذي لبغداد حضور خاص في مخياله».[1]

إنّ بغداد في ألف ليلة وليلة جنّة جميلة من جنان الدنيا، ببساتينها،وحدائقها الجميلة: «قال الرّيس هذه بغداد (...) وقد ولّى عنها الشتاء ببرده وأقبل عليها فصل الربيع بورده وازدهرت أشجارها وجرت أنهارها».[2] وبغداد لا تضاهيها مدينة في سائر البلدان، ففيها لذّة العيش ورفاهيته، وفيها الناس الطيّبون. يقول حسن البصري لمحبوبتـه منـار السنا: «وأسافر إلى بلدي وأكون أنا وأنت في مدينة بغداد،وأشتري لك الجواري والعبيد ولي والدة من أطيب الناس تكون في خدمتك وليس هناك بلاد أحسن من بلادنا. وكل ما فيها أحسن ممّا في غيرها من سائر البلاد، وأهلها ناس طيبون».[3] ومن يأت إلى بغداد فإنّه سيجد مسكناً طيّباً، ولن يفكّر بالرّجوع إلى بلاده، فاليمانيّ في حكايته مع جواريه الست، يرتحل من اليمن إلى بغداد، ويستقرّ فيها، حيث يطيب له مسكنها[4]. فهواء بغداد في الليالي معتدل، ونسيمها رائق ورائحته ذكيّة، وبساتينها عظيمة مليئة بالطيور الجميلة «من قماري وهزار وشحارير وبلبل وفاخت وكروان».[5] وهي مدينة النّعم والخيرات، ورجالها من أهل النعم والأموال الكثيرة[6].

إنّ فضاء بغداد في الليالي فضاء أليف محبب للنفس، وقادر على إزالة الهموم، وتبديد الأرق والقلق، فلقد كان الخليفة هرون الرشيد يبدد وحشته وقلقه، بالخروج

(1) باقادر، د. أبو بكر:»العالم نصّ، النصّ عالم: حكاية جراب الكردي نموذجًا»، **علامات في النقد** «كتاب دوري»، نادي جدّة الأدبي، جدّة، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، صفر 1418هـ / يونيه 1997م، ص 89.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 199.

(3) م.ن، 4 / 282.

(4) م ن، 3 / 71.

(5) م ن، 3 / 396.

(6) م ن، 4 / 435.

من فضاء قصره، إلى شوارع بغداد الأليفة، و«حُكي أنّ الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي (...) وقال: إنّ صدري ضيق ومرادي في هذه الليلة أن أتفرّج في شوارع بغداد وأنظر في مصالح العباد».[1]

لقد كانت بغداد في الليالي مدينة جميلة آسرة، تشرح الصدر، وكان الغريب القادم إليها يجد ملاذاً لغربته، وسكناً لروحه. يقول علي الزيبق المصري لنفسه عندما يفترسه وحش الغربة، ويضيق صدره: «قم شقّ بغداد ينشرح صدرك».[2] وسينشرح في ما بعد صدر علي الزيبق المصري، لأنّ بغداد ستعطيه كل شيء: المال والجاه والاقتراب من الخليفة هرون الرشيد، وأربع نساء من أجمل نساء بغداد: زينب النصّابة بنت دليلة المحتالة، وقمر بنت عزرا اليهودي، وبنت السقطي وجاريتها الجميلة[3]. وستهبه قصراً جميلاً، وقاعة بأربعة لواوين،[4] وأربعين مخدعاً لصبيانه الشطّار، كلّفت الدولة عشرة آلاف دينار[5].

إنّ صورة بغداد في ألف ليلة وليلة هي الصورة التاريخيّة التي تحدّثت عنها الأدبيّات التاريخيّة الكلاسيكيّة، وعندما نقرأ بغداد في الليالي، فإنّنا نقرؤها في هذه الأدبيات بملامحها وعلاقاتها وأخبارها نفسها. وإن كانت الليالي قد أعطتها عظمة سحرية تخيّليّة فاقت حدّ الواقع، فإنّ هذه العظمة تستقي كثيراً من ملامحها، من الواقع الحقيقي لمدينة بغداد، فهواء بغداد في المصادر التاريخيّة أفضل من كل هواء وماؤها أعذب من كل ماء، ونسيمها أرقّ من كلّ نسيم لأنّها في الإقليم الاعتداليّ بمنزلة المركز من الدائرة[6].

(1) م ن، 2 / 425.

(2) م ن، 4 / 174.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 177.

(4) اللِيْوان: الإيوان، وهو المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثة حيطان (فارسيه).
معلوف، لويس: **المنجد في اللغة**، منشورات اسماعيليان، طهران/دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية والعشرون، 1 كانون الثاني 1973م. مادة: لين. ص 743.

(5) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 177

(6) **معجم البلدان**، 1 / 461.
هذا وقد مدح بعض الشعراء طبيعة بغداد الجميلة، وصفاء الحياة.فيها فعلى سبيل المثال يقول الشاعر طاهر بن =

إنّ أهمية بغداد واتّساعها وانفتاحها على حضارات العالم، في تاريخ الخلافة العباسيّة، وتوظيفها في حكايات ألف ليلة وليلة بهذا البعد المعرفي المستفيد من هذه الحضارات،يجعل من الحكايات حقلاً مرجعياً ومعرفياً لمعالم هذه الحضارات. ولأنّ فضاء بغداد أهمّ فضاء مكاني بالنسبة لكثير من الرّواة، فإنّهم يأتون إلى هذا الفضاء ليشكّلوا الحكايات، ومعالم حضارات المدن الأخرى فيها، وليسردوها في قصور هذا الفضاء ومنازله. وكثيرة هي الحكايات التي يرتحل فيها السرد إلى مدينة بغداد، فأبو الحسن الخليع الدمشقي، يسرد ما شاهده من عشق نساء زمانه لرجال هذا الزّمان، أمام هرون الرشيد[1]. وعلي بن بكّار يرتحل من خراسان إلى بغداد ليقيم علاقة غراميّة مع جارية هرون الرشيد شمس النهار[2]. والأمراء الصعاليك الثلاثة يرتحلون إلى بغداد، ليسردوا قصص تشردهم أمام الخليفة الرشيد، وفي دار البنات الثلاث ببغداد[3].

وتمثل حكايات السندباد البحري أهمّ الارتحالات السردية، من المدن البعيدة إلى بغداد. ومن الملاحظ أنّ معظم الحكايات البغدادية، أو الحكايات المرتحلة إلى بغداد لا تسرد أحداثها الواقعية أو الأسطورية الشيّقة، إلا بحضور السلطة السياسيّة، التي يمثّلها الخليفة هرون الرشيد وولده المأمون. وعموماً يتزامن سرد الحكايات أمام الرشيد مع وجود الوزير جعفر البرمكي، ومسرور السيّاف، وأحياناً النديم أبي‌نواس، ومن هذه الحكايات: حكاية «**محمد علي بن علي الجوهري مع الخليفة**

= المظفّر بن طاهر الخازن مادحاً بغداد:

هي البلدة الحسناء، خُصّت لأهلها ... بأشياء لم يُجمعن مذ كنّ في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحّة، ... وماء له طعم ألذّ من الخمر
ودِجلَتها شطّان قد نُظما لنا ... بتاج إلى تاج، وقصر إلى قصر
ثراها كمسك، والمياه كفِضّة، ... وحصباؤها مثل اليواقيت والدرِّ.

عن / **معجم البلدان**،1 / 463.

(1) **ألف ليلة وليلة**، 2 / 163.

(2) م ن، 2 / 183.

(3) م ن، 1 / 55، 60، 72.

هرون الرشيد.»،[1] وحكاية «**هرون الرشيد مع الصياد**»[2]، وحكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»[3]، وحكاية «**بدور بنت محمد علي بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني**»[4].

إنّ بغداد كما تصوّرها الليالي مدينة مفتوحة أمام كل الناس، أكانوا عرباً أم عجماً أم من جنسيات أخرى. يسافر الناس منها وإليها، يأتيها بهرام المجوسيّ كما في حكاية «**حسن الصائغ البصري**»، ويأتيها علي بن بكّار، وعلاء الدين أبو الشامات، ويسافر منها السندباد، وتأتيها الجواري من اليمن، ومن أصقاع الأرض، وهي قبلة الناس من المدن الأخرى[5]. ففي بغداد العباسيّة امتزجت الأجناس البشريّة التي أتت إليها من الأمم المختلفة، وذلك «على أثر الفتوح الأمويّة، فكان منها العنصر البربري الوارد من بلاد المغرب، والعنصر الفارسي الوارد من بلاد فارس، والعنصر العربي الوافد من جزيرة العرب، واليمنيّون الآتون من اليمن، والنبطيون والروم الذين كانت تسوقهم الحرب بين المسلمين والبيزنطيين وغيرهم من العناصر والأجناس الأخرى».[6]

وبغداد من أهمّ المراكز التجارية المنتشرة في مدن ألف ليلة وليلة المترامية الأطراف، فهي قبلة للتجار من المدن الأخرى، نظراً لازدهار الحركة التجارية، وسهولة التعامل في البيع والشراء، فالناس في بغداد يعيشون وضعاً اقتصاديّاً متميّزاً ومزدهراً. وتجار بغداد يتضامنون مع أبناء تجار المدن الإسلاميّة المنكوبين، الذين يأتون بغداد، ويثقون بهم، ففي حكاية «**علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد**»، ينتقل علي

(1) م ن، 4 / 425.

(2) م ن، 1 / 88.

(3) م ن، 2 / 347.

(4) م ن، 3 / 58.

(5) مع ملاحظة أنّ بعض أبطال الليالي يستبدلون مدنهم الأصليّة بمدينة بغداد المركزيّة، ويستقرّون ويموتون فيها، فعلاء الدين أبو الشامات ـ وعلى الرغم من ثرائه في مصر، باعتبار والده شاه بندر التجار ـ يترك مصر، ويرتحل إلى بغداد ويموت فيها، وحسن الصائغ البصري يترك البصرة ليعيش في بغداد ويموت فيها،وعلي الزيبق المصري يغادر مصر ويرتحل إلى بغداد ليظلّ فيها إلى آخر حياته.

(6) أمين،د. أحمد: **هرون الرشيد**، ص 72.

المصري من مصر، بعد أن صرف كلّ أموال والده، وعندما يصل إلى بغداد يدّعي أمام تجارها، أنّ لصوصاً هجموا عليه، عندما سبق قافلته. يقول علي المصري[1]: «أنا رجل من مدينة مصر ومعي تجارة وبغال وأحمال وعبيد وغلمان فسبقتهم لكي أنظر لي محلاً أحطّ فيه تجارتي، فلمّا سبقتهم وأنا راكب على بغلتي قابلني جماعة من قطاع الطرق». وعندما يستمع بوابو بغداد إلى قصته، يسارعون إلى إكرامه قائلين: «مرحباً بك فبت عندنا إلى الصباح، ثم ننظر لك محلاً يليق بك».

ومن بغداد تذهب القوافل التجارية ميمّمة صوب مدن بعيدة من العالم لتشتري وتبيع، ويسمّيها الرّاوي بمدن اليهود[2]. وفي بغداد تربو أموال التجارة، وتتضاعف أرباحها، ولذا فهي محطّ أنظار التجار. يقول أحد أولاد التجار، في حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»: «ثم أخذت متجراً من الشام وسافرت إلى بغداد وبعته فربحت المثل مثلين، ولم أزل أتّجر حتى صار رأس مالي نحو عشرة آلاف دينار.»[3]. وهاهو علاء الدين أبو الشامات بالرّغم من ثراء والده الفاحش، يطلب من والدته أن تتوسط له عند أبيه ليسمح له بالسفر إلى بغداد، حيث الأرباح، والثراء: «فقالت له: إلى أيّ البلاد تسافر؟ فقال لها: إلى مدينة بغداد، فإنّ الإنسان يكسب فيها المثل مثلين.»[4]. ومن لا يذهب تاجراً إلى بغداد، فإنّه لا يصبح رجلاً، ولا خبيراً في كسب الدراهم، وليس فخر التجار إلا بالسفر لأجل أن يكسبوا الدّراهم[5]. ويقرّر ذلك علاء الدين أبوالشامات، ويصمم على السفر إلى بغداد: «لا بدّ لي من السفر إلى بغداد. بمتجر وإلا خلعت ثيابي ولبست ثياب الدراويش وطلعت سائحاً في البلاد».[6]

لقد كانت بغداد مركزاً حضارياً فاعلاً في تنشيط حركة التجارة وازدهارها في الدولة العباسيّة، إذا أصبحت في هذه الدولة: «المركز الرئيس للصناعة والتجارة

(1) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 213.
(2) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 355.
(3) م ن، 2 / 354.
(4) م ن، 2 / 355.
(5) م ن، 2 / 354.
(6) م ن، 2 / 355.

المحلّية والدوليّة. وأُنشِئت [في هذه الدولة] شبكة من الطرقات في البرّ والبحر رَبطت المدن المهمّة في بلاد الخلافة بالعالم الخارجي، ففي الشرق وصل التجار المسلمون إلى الصين، وفي الشمال اخترقوا بقوافلهم بلاد الروسيّة، وفي الغرب لم يتوقّفوا إلاّ على شواطئ المحيط الأطلسي. وأعظم ما جذب العرب إلى الصين كان الحرير، و«وطريق الحرير العظيمة» قادتهم خلال بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) وخلال التركستان».[1]

ولقد وعى سكان مدن ألف ليلة وليلة أهمّية بغداد التجاريّة، ودورة رأس المال السريعة فيها، فقرّروا أن يرتحلوا ببضائعهم إليها. ففي حكاية «**التاجر غانم بن أيوب وقوت القلوب**»، وعندما يموت أيوب والد غانم، يترك له أموالاً كثيرة، فيقرر غانم الارتحال بها إلى بغداد لتثمينها، إذ يأخذ «مائة حمل من القزّ والديباج ولوافح المسك (...) وسافر بها إلى بغداد ـ وكان ذلك في زمن هرون الرشيد ـ»[2]. وهنالك في بغداد يتلقّاه أبناء كاره بالإكرام والترحيب إذ تتضاعف أمواله. يقول الراوي[3]: «ونزل بها [غانم بن أيوب] إلى سوق التجار فلاقوه وسلّموا عليه وأكرموه وتلقّوه بالترحيب وأنزلوه على دكان شيخ السوق وباع التفاصيل فربح في كل دينار دينارين».

إنّ بغداد في الليالي حلم الطامعين بالثروة، ولذّة العيش[4]، ولذا فإنّ القوافل التجاريّة تسافر من مصر إليها[5]. وها هو علي الزيبق المصري يسافر مع هذه القوافل، بعد أن سمع عن ثراء الشطّار ـ رفاق مهنته ـ، وبعد أن أخبره سيّده «أحمد الدنف»، أنّ بغداد يمكن أن تعطي الطامحين إلى السلطة والثروة كلّ ما يريدونه، فلقد

(1) حتي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، تعريب د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار / مارس، 1983 م، ص 185.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 217.

(3) م ن، 1 / 217.

(4) وبغداد في التاريخ هي «الممدوحة في الورى، التي يحلم بها كل حاذق وكل قلب».
ينظر : ميكيل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر** ـ الأعمال والأيام، الجزء الرابع: تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ترجمة إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1995م.، ص 387.

(5) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 143.

أعطت أحمد الدنف، أحد الشطّار المصريين القادمين إلى بغداد وظيفة مقدّم بغداد في ديوان الخليفة هرون الرشيد، بعد أن أظهر براعته في النصب والاحتيال. يقول أحمد الدنف:[1] «وبعد فالسّلام من المقدّم أحمد الدنف إلى أكبر أولاده علي الزيبق المصري والذي نعلمك به أنّي (...) أصبحت مقدّم مدينة بغداد في ديوان الخليفة ومكتوب على درك البرّ، فإن كنت ترعى الذي بيني وبينك فأتِ عندي لعلك تلعب منصفاً في بغداد يقرّبك من خدمة الخليفة».

ولقد عرفت هذه المدينة بطراً وثراءً، لم تعرفه أيّة مدينة أخرى في العهد العباسي، ولا الأموي، إذ عايش الناس رفاهية ولذّة في حياتهم، بفضل الأموال الكثيرة المتدفّقة على الدولة من الضرائب الكثيرة، إذ «كان الملوك المستقلّون يرسلون الأموال الوافرة إلى الخليفة في بغداد اتّقاءً لسطوته، وابتغاءً لمرضاته. فكان الطولونيون، مثلاً، يدفعون في القرن التاسع [الميلادي] 300.000 دينار في السنة لخليفة بغداد الذي كانت ميزانيته تتكون حتى أواخر القرن التاسع من دنانير الغرب ودراهم الشرق»[2].

وأمام زيادة الثروة فيها، يبدو من الطبيعي أن يقصدها طالبو الأموال، والباحثون عن حلّ لمشاكل عوزهم وفقرهم. فها هو أحد البدو في حكاية «**عمر النعمان وولديه**»، يعجز عن الزواج بابنة عمّه، بعد أن اشترط عمّه «عليه من الصداق ما لا يُطاق»[3]، فيقرّر أمام عجزه عن دفع مهرها أن يذهب إلى بغداد الثريّة، ليجلب المال، ويتزوجها. يقول البدوي للأمير (كان ما كان)، عندما يسأله هذا الأخير عن وجهة سيره: «اقصد بغداد بلدك وأقيم بها حتى يرزقني الله بالصداق»[4].

وبغداد كريمة ـ في أوج ازدهارها المالي ـ لا تضنّ بخيراتها على أصحاب المهن المتدنيّة. ومن يقصدها منهم، لا بدّ أن يجد مأماً من ذلّ الحاجة والفقر. فهاهو

(1) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 134.

(2) الخازن، د. وليم: **الحضارة العباسية**، ص 87

وأخذ الخازن عن/ Lombard, Maurice:L´Islam dans sa première grandeur (X1e – X111e s.), P.16.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 2 / 94.

(4) م ن، 2 / 94.

أحد الجزّارين يصبح غنيّاً فيها، ففي حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، يقول المزيّن لملك الصين، عن أخيه الجزّار: «فإنّه كان جزّاراً ببغداد يبيع اللحم ويربّي الخرفان، وكان الكبار وأصحاب الأموال يقصدونه ويشترون منه اللحم،فاكتسب من ذلك مالاً عظيماً»[1].

وتشير الليالي إلى أنّ بغداد كانت تُكرم السقّائين الغرباء الوافدين إليها، ويبدو أنّ هذه المهنة كانت منتشرة في المدينة العربيّة الإسلاميّة في العهدين الأمويّ والعباسيّ، إذ اكتظّت المدينة الإسلاميّة بأناس محترفين يكتسبون من وراء إسقاء المارّة بالأسواق، وهؤلاء كانوا يسقون الناس بالكيزان والرّوايا والقِرَب والدلاء[2]. ونقرأ في حكاية «**علي الزيبق المصري مع دليلة المحتالة**»، أنّ سقّاء مصرياً قدم إلى بغداد، وهناك وجد عطفاً واحتراماً كبيرين،من شيخ السقّائين ببغداد. يقول السقّاء: «ثم سألت عن شيخ السقّائين ببغداد فدلّوني عليه، فدخلت وقرأت الفاتحة (...) فأخلى لي دكاناً وأعطاني قربة وعدة».[3] وعندما يتعرّف هذا السقّاء إلى مقدّم بغداد أحمد الدنف، يكرمه هو وأصحابه، ويغدقون عليه، حتى يصبح دخله ألف دينار: «وقال [أحمد الدنف] يا سقّاء من أين أنت؟ فقلت له من مصر، فقال حيّا الله مصر وأهلها. وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة، فحكيت له قصتي وأفهمته أنّي مديون وهربان من الدين والعيلة. فقال مرحباً بك فأعطاني خمسة دنانير، وقال لأتباعه اقصدوا وجه الله وأحسنوا إليه فأعطاني كلّ واحد ديناراً (...) فصرت أتردّد عليهم وصار يأتيني الخير من الناس، ثم بعد أيام أحصيت الذي اكتسبته منهم فوجدته ألف دينار»[4].

ويمكننا أن نتخيّل رقعة الدولة العربيّة الإسلاميّة في ألف ليلة وليلة، فضاءً مفتوحاً، يجد المرء نفسه داخل هذا الفضاء قادراً على التنقّل بسهولة، حيث لا

(1) م ن، 1 / 168.

(2) عاشور، د. سعيد عبد الفتاح: «الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية»، **مجلة عالم الفكر**، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، إبريل، مايو، يونيو، 1980 م، ص 117.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 141.

(4) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 141 – 142.

رقابة ولا حدود ولا جمارك، وحيث العرب والمسلمون متآلفون في سما بينهم، وقادرون على تبديد الشعور بالمأساة لدى الغرباء القادمين إلى مدنهم، فالعربيّ من مصر يجد نفسه بين أهله وأصدقائه إذا زار بغداد[1]، والعربيّ الواعظ من بغداد إذا جاء إلى حماة، يجد أنّه مشمول بالرّعاية والاحترام، إذ يكثر الوافدون إلى منزله من الفقهاء وذوي المعارف والآداب[2]، كما في حكاية «**سيدة المشايخ ببغداد وقدومها إلى حماة**». إلاّ أنّه ومن الملاحظ، وفي البنية العامة لحكايات ألف ليلة وليلة، أنّ الأشخاص المسافرين إلى مدن غيرهم،سواء أكانت عربية أم إسلاميّة، أم أجنبيّة، أم تخيّليّة، يرجعون إلى أوطانهم،مهما بعدت بهم المسافات والأزمنة ـ نستثني من ذلك بعض المسافرين إلى بغداد ـ وكأنّ تراب الوطن لا يعادله أي تراب آخر. ويجسّد الرّاوي رغبة الأفراد المسافرين، بالعودة إلى بلدانهم، على لسان أحد شخوص الحكايات، إذ يرى أنّ إقامة الغريب في بلاد الآخرين خواءٌ مدمّر للأحلام والمنى:

إقامات الغريب بكلّ أرض كبنيان القصور على الرياح
يهبُّ الرّيح تنهدم المباني لقد عزم الغريب على الرواح[3].

لقد كانت بغداد أكثر مدن ألف ليلة وليلة التي يرتحل السرد منها وإليها، باعتبارها «مدينة أمينة»[4]. ولأنّها «دار السلام»[5]، فإنّ الفرد يستطيع أن يعيش فيها بأمان وسلام، ويستطيع أن يحافظ على أمواله من شرّ الطامعين فيها، في المدن الأخرى، فحسن الصائغ البصري بعد أن يصبح غنيّاً في البصرة،تخاف عليه أمّه، وتقترح عليه الذهاب إلى بغداد: «قالت يا ولدي: نحن بهذا المال لا نقدر أن نعيش في هذه المدينة، وأنت تعرف أنّنا أناس فقراء (...) فقم بنا نسافر إلى مدينة بغداد دار

(1) كما يظهر في حكايتي: علاء الدين أبي الشامات، وعلي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد.
(2) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 196.
(3) م ن، 4 / 132.
(4) م ن، 1 / 199.
(5) م ن، 3 / 415 ؛ 4/ 368.

السلام»[1]. وقد سافر حسن الصائغ البصري إلى بغداد لأنّها أكثر ازدهاراً وثراءً من البصرة، ففي بغداد طبقة ثريّة جداً، لن تستغرب إلى أي مدى وصل إليه ثراؤه، لأنّ ثراءه سيبدو عادياً ومألوفاً في بغداد المتخمة بالثراء الفاحش.

وإذا كان الأشخاص الفقراء والأغنياء يقصدون بغداد طلباً لمزيد من الثراء وتثمين الأموال، والمحافظة عليها، فإنّ الملوك الجبابرة وذويهم يذهبون إلى بغداد طلباً للصلح والأمان. فهاهي العجوز شواهي ذات الدواهي، أم الملك حردوب (ملك الروم)، تذهب إلى بغداد، لأنّها «تريد الدخول على الملك ساسان لتطلب منه الصلح والأمان»[2].

وأهل بغداد، كما يراهم أحد رواة ألف ليلة وليلة، أهل وفاء وأمانة، ويؤدّون الأمانة إلى أهلها، وهم معروفون بهذه الأمانة في الأقاليم المجاورة، فهاهو أحد الرجال الخراسانيين (لا يذكر الرّاوي اسماً له)، يأتي من خراسان إلى بغداد ليضع أمواله أمانة عند أبي حسّان الزيادي. يقول الزيادي:[3] «دخل عليّ غلام فقال لي: إنّ بالباب رجلاً يطلب الدخول عليك. فقلت ائذن له، فدخل فإذا هو رجل خراساني، فسلّم عليّ فرددت عليه السلام. ثمّ قال لي: هل أنت أبو حسّان الزيادي؟ قلت: نعم وما حاجتك؟ قال: إنّي رجل غريب وأريد الحجّ ومعي جملة من المال وأنّه قد أثقلني حمله وأريد أن أدع عندك هذه العشرة الآلاف درهم إلى أن أقضي حجّي وأرجع».

وتصل أخبار بغداد وأخبار الحياة الآمنة فيها إلى الصين، كما يذكر الرّاوي في حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، فالرّجل الأعرج يرفض الجلوس بحضور المزيّن البغدادي ـ ابن مدينته ـ في إحدى الدور، لأنّ المزيّن البغدادي كان السبب في كسر رجله. وعندما يؤكّد الرّاوي الخيّاط لملك الصين أنّ الرّجل الأعرج رفض الجلوس مع المزيّن، لأنّه ما أحسّ نحوه بالأمان، تساءل ملك الصين مدهوشاً: «كيف يكون

(1) م ن، 4 / 290.
(2) م ن، 2 / 95 .
(3) م ن، 3 / 125.

هذا الشاب من بغداد ويتشوش خاطره من هذا المزيّن؟»[1]. وكأنّ على سكان بغداد، ألاّ يشعروا بالقلق والخوف، طالما أنجبتهم بغداد التي وصلت أخبارها إلى الصين، على أنّها مدينة آمنة وهادئة[2].

إنّ بغداد في الليالي فضاءٌ حالم بالنسبة للشخوص، فهي محطّة للمتعة والمسرّات،[3] والمآكل اللذيذة، والأخبار العجيبة التي تفوق الأساطير. إنّها ميناء اللّذات بامتياز، ولا يفوقها ميناء آخر في هذا المنحى، في مدن ألف ليلة وليلة جميعها. ولأنّها هذا الميناء اللذائذي، فقد كانت حلماً لأحد البدو، الذي قصدها خصوصاً من البادية، لأجل أن يأكل الزلابية التي لم يذقها طوال حياته، في مجتمعه البدوي: «فقال البدوي لا بدّ من دخولي بغداد وآكل فيها زلابية بعسل. وكان عمره ما رآها ولا دخل بغداد»[4].

وبغداد قبلة الجواري الجميلات اللواتي يُبعنَ في أسواق رقيقها، هاته الجواري اللواتي لا تستطيع الشخصيّات مقاومة جمالهنّ، وتكاد تقتل أنفسها، إذا ما خرجن من حقل امتلاكها. يقول أحد الشخوص بعد أن فقد جاريته الجميلة: «كدت أن أقتل روحي فتذكّرت الآخرة والنار فخرجت من بيتي هارباً إلى بعض الأصدقاء (...) وقال: اقبل رأيي واخرج في هذه الساعة من بغداد (...) إلى أن يشتغل قلبك عن حبّها وتسلو عنها.»[5]. وهاهو أحد سادة البصرة الأثرياء، ترك البصرة، ويمّم صوب بغداد،

(1) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 151.

(2) ومن الطبيعي أن يسمع ملك الصين ببغداد وأخبارها، ويعرف جزءاً من تركيبتها السياسية والاجتماعية،ولاسيما أنّه كان للعرب جالية كبيرة في مدينة كانتون في الصين. وقد نُظِّم فيها ديوان البحر، وكان يُخطب فيها للخليفة العباسي. وإمبراطور الصين يستقبل تجار المسلمين بالحفاوة والتكريم».
الخازن، د. وليم: **الحضارة العباسية**، ص 95 .

(3) وقد وصف أحدهم بغداد وصفاً لا يبتعد كثيراً عن خصائصها الجمالية في **ألف ليلة وليلة**، إذ قال: «بغداد جنّة الأرض ومدينة السلام وقبّة الإسلام ومجمع الرافدين وغرّة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيّبات ومعدن الظرائف واللطائف».
عن / **معجم البلدان**، 1 / 461 .

(4) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 131

(5) م ن، 4 / 437.

لأجل أن يسمع الغناء، ويشتري الجواري، ويزداد ثراءً بالاقتراب من خليفتها هرون الرشيد. يقول: «أنا رجل قد وسّع الله عليّ وإنّما وردتُ بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاقي من أمير المؤمنين.»[1]. مع ملاحظة أنّ هذا الرّجل السيّد هو «هاشمي من أهل البصرة، وكان ذلك الرّجل أديباً ظريفاً كريم النفس فاشتراها [جارية من بغداد] بألف وخمسمائة دينار»[2].

ويبدو أنّ فضاء البصرة بكلّ اتّساعه، وعلى الرّغم من أنّه أعطى الرّجل الهاشمي السيادة والمال، لم يكن كافياً لكبح جموح نزعة التوق والحنين إلى فضاء جماليّ آخر هو فضاء بغداد، بأصوات نسائه الجميلات، وأموال خليفته هرون الرشيد التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

لقد كانت بغداد العباسيّة قبلة المغنين والمغنّيات ومحبّي الموسيقى، وقد «انتشر الغناء في العصر العباسي انتشاراً كبيراً حتى أصبح يُعدّ من حاجات الناس الضرورية، فظهر المغنّون والمغنّيات في المحالّ العامة، وفي الشوارع، وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء والفقراء ولم يتحرّج بعض الخلفاء ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغنّي بها»[3]. ولقد احتفت حكايات ألف ليلة وليلة بهاته المغنّيات،احتفاءً واضحاً، وتحدّثت عن بعض آلاتهن الموسيقية، وإشاعتهنّ فضاء اللّذة والمتعة في القصور والدور التي يغنين فيها[4].

وبالإضافة إلى مركزيّة بغداد الاقتصاديّة والتجاريّة والترفيهيّة في الليالي، فإنّها ذات مركزيّة سياسيّة، وهي مركز للسلطة الدينية في آن، لأنّها عاصمة للدولة الإسلاميّة ومركزٌ للخلافة، إنّها «قصر الخلافة»[5]، ومدينتها، وهي بالتالي تهيمن

(1) م ن، 4 / 439.

(2) م ن، 4 / 436.

(3) سرور د. محمد جمال الدين: «الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي»، **مجلة العربي**، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت العدد 57، أغسطس / آب، 1963 م، ص 32.

(4) تحتفي بعض حكايات الليالي:حكاية هرون الرشيد ومحمد بن علي الجواهري،وحكاية علاء الدين أبي الشامات،وحكاية حمّال بغداد والبنات، وغيرها، احتفاء كبيرًا بالنساء المغنيات والعاشقات.

(5) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 330.

سياسيّاً وسلطويّاً على المدن الأخرى، سواء أكانت قريبة منها، أم بعيدة عنها. ولأنّها «حرم الخليفة»[1] العباسيّ، فإنّ لها منعتها، وحصانتها السياسيّة، والأوامر الصادرة من خليفتها إلى المراكز والأقاليم الأخرى، لها قوّتها التنفيذية، بحيث لا يستطيع أي والٍ، مهما كان عظيم الشأن، أن يرفض أوامر الخليفة. ولقد قامت حضارة بغداد العباسيّة على احتضان الأمصار المجاورة لها[2]، والهيمنة عليها، والتفاعل مع هذه الأمصار ثقافيّاً وحضاريّاً، وعلاقات إنسانيّة واقتصاديّة. فقرارات الخليفة هرون الرشيد في الليالي صارمة، ولا يستطيع الولاة إلاّ أن يخرّوا لها ساجدين، فها هو المتولّي على البصرة محمد الزبيدي، عندما يتلقّى خطاباً من هرون الرشيد، يسرع إلى إكرام حامله: «ودخل [الرّسول] على الأمير محمد الزبيدي، ففرح به وأكرمه غاية الإكرام، ثمّ قرأ عليه بطاقة أمير المؤمنين هارون الرشيد فقال سمعاً وطاعة»[3]. وهاهو الخليفة الرشيد يوجّه خطاباً إلى واليه بالبصرة، السلطان محمد بن سليمان الزيني، فما كان من الوالي السلطان إلاّ أن قبّل الخطاب هيبةً من الرشيد وتعظيماً لرسوله: «ثم أخرج [علي نورالدين] الورقة وأعطاه إيّاها، فلمّا رأى [السلطان محمد بن سليمان الزيني] عنوان الكتاب بخطّ أمير المؤمنين قام واقفاً على قدميه وقبّلها ثلاث مرات، وقال السمع والطاعة لله تعالى ولأمير المؤمنين»[4].

لقد كانت سلطة بغداد العباسيّة ـ تاريخيّاً ـ مستمدّة من الله، باعتبار أنّ حكّامها هم خلفاء الله وأئمته في أرضه، وقد سنّ داود بن علي[5] سياسة هذه السلطة،منذ أن

(1) م ن، 4 / 290.

(2) جعيط، د. هشام: **الكوفة – نشأة المدينة العربية الإسلامية**، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت،الطبعة الأولى 1986 م، ص 447.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 8.

(4) م ن، 1 / 212.

(5) داود بن علي: (داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، 81 – 133 هـ / 700 – 750 م): أمير من بني هاشم، وهو عمّ السفّاح العباسي. كان خطيبًا فصيحًا، من كبار القائمين بالثورة على بني أميّة.ولمّا ظهر العباسيّون ولاّه السفّاح إمارة الكوفة، ثم عزله عنها وولاّه إمارة المدينة ومكّة واليمن واليمامة والطائف، فانصرف إلى الحجاز، وأقام في المدينة، فعاجلته منيّته.
الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، 2/ 333

بويع لأبي العبّاس عبد الله بن محمد السفّاح سنة 132 هـ/750 م، إذ صعد داود منبر الكوفة، وقـال: «يا أهل الكوفة، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلّى عليه وسلم إلاّ علي بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم ـ يعني أبا العبّاس السفّاح ـ.»[1].

وهاهو الخليفة أبو جعفر المنصور، الذي استلم مقاليد السلطة سنة 136 هـ/754م، يرسّخ قدسية السلطة العباسيّة، مؤكّدا أنّه ظلّ الله على أرضه، وسلطانه على عباده. يقول في خطبة له: «أيّها النّاس إنّما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه فارغبوا إلى الله وسلوه أن يوفّقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم»[2].

ومن داخل البنية المعرفيّة لرواة ألف ليلة وليلة، التي تعي سطوة هذه السلطة في التاريخ، نجد أنّ راوي إحدى حكايات الليالي، يجعل من هذه السلطة ظاهرة شمولية، لا لتكون سلطة شمولية على الأرض بسكانها، بل لتكون سلطة على عالم الجن والعفاريت أيضاً. فها هو الخليفة هرون الرشيد في حكاية «**الحمّال والبنات**»، يجلب الجنيّة التي سحرت الأختين الكبيرتين من خلف جبل قاف، وحينما تشاهده هذه الجنيّة تدين له بالطّاعة، باعتباره خليفة الله: «وإذا بالجنيّة قد حضرت وكانت مسلمة، فقالت: السّلام عليك يا خليفة الله، فقال وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته.»[3]. وعند ذلك أمرها الخليفة الرشيد بتخليص الأختين الكبيرتين من حال المسوخيّة «الحالة الكلبيّة» إلى حال «الصورة البشريّة»[4].

إنّ من يخرق بعض محرّمات سلطة بغداد المركزيّة ـ حتى ولو كان هذا الخرق ناتجاً من عدم معرفة بهوية هذه السلطة ـ أو من يقترب من حظاياها اللواتي تقذفهنّ المقادير إليه بالمصادفة، لا بدّ من أن ينال عقاباً قاسياً، يُشَهّر به بين أفراد

(1) المسعودي، علي بن الحسين بن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، 1411 هـ / 1991 م الجزء الثالث،ص 262.

(2) عن / نبيل، مصطفى: «**بغداد العباسيّة – رحلة في المكان والزمان**»، ص 90.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 87.

(4) م ن، 1 / 88.

مدينته. فالتّاجر غانم بن أيوب يعشق قوت القلوب، حَظِيّة الخليفة هرون الرشيد، من دون أن يعلم أنّ الماثلة أمامه، تعود ملكيتها إلى قصر الخلافة، عندها يستنفر هرون الرشيد أحقاده على غانم بن أيوب، من دون أن يعرف الأسباب الجوهريّة التي جعلت الحظيّة قوت القلوب تعشق هذا الرّجل الكريم الذي أنقذها من الموت. يقول الرّاوي[1]: «فقال له الخليفة بغيظ: أنزل يا جعفر [البرمكي] واسأل عن بيت غانم بن أيوب واهجموا على داره وائتوني بجاريتي قوت القلوب، ولا بدّ أن أعذّبه.» وبناء على أوامر الخليفة يهجم الوزير والوالي والظّلمة[2] ـ كما تسمّيهم شهرزاد ـ ويحيطون بدار غانم بن أيوب، وينهبون كلّ ما فيها، ويحملون قوت القلوب، وكلّ ما تحتويه دار غانم بن أيوب من مجوهرات وأموال[3].

ومن غضب عليه أحد خلفاء بغداد العباسيّة في الليالي، فإنّ مصيره النفي والاغتراب الأبدي، إلى أن يأتي هازم اللّذات، ويأخذ هذا الخليفة. فالخليفة المنتصر بالله[4] في حكاية «**مزيّن بغداد**» الدّاخلة في حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، يستمع إلى المزيّن، وهو يحكي له قصص أخوته الستة، وعندما لا تعجبه هذه الحكايات يقرر أن ينفي المزيّن نفياً أبدياً خارج بغداد. يقول المزيّن[5]: «فلمّا سمع أمير المؤمنين قصتي (...) قال: اخرج من هذه المدينة، واسكن غيرها، ثم نفاني من بغداد، فلم أزل سائراً في البلاد حتى طفت الأقاليم إلى أن سمعت بموته وخلافة غيره، فرجعت إلى المدينة». ويبدو مستحيلاً أن يفكّر هذا المزيّن بالعودة إلى بغداد ثانية، ولا سيما إذا عرفنا أنّ هذا الخليفة، كما تصوّره المصادر التاريخيّة، كان ذا سطوة مطلقة، و«فاتكاً

(1) م ن، 1 / 234.

(2) م ن، 1 / 234.

(3) م ن، 1 / 235.

(4) المنتصر بالله : (محمد بن جعفر) المتوكّل على الله (بن المعتصم، 223 – 248 – هـ / 838 – 862 م): من خلفاء الدولة العباسيّة وُلد في سامرّاء، وبويع بالخلافة بعد أن قتل أباه (سنة 247 هـ) وفي أيامه قويت سلطة الغلمان فحرّضوه على خلع أخويه المعتزّ والمؤيّد (وكانا وليي عهده) فخلعهما. قيل: مات مسمومًا بمبضع طبيب. ووفاته بسامرّاء. ومدة خلافته ستة أشهر وأيام.
الزركلي،خير الدين: **الأعلام**، 6/ 70 .

(5) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 180.

سفّاكاً للدم». ومن شدّة بطشه فقد قتل أباه جعفر المتوكّل[1].

ومن ترضى عنه بغداد السياسيّة والمركز في الليالي، فإنّها تعطيه كلّ شيء، وتتوّجه أميراً مكللاً بالإمارة والقصور والبساتين، وتنتقم له من أعدائه شرّ انتقام. فالخليفة هرون الرشيد في حكاية «**علي نور الدين وأنيس الجليس**»، يُعجب بكرم علي نور الدين وشهامته، فيشرح له هذا الأخير ظلم وزير البصرة ـ المعين بن ساوي ـ وسلطانها محمد بن سليمان الزيني، ومطاردتهما له، عندها يقرر الرشيد أن يقتل الوزير المعين بن ساوي، انتقاماً لعلي نور الدين بن خاقان، ويسلّمه ولاية البصرة. لكنّ علي نور الدين لا يستطيع أن يفارق بغداد الجميلة، فيرفض حكم البصرة، على أن يبقيه الخليفة بجواره ببغداد: «فعند ذلك قال الخليفة لعلي بن خاقان تمنّ عليّ، فقال له يا سيدي أنا مالي حاجة بملك البصرة وما أريد إلاّ مشاهدة وجه حضرتك، فقال الخليفة حبّاً وكرامة»[2]. وبطبيعة الحال ستكافئ سلطة بغداد علي نور الدين بن خاقان، بكلّ ما يحلم به، طالما هو لا يريد إلاّ الولاء المطلق لرأس هذه السلطة، ستعطيه المرأة الجميلة التي يحبّها، والأموال والقصور:

«ثمّ إنّ الخليفة دعا الجارية فحضرت بين يديه فأنعم عليهما وأعطاهما قصراً من قصور بغداد ورتّب لهما مرتّبات، وجعله من ندمائه. وما زال مقيماً عنده إلى أن أدركه الممات»[3].

إنّ هذا الإعجاب ببغداد في الليالي، ورفض أعلى المناصب لأجل البقاء فيها، والولاء لسلطتها، يذكّرنا تاريخيّاً برفض محمد بن رائق[4] لولاية الشام، إذ «لمّا انتدب

(1) ابن طباطبا: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص 239.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 216.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 216.

(4) محمد بن رائق: (... - 330 هـ / ...- 942 م): أمير من الدهاة الشجعان، له شعر وأدب. كان أبوه من مماليك الخليفة العباسيّ محمد المعتضد بالله، وولّي محمد شرطة بغداد للخليفة العباسي المقتدر بالله بن المعتضد سنة317 هـ، ثمّ إمارة واسط والبصرة وولاّه الخليفة الراضي بالله بن المقتدر إمرة الأمراء والخراج ببغداد سنة 324 هـ.

الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، 6 / 123.

(...) لولاية الشام لم يذهب إليها، واستخلف ابنه الحسن، وقال: ركوبي في الطيّار في دجلة وصياح الملاّحين، أحبّ إليّ من ملك الشام كله»[1].

ولا تبدو صورة الرشيد في ليالي بغداد المركزيّة، وهو يهب قصوراً ومرتّبات للذين يُظهرون له ولاء الطاعة، بعيدة في الوهم والتخيّل اللذين كانا المعينين لرواة ألف ليلة وليلة، بل يمكن أن يكون لها خلفيّة مرجعيّة، تاريخيّة وواقعيّة، إذ تروي المصادر أنّ الرشيد وهب لطبيبه جبرئيل بن بختيشوع[2] المال الكثير الذي يكفي لشراء ضياع غلّتها الآلاف من الدراهم، عندما عالجه من مرض شديد ألمّ به:

«فلمّا بَرَأ من علّته، [أي هرون الرشيد]، دعا صاحب حرسه، وحاجبه، وصاحب شرطته، فسأل صاحب الحرس عن غلّته في كلّ سنة، فعرّفه أنّها ألف ألف درهم، وسأل صاحب شرطته عن غلّته، فعرّفه أنّها خمسمائة ألف درهم. ثم قال: يا جبريل: كم غلتك؟

فقلت: خمسون ألف درهم.

فقال: ما أنصفناك، حيث غلاّت هؤلاء وهم يحرسوني ويحجبوني عن الناس، على ما هي عليه، وتكون غلّتك ما ذكرت. وأمر بإقطاعي ما قيمته ألف ألف درهم.

فقلت: يا سيّدي ما لي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تَهَبُ لي ما أشتري به ضِياعاً غلّتها ألف ألف درهم، ففعل، وتقدّم بمعاونتي

(1) عن / الخازن، د. وليم: **الحضارة العباسية**، ص 89.

(2) جبرئيل بن يختيشوع: (جبرئيل بن يختيشوع بن جرجس، ... - 213هـ / ... 828 م): طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله يقال إنّ منزلته مازالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه من كانت له حاجة إلي فليخاطب بها جبرئيل فإني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني. فكان القوّاد يقصدونه في كل أمورهم. ولما توفي الرشيد خدم الأمين، فلما ولّي المأمون سجنه ثم أطلقه وأعاده إلى مكانته عند أبيه الرشيد، فلم يزل إلى أن توفي ودفن في دير«مارجرجس» بالمدائن.
الزركلي،خير الدين:**الأعلام**، 2 /111.

على ابتياعها، فابتعت بهباته، وجَعَالاته[1]، ضياعاً غلّتها ألف ألف درهم».[2]

إنّ بغداد المركزيّة في الليالي ذات سلطة وهيبة ذائعة الصيت، تصل إلى مدن تخيّليّة، لا يعرف الرّاوي اسماً لها، وتحدد هذه الهيبة بمدة خلافة هرون الرشيد (170 ـ 193 هـ/786 ـ 809 م)، وما عُرِف عنه من سطوة وبطش وأُبّهة، ومكانة بين الخلفاء، لا تعادلها مكانة أي خليفة آخر. ففي حكاية «**السندباد البحري**»، وتحديداً في سفرته السادسة، نجد أنّ ملك المدينة التي يصلها السندباد، يرسل «**هديّة عظيمة إلى الخليفة هرون الرشيد بمدينة بغداد**»[3]. وعندما يسأله الرشيد عن هذه المدينة يجيب السندباد: «يا أمير المؤمنين والله لا أعرف للمدينة التي هي منها اسماً ولا طريقاً»[4]. وكأنّ الرّاوي يريد أن يشير إلى أنّ ملك هذه المدينة البعيدة جداً، قد سمع عن سطوة بغداد العباسيّة وعظمتها، وإزاء هذه السطوة رغب هذا الملك في كسب ودّ الرشيد ورضاه، فأرسل له هديّة عظيمة.

وبالإضافة إلى مركزيّة بغداد العباسيّة في الليالي، فإنّها شهدت حركة علميّة نشيطة، في العلم والفنون والآداب، والفقه والشريعة والطب. ويشير بعض رواة ألف ليلة وليلة إلى كثير من مكوّنات ثقافة بغداد، وفضاءاتها المعرفيّة. ففي حكاية «**الحمّال والبنات**»، التي تدور أحداثها في عصر هرون الرشيد، تطلب البنت الصغرى من ابن ملك المدينة الممسوخة حجارة سوداء، أن يذهب معها إلى بغداد، باعتبار بغداد موطناً للعلماء: «قلت له أيّها الشّابّ هل لك أن تروح معي إلى مدينة بغداد، وتنظر إلى العلماء وإلى الفقهاء فتزداد علماً وفقهاً»[5].

وتبدي شخصيّات حكايات بغداد معرفة متطوّرة بعلوم الفلك،حتى ولو

(1) جَعَالاته: أي ما خصصه له من عطاء. **المنجد في اللغة**، مادة: جعل، ص 93.

(2) التنوخيّ، أبو علي المُحَسّن بن علي: **الفرج بعد الشدة**، اختار النصوص وقدّم لها د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة دمشق، الطبعة الأولى 1995، السفر الثاني، ص 264 – 265 .

(3) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 13.

(4) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 13.

(5) م ن، 1 / 80.

كانت هذه الشخصيّات من الطبقات الاجتماعيّة المهمّشة. فها هو مزيّن بغداد يأخذ اصطرلاباً[1]، مكوّناً من سبع صفائح ويوجّهه إلى أشعة الشمس، ليؤكّد أنّ طالع يوم الجمعة، وفق ما تقتضيه العمليات الحسابيّة هو كوكب المريخ، وبميل[2] قدره ثماني درجات وست دقائق[3].

وتشير حكاية «**تودّد الجارية**»، إلى أنّ بغداد في الليالي تربّعت قمم المعرفة في مختلف أنواع المعارف والعلوم، بشخص إحدى بناتها من الجواري، وهي «تودد»، فعندما تحضر «تودد» الجارية بين يدي الخليفة الرشيد، تؤكّد له أنّها قادرة على بزّ كلّ علماء بغداد، فيحضر لها العلماء، وتبدأ هي بمناظرتهم في جميع علوم عصرها، وتتفوّق عليهم في معرفة هذه العلوم. ويُظهر السارد في الحكاية معارف عصره العلميّة التي تمتدّ إلى جميع الحقول المعرفيّة التي عرفتها حضارة بغداد العباسيّة، والحضارات قبلها، أو التي تزامنت معها: في الفقه والتفسير[4]، ودلالات اللغة[5]، والعلوم الدينية، وقراءات القرآن السبع، وإعراب آياته[6]، وعلوم الفلسفة[7]، والمنطق والأخلاق والحكمة والعلوم المجرّدة، كالرّياضيات والهندسة والفلك[8]، والتنجيم والكواكب والأبراج[9]. وقد شهدت مصادر التاريخ على معرفة في علم الفلك في العصر العباسي، فقد «كان الفلكيّون المسلمون قادرين على إيجاد مواقع الكواكب في مداراتها الخاصّة بسهولة نسبيّة، فقد استطاعوا الانتقال إلى تحليل وتطوير

(1) الأسطرلاب: آلة رصد قديمة لقياس مواقع الكواكب وساعات الليل والنهار وحلّ شتى القضايا الفلكية. **المنجد في اللغة**، مادة: اسط، ص10 .

(2) المَيْل: الزاوية الحادثة بين سطح الاستواء السماوي والمستقيم الواصل بين الأرض والكواكب. المنجد في اللغة، مادة: ميل، ص 782.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 1 /153.

(4) م ن، 3 / 233.

(5) م ن، 3 / 240.

(6) م ن، 3 / 245.

(7) م ن، 3 / 264.

(8) م ن، 3 / 258.

(9) م ن، 3 / 257 – 258 – 259.

النظريات المتعلّقة بالكواكب السيّارة التي وصلت إليهم من العصور القديمة.»[1].

وفي الحكاية السابقة تُظهر الجارية «تودد » معرفة كبيرة بعلوم الصحّة النفسيّة والجنسيّة[2]، فهي على سبيل المثال، من خلال معرفتها بعلم الجنس، تبدو كأنّها طبيب نفسي وجنسي، يدرك بمعرفة علميّة متطوّرة أثر الجنس في السلوك الفرديّ والجمعيّ وفوائده ومضارّه، وأفضل الأوقات لممارسته[3]. وهي من خلال هذه المعرفة، التي تظهرها المناظرة مع علماء الجنس في بغداد، تنقل معارف شخوص عصرها حول هذه الظاهرة، وبعض معارف الأئمّة وآرائهم فيها[4]. وتتغلّب بمهارة على «النّظّام»[5]، شيخ الرؤية العقليّة[6]، باعتباره ممثّلاً لفئة المعتزلة التي رفعت شعار العقل أولاً، وتتغلّب على أمهر لاعبي الشطرنج والنرد في بغداد العباسيّة[7]. ومن هنا فإنّ الأبعاد المعرفيّة التي يحمّلها السارد لهذه الجارية هي الكلُّ الحضاريّ والمعرفيّ للحضارة الإنسانيّة بعامّة، وللحضارة العربيّة بخاصّة، والتي أخذت من الحضارة الإنسانيّة، وأعطتها في آن، وذلك في مرحلة ازدهار الخلافة العباسيّة. ومعرفة «تودد» الجارية هي خلاصة «تجارب الشعوب المختلفة والأزمان المتعاقبة،مطعّمة بآمال النفس الإنسانيّة وآلامها»[8].

(1) فيرنيه،جون ؛ Vernet, Jaun: «الرياضيات والفلك والبصريات» في كتاب:«تراث الإسلام»، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس، ود. إحسان صدقي العمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد الثاني عشر، الطبعة الثانية، رمضان 1408 هـ/ مايو 1988م الجزء الثاني،ص 322.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 255.

(3) م ن، 3 / 256.

(4) م ن، 3 / 255.

(5) م ن، 3 / 268.

(6) النّظّام: (إبراهيم بن سيّار،... ـ 231 هـ / ... ـ 845 م): متكلّم معتزلي. نشأ في البصرة وأقام في بغداد حيث توفي. منطقي وشاعر. ترك أثراً كبيراً في تاريخ الفكر الإسلامي. معلّم الجاحظ. عارض آراء الفقهاء. وإليه تنسب النّظّامية من فرق المعتزلة.
المنجد في الأعلام، ص 710.

(7) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 269.

(8) الملاّح، عبد الغني: **رحلة في ألف ليلة وليلة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1981م، ص44.

إنّ هذه التجربة المعرفيّة والشموليّة لكلّ ما هو معروف، ومتداول، في الحضارة العباسيّة، من قيم وعادات ومعارف علميّة ونظريّة وأدبيّة، ناتج من تبادل التّأثير والتأثّر بين حضارات البلدان وثقافاتها التي ذكرتها شهرزاد، فهي فارسيّة وهنديّة مرّة، وصينيّة مرّة أخرى، وأوروبيّة أيضاً، إضافة إلى الأفق المعرفي العلمي الذي عرفته الحضارة العربيّة في العصور الجاهليّة والإسلاميّة (عصر النبيّ والخلفاء الراشدين)، والأمويّة والعباسيّة، وقد بلغ هذا الأفق أوج ازدهاره في عصر الخليفة العباسيّ المأمون بن هرون الرشيد. ويحدد جرونيباوم[1] معارف الحضارات التي أسهمت في تشكيل حكايات ألف ليلة وليلة قائلاً:

«اجتمعت عناصر هنديّة وفارسيّة ويهوديّة ويونانيّة وبابليّة ومصريّة فضلاً عن عناصر عربيّة أصيلة فأصبحت كلاً واحداً على أيدي أساتذة مجهولين يرجع إليهم الفضل في تلك الجزالة الهائلة التي ينطوي عليها مجموع (ألف ليلة وليلة)، وراحت اللغة العربيّة من حيث الظاهر والروح الإسلاميّ من حيث الداخل، توحّد هذه الخطوط المتعددة، وتتولّى حبكها في بساط فاتن، يخطف الأبصار. وإنّ ألف ليلة في تأليفها بين كلّ ما هو مختلف وكلّ ما هو متفاوت، لأشبه الأشياء بمثال مصغّر للحضارة الإسلاميّة بوجه الإجمال»، ويبقى الوعي المعرفيّ والعلميّ الحضاريّ في ألف ليلة وليلة» نتيجة للفكر الإنسانيّ من خلال عدّة قرون اندمجت مع بعضها بأزمان مختلفة»[2].

وتشير ألف ليلة وليلة إلى أنّ من بين المعارف العلميّة التي شهدتها بغداد العباسيّة، وتفوّقت على غيرها من أقاليم الدولة العباسيّة ومدنها، معرفة طبّ العيون، ففي حكايـة «**هرون الرشيد مع الرجل الذي يطلب دواءً لعينه**»، وبينما كان الرشيد خارجاً صوب الصحراء، شاهد شيخاً طاعناً مسافراً على حماره، فطلب الرشيد من جعفر البرمكي أن يسأله عن حاله: «فقال له جعفر: من أين جئت؟ فقال: من البصرة.

(1) عن/ خورشيد، فاروق: «الليالي والحضارة الإسلامية ـ مناقشة ورؤية»، **مجلة فصول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع 1994م،ص16. ولم يذكر خورشيد اسم المرجع الذي اقتبس منه.

(2) الملاّح، عبد الغني: **رحلة في ألف ليلة وليلة**، ص 48.

فقال جعفر: وإلى أين سيرك؟ فقال: إلى بغداد.

قال: ماذا تصنع فيها؟ قال: ألتمس دواءً لعيني»[1].

وتشير الدراسات التاريخيّة إلى ازدهار طبّ العيون في بغداد، وعلى أيدي العرب، نظراً لنشوء أمراضه في بلادهم الحارّة،ففي عهد الخليفة هرون الرشيد وضع يوحنّا بن ماسويه (ت 242 هـ/827م)، أو يوحنّا الدّمشقي بتسميّات أخرى، أو Maior - Mesue، عند الإفرنجة، وهو من السريان النساطرة، أول كتاب عربيّ منظّم في علم رمد العين، وسمّاه بـ «دغل العين»، وهذا الكتاب من أفضل ما وُضِع في طبّ العيون، ويقول ماكس مايرهوف عن هذا الكتاب[2]: «إنّه أقدم الكتب التي وُضِعت في طبّ العيون في مختلف اللغات القديمة». وقد عيّن الخليفة الرشيد مؤلف هذا الكتاب (يوحنا بن ماسويه) رئيساً لدار الحكمة، بعد أن كان مدرّساً للطبّ في مدرسة جنديسابور، ومعالجاً للمرضى في بيمارستانها (مشفاها)[3]. وبلغ طبّ العيون في بغداد كماله بكتاب حقّقه حنين بن إسحاق (ت 263 هـ/877م)، بعنوان: «العشر مقالات في العين» لمؤلّفه جالينوس الحكيم، وقد زوّده مؤلّفه برسوم شائقة للغاية، وهي أول رسوم عُرفت في تشريح العين، ثم هي أدقّ من كثير من مثيلاتها في الكتب الأوروبيّة في القرون الوسطى[4].

إنّ ساردي حكايات ألف ليلة وليلة، يقدّمون بغداد الليالي، على أنّها انعكاس لبغداد التاريخ في كثير من خلفيّاتها ومكوّناتها المعرفيّة والاجتماعيّة. وطالما أنّ راوي الحكاية السابقة عايش حضارة بغداد، أو قرأ كثيراً عن ماضيها العلميّ، فطبيعي أن يوجّه بطله من البصرة «الإقليم» إلى بغداد «المركز»، ليعالج عينيه، في ظلّ فيء هذه الحضارة المزدهرة.

(1) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 160 ـ 161.

(2) الطويل، د. توفيق: **في تراثنا العربي الإسلامي**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد السابع والثمانون، جمادى الآخرة، 1405 هـ / مارس (آذار) 1985 م، ص 103.

(3) نادر، د. البير نصري: في «**الفارابي، أبو نصر: كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين**»، ص 49 – 50 .

(4) الطويل، د. توفيق: **في تراثنا العربي الإسلامي**، ص 103.

إنّ بغداد في ألف ليلة وليلة تمثّل مركزاً دينيّاً وفقهيّاً، يتخرّج فيه الفقهاء والواعظون ـ وقد أتقنوا ما تعلّموه خير إتقان ـ باعتبارها تاريخيّاً تمثل مركزاً عظيماً للثقافة وموئلاً للمذهبين الحنفيّ والحنبليّ[1]. وها هو أحد الرّواة يصف الواعظة، سيّدة المشايخ، ببغداد قائلاً: «ما رأيت في النساء أذكى وأحسن فطنة وأغور علماً وأجود قريحة وأظرف أخلاقاً، من امرأة واعظة من أهل بغداد، يقال لها سيّدة المشايخ»[2].على أنّ سيّدة المشايخ في بغداد، ليست هي الوحيدة في علمها ووعظها وفطنتها، بل هي ـ تاريخيّاً ـ نموذج أنثويٌ متعدد، في فضاء الحياة العلميّة ببغداد، وهذا النموذج استطاع أن يُحصّل كثيراً من معارف عصره المختلفة، مثله مثل الرجال، وربما يفوقهم،فعلى سبيل المثال يتجلّى هذا النموذج في سيّدة من بغداد، تسمّى خديجة بنت موسى الواعظة، وكانت هذه صالحة فاضلة، كتب عنها الخطيب البغداديّ «مؤلف تاريخ بغداد»، وفي فاطمة بنت الحسين بن فضلويه، التي كانت واعظة، تجتمع إليها الزّاهدات، في رباط خصّصته للوعظ، وفي الشيخة فاطمة بنت الشيخ إبراهيم، التي كانت ذات سلطة وإقدام، وترجمة وكلام، في طريقة الحريريّة[3].

ولم تكن بغداد في الليالي هي الصّورة المشرقة دائماً في فضاء النصوص الحكائيّة، لأنّها في أحيان كثيرة تنزاح عن هذه الصورة الجماليّة والمعرفيّة، لتصبح فضاءً للفقر، وليفتقد البسطاء والمهمّشون فيها أدنى مستويات العيش الكريم. فعلى سبيل المثال بقدر ما كانت بغداد فضاءً للمتعة، ولذّة العيش، بالنسبة للسندباد البحريّ، فإنّها بالنسبة للسندباد الحمّال، كانت فضاءً للبؤس والفاجع والاغتراب، فضاءً لا يستطيع فيه السندباد الحمّال أن يحصل حتى على أبسط متطلبات حياته، وهي لقمة العيش، مع ملاحظة أنّ هذا السندباد الحمّال، كان في خلافة هرون الرشيد، حيث أبّهة العيش، والثراء الفاحش، الذي لم يصل إلى مثله ثراء، وذلك من خلال صيرورة

(1) الدوري، د. عبد العزيز: «بغداد»، في: «بغداد»، **دائرة المعارف الإسلامية**، ص 12.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 196.

(3) العلوي، هادي: **فصول عن المرأة**، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى 1996م، ص 68.
وأخذ العلوي عن/ ابن كثير، عبد الله: البداية والنهاية. دون أن يذكر دار النشر والمدينة وتاريخ الطبعة ورقم الصفحة .

الدولة الإسلاميّة وتعاقبها. تقول الحكاية: «كان في زمن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يُقال له السندباد الحمّال. وكان رجلاً فقير الحال يحمل تجارته على رأسه. فاتّفق أنّه حمل في يوم من الأيام حمولة ثقيلة، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ فتعب من تلك الحمولة وعرق واشتدّ عليه الحرّ.»[1]. وتستمرّ الحكاية إلى أن يجلس بجوار قصر السندباد البحريّ، وهناك تتجلّى له المفارقة الحادة، بينه وبين السندباد البحريّ، فالسندباد البحري «في غاية النّعمة وهو متلذذ بالرّوائح اللطيفة والمآكل اللذيذة، والمشارب الفاخرة في سائر الصفات ... [والسندباد البرّي] في غاية التعب والذلّ»[2].

وتتجسّد المفارقة أيضاً في حكاية «**الحمّال والبنات**» في زمن هرون الرشيد أيضاً، فالحمّال لا يملك شيئاً، بينما البنات يرفلن بكلّ ما لذّ وطاب، من دار فسيحة ومأكل ومشرب.تصف الوحدة السردية الآتية، ما تشتريه خادمة البنات، وتطلب من الحمّال أن يحمله إلى دار البنات: «وقالت له [للجزّار] اقطع عشرة أرطال لحماً، فقطع لها، ولفّت اللحم في ورق موز ووضعته في القفص، وقالت له: احمل يا حمّال، فحمل وتبعها. ثمّ وقفت على النقليّ وأخذت من سائر النقل (...) ووقفت على دكان الحلواني واشترت طبقاً وملأته من جميع ما عنده من مشبّك وقطائف (...) ثمّ وقفت على العطّار واشترت منه ماء ورد وماء زهر وأخذت قدراً من السكر (...) وحصى لبان وعنبراً ومسكاً»[3]. وعندما يصل الحمّال إلى دار البنات، يجدها داراً فاخرة ترفل بالطنافس والذّهب الأحمر[4]، ويستغرب مدهوشاً من هذا الثراء. ومن دائرة فقره، ورغبته في أن يستكشف عالم أثرياء بغداد، يرفض أن يخرج من منزل الفتيات، إلاّ بعد أن يعاين حقيقة ما يجري في هذا الفضاء الباذخ[5]. فبغداد في الليالي لم تكن ذلك الفضاء الآسر المخمليّ لكلّ الشخوص، بل إنّها أعطت التجّار ورجال السلطة كلّ ما

(1) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 396 .
(2) م ن، 3 / 397
(3) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 46 – 47.
(4) م ن، 1 /47.
(5) م ن، 1 / 47.

يشاؤون. وحرمت الفقراء الذين عاشوا غصّة ومرارة وفقراً مدقعاً، من أبسط الأشياء[1].

وتُظهر حكايات ألف ليلة وليلة في غير حكاية، الوجه السلبي لبغداد العباسيّة المزدهرة، فهي فضاء للقتل والسطو والنّهب، والناس فيها غير أمناء على أموالهم وممتلكاتهم، نتيجة لكثرة اللصوص. ففي حكاية «**علي بن بكّار وشمس النهار**»، نجد إشارة واضحة إلى فضاءات اللصوص وأعمالهم. يقول التاجر أبـو الحسن[2] «إنّ هـذا المكان [مكان ببغداد] غير آمن ونخشى على أنفسنا من التلف في هذا المكان بسبب اللصوص وأولاد الحرام». وهاهو أحد الجيران يخبر جاره الجواهرجي كيف أنّ اللصوص سطوا على داره: «فقال له: إنّ اللصوص الذين جاءوا جيراننا بالأمس وقتلوا فلاناً، وأخذوا ماله قد رأوك بالأمس وأنت تنقل حوائجك إلى دارك الثّانية فجاءوا إليها ليلاً وأخذوا ما عندك وقتلوا ضيوفك»[3].

ولا يكتفي اللصوص بسرقة أموال التّجار فحسب، بل يجترئون على السلطة السياسيّة نفسها، وعلى أكثر الفضاءات حصانة وسطوة في هذه السلطة، وهو فضاء قصر الخليفة هرون الرشيد، إذ يقومون بقتل أفراد ينتمون إلى هذا القصر، وإلى من يحمي هذا القصر، وهو فضاء دار صاحب الشرطة. تقول الحكاية السابقة: «إنّ الذين

(1) ويبدو أنّ بغداد في بعض مراحلها التاريخية حرمت هؤلاء الفقراء من كل شيء، إذ ينقل الشاعر أبو العتاهية (ت 210 هـ / 826 م)، الذي عاصر خلافة محمد المهدي بن المنصور والهادي بن المهدي وهرون الرشيد، بعض هموم البسطاء والمهمّشين من رعية بغداد، وحرمانهم ومعاناتهم، وما تفرضه طبيعة الحياة من غلاء للأسعار. يقول:

من مبلغ عني الإما ... م نصائحاً متتاليه
أنّي أرى الأسعار، أسـ ... ـعار الرعية، غاليه
وأرى المكاسب نَزْرَة، ... وأرى الضرورة فاشيه
من يُرْتَجى لدفاع كرْ ... ب مُلِمّة، هي، ماهيه
مَنْ للبطون الجائعا ... ت، ولِلجسوم العاريه
يا ابن الخلائق لا فُقِدْ ... ت، ولا عدمت العافيّة
ألقيت أخباراً إلَيـ ... ـك من الرّعيّة شافيه

أبو العتاهيّة، اسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان: **ديوان أبي العتاهية**، دار صادر للطباعة والنشر / دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، طبعة 1384هـ/1964م، ص 487.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 2 / 190.

(3) م ن، 2 / 204.

دخلوا دارك وأخذوا متاعك قد قتلوا أحسن جماعة من دار الخليفة، وقتلوا جماعة من دارصاحب الشرطة»[1].

إنّ نساء بغداد من الحرائر والجواري، ورجالها من القادة والتّجار والعبيد ـ وبمختلف تباياتهم الطبقيّة ـ يصبحون ملوك الحيلة والنّصب في بعض الحكايات، فهم يتقنون أحدث فنون الاحتيال، وأكثرها مهارة وتعقيداً، وتشابكاً، بحيث يستحيل على المحتال عليه أن يكشف كلّ خيوط الحيلة.وتشكّل حكاية «**علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة**»، أهمّ الحكايات التي تتجلّى الحيلة فيها، بأعلى تقنياتها، فهناك زينب النصّابة بنت دليلة المحتالة، وعلي الزيبق المصري وأحمد الدنف وحسن شومان، وكلّهم نصّابون محتالون. وهاهي زينب النصّابة تذكر لأمّها دليلة، الحيل التي حبكتها في يوم واحد: «أنا لعبت أربع مناصف على أربعة أشخاص، ابن التّاجر، وامرأة شاويش، وصبّاغ وحمّار، وجئت لك بجميع حوائجهم على حمار الحمّار»[2]. وهاهي أمّها دليلة تكمل حيلة ابنتها، وتحتال على يهودي، وعلى والي بغداد، وعلى أحد مزيّني بغداد، وتأخذ الرّجال الذين احتالت عليهم ابنتها، بالإضافة إلى اليهودي والمزيّن إلى زوجة الوالي نفسه لتحتال عليها أيضاً، إذ تدّعي أمامها أنّ هؤلاء الرجال مماليك، ويريد الوالي شراءهم، وأنّها مكلّفة بإيصالهم إلى دار زوجها الوالي، وقبض ثمن مبيعهم.وعندما سمعت زوج الوالي ادّعاءها وثقت بكلامها، وأعطتها ألف دينار، فرجعت دليلة إلى ابنتها زينب لتقول لها[3]: «يابنتي لعبت منصفاً وأخذت ألف دينار من زوجة الوالي وبعت الخمسة رجال لها، وهم الحمّار واليهودي والصبّاغ والمزيّن وابن التّاجر وجعلتهم مماليك».

ويبدو أنّ بغداد تتفوّق على مصر في الحيلة والشطارة في مواضع قليلة، فإذا كان علي الزيبق المصري، يظنّ أنّه زعيم للمحتالين والشطّار في مصر، وأنّه يستطيع أن يتفوّق بسهولة على كلّ محتالي بغداد، فإنّ سيّده أحمد الدنف في بغداد، ينبهّه

(1) م ن، 1 / 205.
(2) م ن، 4 / 121.
(3) م ن، 4 / 129.

إلى تركيبة بغداد الاجتماعيّة والسياسيّة، ويدعوه إلى التريّث لثلاثة أيام، حتى يفهم بنية الاحتيال في بغداد، يقول له: «يا ولدي لا تحسب أنّ بغداد مثل مصر. هذه بغداد محلّ الخلافة وفيها شطّار كثيرون ونبتت فيها الشطارة كما ينبت البقل في الأرض»[1].

لقد عُرِف قسم من الشطّار في الدولة العباسيّة، في عهدي الخليفتين محمد المهدي بن المنصور (158 ـ 169 هـ/775 ـ 785م)، وهرون الرشيد بن المهدي، بأنّهم أفّاقون ومتشردون، وعاطلون ومشاغبون ومكدّون (محتالون وشحّاذون)، ومقامرون ومخمورون، وفسّاق ولصوص، ومشبوهون، وهذا القسم لا يقيم وزناً لعرف أو عادة أو تقليد أو شريعة[2]، ويطلق الطبري[3] على هذا القسم من الشطّار تسميات عديدة، مستمدّة من قاموسه التاريخيّ، ومن قاموس شعراء عصره فهم السِّفْلة والغوغاء، والرعاع، والأوباش الطّغام من الأنام، وأهل الشرّ والشَّغْب والزّعارة، وأهل السجون الذين لا مأوى لهم سوى الحمّامات والمساجد، وهم في نظره يزرعون الفساد في طرق المسلمين، فقد «ضاقت بهم طرق المسلمين. حتى إنّ الرجل [منهم] ليستقبل المرأة في زحمة الناس فيلتثّان قبل التخلّص».

وتشير حكاية «**علي شار وزمرد الجارية**» إلى الوجه الفاسق واللصوصيّ والمغتصِب للشطّار في بغداد[4]، فها هو الشاطر جوان الكردي، وبينما كان يتجوّل لسرقة المنازل، يشاهد فجأة (زمرد الجارية) هاربة من منزل مختطفها برسوم النصراني، فيحتال عليها ويخطفها، وعندما تسأله: من أنت؟ يجيب: «يا عاهرة أنا الشّاطر جوان الكردي من جماعة أحمد الدنف ونحن أربعون شاطراً وكلّهم في هذه الليلة يفسقون

(1) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 147.

(2) عبد المولى، د. محمد أحمد: **العيّارون والشطّار البغاددة في التاريخ العبّاسي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، الطبعة الثانية، د. ت، ص 41 .

(3) **تاريخ الأمم والملوك**، (تاريخ الطبري)، 8 / 467 – 468.

(4) فضاء هذه الحكاية هو فضاء بلاد خراسان، وحتى يتعرّض الرّاوي إلى بعض مظاهر حياة الشطّار والمحتالين، فإنه ينقل أحداث الحكاية إلى بغداد المركز، وتحديدًا في فترة خلافة هرون الرشيد،إذ يذكر شطّار تلك الفترة، الذين ترد أسماؤهم في الحكايات البغداديّة، وربما يكون السبب في ذلك، هو أن الشطّار والعيّارين، أول ما ظهروا، ظهروا بمدينة بغداد قبل أيّة مدينة إسلامية أو عربية أخرى.

في رحمك من العشاء إلى الصباح.»[1]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن أحمد الدنف وجماعته في حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»، يمثّلون وجه السلطة السياسيّة في بغداد، في عهد هرون الرشيد. ولم يمارس الشطّار وحدهم، ولا النساء والجواري والقوّادات، الاحتيال في بغداد العباسيّة فحسب، بل مارسه كبار القوم، وممن يتربّعون عرش السلطة السياسيّة، كما تذكر حكاية «**غانم بن أيوب وقوت القلوب**»، فقد احتالت السيّدة زبيدة زوجة الخليفة هرون الرشيد على إحدى حظايا زوجها ـ قوت القلوب ـ[2]. وقد مارس الرشيد فنون الاحتيال، أيضاً، فقد كان يحتال على زوجته السيدة زبيدة[3].

ومن الوجوه السلبيّة لبغداد مرآة الحضارة العباسيّة في حكايات ألف ليلة وليلة، انتشار المعاصي والفجور، وارتكاب المنكر بكل أشكاله. وقد تورّط نساء الليالي ورجالها، بطبقاتهم الاجتماعية، وعلى السواء، في ارتكاب المعاصي والفجور. فنقرأ في حكاية «**الحمّال والبنات**»، كيف أنّ بوّابة القصر، والبنات من طبقة التّجار، يعشن حياة عربيديّة متهتكة مع الغرباء الذين يدخلون منزلهنّ: «ثمّ أحضرت ما يحتاجون إليه، ثمّ قدّمت المُدام وجلست هي وأختها وجلس الحمّال بينهنّ وهو يظنّ نفسه أنّه في المنام. ولم يزل الحمّال معهنّ في عناق وتقبيل»[4].

وقد انتشر الفجور والمعاصي في بغداد ألف ليلة وليلة، واستفحل في منازل الطبقة الثريّة. فهاهي الأميرة دنيا البرمكيّة، أخت الوزير جعفر البرمكي، تتحايل على التّاجر محمد بن علي الجوهري، وتستدعيه إلى قصرها وتلاطفه، تمهيداً لإقامة طقوس الفعل الجنسي في منزلها: «وقالت [دنيا البرمكيّة]: يا نور عيني، هل كلّ من كان مليحاً مثلك لايرثي لمحبوبته؟ فقلت: ياسيّدتي الحسن كلّه فيك وهو من بعض معانيك. فقالت: ياجوهري اعلم أنّي أحبّك وما صدقت أنّي أجيء بك عندي.ثمّ إنّها

(1) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 40.
(2) م ن، 1 / 229 – 230.
(3) م ن، 3 / 156.
(4) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 49.

مالت عليّ فقبّلتها وقبّلتني وإلى جهتها جذبتني وعلى صدرها رمتني. وعلمت من حالي أنّي أريد وصالها»[1].

وربّما تكون هذه الصورة متخيّلة نتيجة لجموح خيال الرّاوي الشهواني الذي عاش مجتمعاً طبقيّاً استطاع الأغنياء فيه أن يحققوا كلّ شيء، بينما هو لم يستطع أن يكون فاعلاً، لا اقتصاديّاً ولا جنسيّاً، لكنّ هذه الصورة، في حقيقة الأمر، تعكس وضعاً اجتماعياً مغموساً بالملذّات والشهوة، شهدته بغداد العباسيّة، في أوج ازدهارها التاريخيّ والمعرفيّ، فقد مارس كبار القوم في بغداد المزدهرة تهتكاً وفجوراً وفساداً أسطورياً، إذ أخذت كؤوس الخلاعة والفسوق تدور داخل قصورهم[2]. وقد أسهم في انتشار المعاصي ببغداد الليالي، هذا العدد الكبير من الجواري ذوات الجنسيّات المتعددة، والمختلفة الأشكال والألوان، والقادمات إلى بغداد بفعل نشاط تجارة الرّقيق.

وتشير حكاية «**الحمّال والبنات**» إلى أنّ محمد الأمين بن هرون الرشيد كان يعتدي جنسياً على الجواري في بغداد، ويأخذ أموالهنّ غصباً: «يا أمير المؤمنين أنا أدلّك على من فعل لهذه الصبيّة هذا الفعل وظلمها وأخذ مالها وهو أقرب الناس إليك (...) ثمّ قالت: يا أمير المؤمنين إنّ الذي ضرب الصبيّة ولـدك الأمين، فإنّـه كـان يسمـع بحسنهـا وجمالها»[3].

وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ الخليفة محمد الأمين، كان أكثر خلفاء بغداد ارتكاباً للمعاصي، من حيث معاقرته الخمرة، وولعه بالغلمان فقد «كان يعيش للخمرة المسكرة يشربها أرطالاً وكأنّما كان في قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلاّ بشرابها متتابعاً، حتى ليصل أحياناً مساءه فيها بصباحه»[4]. وقد كان ولعاً بالغلمان، إذ استقدمهم وقرّبهم، وفضّلهم على الجواري، «ويُرْوى أنّ الأمين حين أفضت إليه

(1) م ن، 2 / 435 – 436.

(2) لاندور، روم: **الاسلام والعرب**، ص 36.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 88.

(4) ضيف،د. شوقي: **العصر العباسي الأول**، ص 66.

الخلافة قدّم الخصيان، وآثرهم، فشاعت قالة السوء فيه، ورأت أمّه زبيدة دَرْءاً لتلك القالّة أن تبعث إليه بعشرات من الجواري، ألبستهنّ لبس الرّجال، حتى ينصرف عن الخصيان»[1].

ومن هنا،لا نستغرب، إزاء سلوك الأمين واستهتاره، أن يقول فيه نديمه أبونواس[2] هاجياً:

احمـدوا اللـه كثيـراً يـا جميـع المسلمينـا
ثـم قولـوا لا تملَّـوا ربّنـا أبـق الأمينـا
صيّـر الخصيـان حتـى جعـل التصييـر دينـا
فاقتـدى النـاس جميعًـا بأميـر المؤمنينـا.

وقد أشار الموروث الشعري العربي، إلى تفشي المعاصي والكبائر ببغداد، معتبراً أنّ هذه المعاصي كانت فيما بعد سبباً من أسباب نكباتها، وزوال عزّها. يقول الشاعر العبّاسي أبو يعقوب الخريمي[3](196) (ت 205 هـ/821 م) بعد وقعة الحربيّة سنة 197هـ / 813م، التي دارت بين الأمير وأخيه المأمون:

يا بـؤس بغـداد دار مملكة دارت علـى أهلهـا دوائرهـا
أمهلهـا اللـه ثـم عاقبهـا لمـا أحاطـت بهـا كبائرهـا

.....

كم قـد رأينا من المعاصي ببغداد فهـل ذو الجـلال غافرهـا!
حلّـت ببغـداد وهـي آمنـة داهيـة لـم تكـن تحاذِرهـا
طالعهـا السـوء مـن مَطَالعـه وأدركـت أهلَهـا جرائرهـا
رقّ بها الدين واسْـتُخِفّ بذيَ الـ ـفضل وعَـزّ النُّسـاك فاجرُهـا
وخطّـم العبـد أنـفَ سيّـده بالرّغـم واسـتُعْبِدت حرائرهـا

(1) م ن، ص 73.

(2) **ديوان أبي نواس**، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة 1402 هـ / 1982 م، ص 554.

(3) عن / تاريخ الطبري، 8 /450 – 451.

وصـار ربّ الجيـران فاسـقَهم وابتـزّ أمـر الـدّروب ذاعرُهـا

إذا كانت خراسان المحطّة الأولى في السرد، أو الخليّة الأولى في ألف ليلة وليلة والتي تتوالد منها خلايا أخرى، وتتوزّع في جسد الحكايات، فإن بغداد هي أهمّ المحطّات المركزيّة التي ينطلق منها الأبطال، ثم يعودون إليها ثانية،وما إن يخرج هؤلاء الأبطال من بغداد حتى يتّقدوا شوقاً إلى ملذّاتها ونسائها ولعلّ شوق السندباد البحري وحنينه إليها يمثّل قمّة هذا الشوق فعندما يخرج منها سرعان ما يبدأ قلقه، ثم يزداد سأمه في الأماكن التي يصل إليها، ثم يتأجج حنينه إلى بغداد. يقول السندباد في سفرته الأولى: «وأنا كلّما أشقّ على جانب البحر أسأل التّجار والمسافرين والبحريين عن ناحية مدينة بغداد، لعلّ أحداً يخبرني عنها فأروح معه إليها وأعود إلى بلادي (...) وقد تحيّرت من ذلك وسئمت من طول الغربة»[1].

يحنّ السندباد في سفرته الأولى إلى بغداد، ويملّ مدينة الملك المهرجان، على الرّغم من جمالها، وعلى الرّغم من مركزه الوظيفي المهمّ جداً في المدينة، إذ كان ملك المدينة قد عيّنه عاملاً على مينائها، وقرّبه وأكرمه: «ثمّ إنّه أحسن إليّ [ملك المدينة] وأكرمني وقرّبني إليه وصار يؤانسني بالكلام والملاطفة، وجعلني عنده عاملاً على ميناء البحر وكاتباً على كل مركب يعبر إلى البرّ»[2]. مع ملاحظة أن هذه الوظيفة المهمّة (عامل الميناء)، هي من المناصب المهمّة وصاحبها يحتلّ موقعاً متميّزاً في الدولة،لأنّه يمكن اعتباره من أعوان السلطة ورجالها، نظراً لسلطته على حركة التّجارة والمراكب التي تدخل الميناء وتخرج منه.والفئات التي يمكن اعتبارها ذات مواقع متميّزة في المدينة الإسلاميّة، وتتفوّق على غيرها من بقية الفئات هي: رجال السلطة، ورجال الدين، وفئة التّجار[3].

(1) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 404.

(2) م س، 3 / 404

(3) زيادة، د. خالد:» الخسيس والنفيس في المدينة الإسلامية «، **مجلة الفكر العربي**، معهد الإنماء العربي،بيروت، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)،السنة الرابعة،العدد التاسع والعشرون،تشرين الأول/ أكتوبر،تشرين الثاني / نوفمبر، 1982م، ص 160.

إنّ خيوط الوحدات السردية في سفرات السندباد، تبتدئ من بغداد، ثم تمتد بعيداً إلى مدن أخرى، لتنتهي في بغداد. وهنا يمكننا أن نتخيّل بغداد مركز دائرة كبيرة، تدور حوله المدن التي يصل إليها السندباد، أو التي تتموضع حوله في كل سفرات السندباد.

ففي السفرة الأولى[1]:

يسافر السندباد من بغداد (ص 400) إلى ← البصرة (400) ← مدينة الملك المهرجان (مدينة لا اسم لها)، (404) ← جزيرة كابل (إحدى جزر مدينة الملك المهرجان)، (405) ← الرجوع إلى البصرة (407) ← بغداد (408).

وفي السفرة الثانية[2]:

يسافر السندباد من بغداد إلى البصرة ← عدة جزر لا يذكر السندباد اسماً لها (409) ← جزيرة عظيمة (لا اسم لها)، (414) ← إلى مدن كثيرة (لا اسم لها)، (415) ←البصرة (415) ← بغداد (415).

في السفرة الثالثة[3]:

من بغداد (118)← البصـرة (118) ← جزيرة (لا اسم لهـا)، (118) ← جبل القرود (118) ← جزيرة (لا اسم لها)، (121) ← جزيرة السلاهطة (125) ← بلاد ما وراء البحار (124) ← البصرة (125) ← بغداد (125).

وفي السفرة الرابعة[4]:

من بغداد (426) ← البصـرة (426) ← جزر كثيرة (لا اسم لها)، (426) ← جزيرة (لا اسم لها) بعد أن كسرت سفينة السندباد (427) ← مدينة عامرة بالأهل

(1) **ألف ليلة وليلة** 3 / من ص 399 إلى ص 408.وسيشار إلى رقم الصفحة داخل المتن بجوار أسماء المدن في كل سفرات السندباد وذلك للتخلص من كثرة الهوامش.

(2) م ن، 3 / من ص 408 إلى ص415.

(3) نظرا لأن مدن هذه السفرة ناقصة في طبعة دار مكتبة الحياة، فإني أستخدم طبعة أخرى، وهي: **ألف ليلة وليلة**، المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، بيروت، المجلد الثالث، د. ت، من ص 117 إلى ص 125.

(4) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، 3 / من ص 425 إلى ص 437.

والمال (لا اسم لها)، (429) ← جزر كثيرة (لا اسم لها)، (436)← البصرة (436) ← بغداد (436).

وفي السفرة الخامسة[1]:

من بغداد (437) ← البصرة (437) ← عدة جزر (لا اسم لها)، (438) ← جزيرة خالية من السكان، وهي جزيرة طائر الرخ (438) ← جزيرة (بعد أن كسرت سفينة السندباد)، (439) ← مدينة القرود وهي في أقصى بلاد السودان (443) ← عدة جزر في طريق العودة (م 5/4) ← البصرة (5) ← بغداد (5).

وفي السفرة السادسة[2]:

من بغداد (6) ← البصرة (6) ومن مدينة إلى مدينة، (لا أسماء لها)، (6) ← جزيرة (محطّة نجاة بعد أن كسرت سفينة السندباد)، (7) ← مدينة لا يعرف السندباد اسماً لها كما يقول (11) ← البصرة (12) ← بغداد (13).

وفي السفرة السابعة[3]:

من بغداد (14) ← البصرة (14) ← إقليم الملوك في آخر بحار الدنيا (15) ← جزيرة عظيمة (جزيرة أمان)، (16) ← مدينة عظيمة (لا اسم لها)، (17) ← البصرة (23) ← بغداد (23). ومخطط الدائرة الآتي يوضّح تموضع المدن التي يصل إليها السندباد، حول مركز الدائرة بغداد:

من خلال المخطط يمكن القول: إنّ كل رحلة سندبادية تشكّل دائرة[4] وعلى

(1) **ألف ليلة وليلة**، من ص 437 من المجلد الثالث إلى ص5 من المجلد الرابع.

(2) م ن، 4 / من ص 6 إلى ص 14.

(3) م ن، 4 / من ص 14 إلى ص 23.

(4) وتتشكّل الرحلة الدائرية حول المدينة المركز (بغداد) في غير حكاية، إذ تكون هذه المدينة نقطة انطلاق الشخوص والأبطال، ثم تصير فيما بعد نهاية مطافهم. ومن خلال انتقال الوحدات السردية يوزّع الوّلاة المدن الأخرى، التي تتحدد وظيفتها في أن تكون محطّات استراحة، أو محطّات إغارة، أو محطّات تسكن فيها النساء الجميلات المحبوبات، اللواتي يشكّلن غاية الغايات، أو محطّات تكون سبباً في الثراء المالي. ومن هذه الحكايات: حكاية «حسن الصائغ البصري»، [4 / 321، 369]. وحكاية «علاء الدين أبي الشامات». [2 / 384، 392، 398، 399].

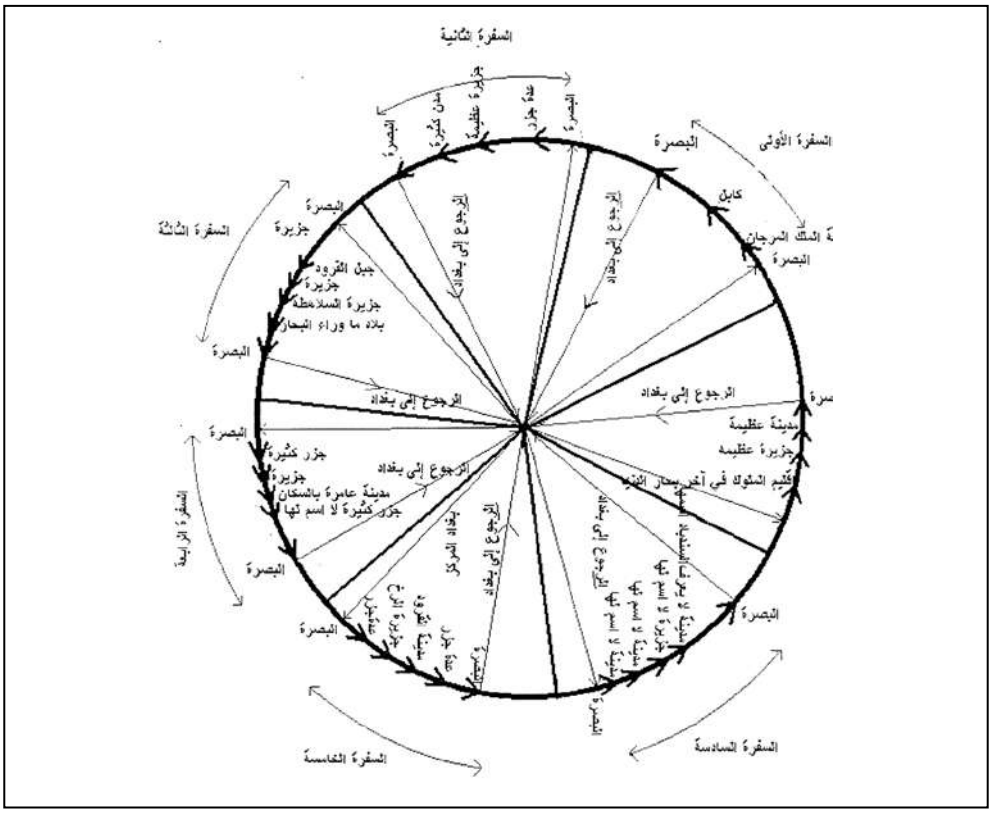

محيط هذه الدائرة تتراصّ الأقاليم والجبال والجزائر والمدن، وأول مدينة مهمّة على هذا المحيط هي البصرة، وآخر مدينة عليه هي البصرة أيضاً، فهي مرفأ الأمان. وبعد أن يصل السندباد إلى ميناء البصرة، يدخل في المركز الأكثر أماناً، مدينة بغداد، مدينة الأماني الجميلة، حيث المآكل الطيّبة، والشراب واللّهو والطرب، والأصدقاء والجواري الجميلات.

يقول السندباد[1] في نهاية سفرته الثالثة: «إنّي لمّا عدت إلى مدينة بغداد اجتمعت على أصحابي وأحبابي وصرت في أعظم ما يكون من الهناء والسرور والرّاحة، ونسيت ما كنت فيه لكثرة الفوائد وغرقت في اللّهو والطرب ومجالسة الأحباب والأصحاب وأنا في ألذّ ما يكون من العيش».

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة المكتبة الشعبية، 3 / 125.

ولم تكن بغداد في الليالي ملاذاً أو مدينة حميمة لأبنائها فحسب، بل كانت فضاءً آمناً لكثير من الشخوص الغرباء[1]، الذين فضّلوها على بلدانهم، فمنار السنا، ابنة ملك الجان في واق الواق، ترفض مجد أبيها وهيبته وسطوته بين الجزائر الكثيرة، وتأتي لتعيش في بغداد مع زوجها حسن البصري، لأنّها عايشت جمال بغداد سابقاً، ولا تستطيع أن تفارقها. تقول[2] معلنة شوقها إلى بغداد، مدينة زوجها:

وطرفي إلى أوطانكم متلفت وقلبي على أيامكم متلهف

وكم ليلة بتنا على غير ريبة محبين يهنينا الوفا والتلطّف

إنّ الخروج من بغداد هو خروج صوب المجهول، تكتنفه الحيرة والخوف والجوع، والنفي والضياع. يقول الرّاوي عن خروج الأمير كان ما كان: «فإنّه لمّا خرج من بغداد صار متحيّراً في أمره، ولم يدر إلى أين يتوجّه. ثمّ إنّه سافر في البرّ ثلاثة أيام وحده ولم ير راجلاً ولا فارساً. فطار رقاده وزاد سهاده وتفكّر أهله وبلاده، وصار يتقوّت من نبات الأرض ويشرب من أنهارها»[3]. وإنّ الدخول إلى بغداد يعني الأبّهة والعظمة، والأمان والنّعيم، وذهاب الذلّ الذي كان قد لحق الشخصيّة عندما فارقت بغداد. يقول الرّاوي عن رجوع «كان ما كان» إلى بغداد: «فأخرج [الملك ساسان] جميع العساكر ووجهاء بغداد لملاقاته. فخرج كلّ من في بغداد ولاقوه، ومشوا قدّامه إلى القصر (...) ثمّ أمر أن يحضروا لكان ما كان خلعة سنية وجملة من الخيل، وأفرد له في القصر أكبر الدور، وأقبل عليه العزّ والسرور، وأعطاه مالاً جزيلاً وأكرمه غاية الإكرام (...) ففرح كان ما كان بذلك وذهب عنه الذلّ والهوان»[4].

وتذكر المصادر التاريخيّة، أنّ بغداد كانت قادرة على إعطاء الداخلين إليها ما

(1) ومن هؤلاء الشخوص: علاء الدين أبو الشامات، والأميرة (حُسن مريم)، في حكاية «علاء الدين أبي الشامات». وأحمد الدنف، وعلي الزيبق المصري في حكاية «علي الزيبق المصري مع دليلة المحتالة»، وغيرهم.

(2) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، 4 / 343. ومن الآن فصاعداً فإنّ كل الإشارات إلى أرقام الصفحات ستعود إلى طبعة دار مكتبة الحياة، وذلك في كل فصول هذه الدراسة.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 2 / 90.

(4) م ن، 2 / 98.

يرغبون فيه، من رفاهية العيش ولذّاته، فقد وُجِد مكتوباً على بعد أميال قليلة منها، وعلى طريق مكّة:

أيا بغداد يا أسفي عليك! متى يُقضى الرجوع لنا إليك؟
قنعنا سالمين بكل خير؛ وينعم عيشنا في جانبيك.[1]

إنّ شخوص ألف ليلة وليلة مندفعون للرجوع إلى مدنهم التي هاجروا منها، طَوْعاً أو كَرْهاً، وهم محكومون بحنين قوي إليها، إذ تدفعهم الحياة بقوة إلى مدنهم الأصلية، أو لنقل بتحديد أكثر يدفعهم السرد الحكائي للعودة، وذلك لرغبة السارد في فكّ عقدة الحكاية في المدينة الأصل، التي امتدّت منها خيوطها. إنّ فكّ عقدة الحكاية في المدينة المركز، هو في أحد وجوهه الإشاريّة استمرار لسطوة القصر المركزيّة، لأنّ الملك أو السلطان أو الخليفة المروي له، يعدّ على المستوى النفسي أنّ خروج الشخصيّات من المدينة المركز، وعدم عودتها إلى هذا المركز هو تمرّد على سطوة قصره، أو سطوة قصور المدن المركزيّة الأخرى، التي تلتقي في كثير من قسماتها وبنياتها الاجتماعيّة والسياسيّة مع قصوره في مدينته، ولأنّ الرّاوية الأولى شهرزاد وقفت طائعة ذليلة، وهي تروي الحكايات في قصر سيّدها شهريار، وكرّست فكرة القصر المركزيّ والمدينة المركزيّة والسلطة المركزيّة، والأبطال الذين لا يتجاوزون هذا المركز مهما كانوا عتاة، فإنّ الرّواة الآخرين كرّسوا فكرة المركز، حتى ولو كانوا أعداء له. ومن الحكايات التي تكرّس فكرة المركز حكاية «**الأحدب وملك الصين**»[2]، إذ يبتدئ السرد من الصين وينتهي في الصين، وتكون حركة السرد قد خطّت مساراً دائرياً، تموضعت عليه البلدان والمدن الآتية:الصين (124/1)، مصر (128/1)، بغداد (130/1)، دمشق (144/1)، الموصل (150/1)، الصين (162/1). وإذا كان الرّاوي يسرد الحكايات المتشعّبة الداخلة في حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، أمام ملك الصين، فإنّه لا ينسى الاحتفاء ببغداد المركز، احتفاءً يفوق احتفاءه

(1) **معجم البلدان**، 1 / 462.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 1 / من ص 124، إلى ص 177. وسيشار إلى أرقام الصفحات في المتن بجوار البلدان والمدن التي يذكرها السرد في حكاية «الأحدب وملك الصين».

بالصين وملكها، إذ يستحضر بغداد الزّمان والذّكريات،والعيش الفاره، والحنين إلى نسائها الدافئات، لتسع مرات داخل الحكاية[1].

هذه هي بعض ملامح مدينة بغداد كما ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة، وهذه الملامح لا تختلف كثيراً عن ملامحها التاريخيّة والحضاريّة المزدهرة، كما ذكرتها المصادر والمراجع. فقد أُنشئت هذه المدينة لتجسّد «الطموح إلى الجديد، ورمزية الجدّة، ومعنى الإمبراطورية وعزتها»[2].

إنّ موقعها الجغرافي المتميّز، كما يشير أحمد بن إسحق بن واضح اليعقوبي[3] (ت 292 هـ/905 م) باعتبارها «مفترق طرق بين بحار الشرق وبحار الغرب، وبين بلدان العرب والعجم وبين دجلة والفرات»، جعلها في نصوص ألف ليلة وليلة، أهمّ فضاء مكاني في ارتحالات السرد، وحركة الأبطال، وتشكيل الأحداث. وقد حاولت أن أركّز على أهمّ ملامحها كما وردت في نصوص الليالي، تاركاً ملامح أخرى، حتى يتسع هذا الفصل للحديث عن مدينة أخرى مهمّة، وهي مدينة البصرة.

(1) وذلك في المجلد الأول، وفي الصفحات: 130، 139، 150، 156، 160، 166، 168، 174.

(2) جعيط، د. هشام: **الكوفة ـ نشأة المدينة العربية الإسلامية**، ص 438.

(3) عن / ميكيل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام البشرية**، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص 383.

2 ـ البصرة

لمحة تاريخيّة عن البصرة

إنّ للموقع الجغرافي لمدينة من المدن، أهمّية كبيرة في تاريخ هذه المدينة، وفي أنماط العيش فيها، وفي تفاعلاتها الحضاريّة والمعرفيّة والتجاريّة مع المدن التي تحيط بها. فالمدن ذات المواقع الجغرافيّة المتميّزة، تلعب دوراً كبيراً في أحداث التاريخ وصيرورته، كون هذا التاريخ يتعايش مع هذه المدن، ويخطّ حوادثه، وحركات الأشخاص، ثم يحدد دورهم في صناعته.

وقد أسهم موقع البصرة الجغرافيّ في أن تأخذ ـ تاريخيّاً ـ أدواراً مهمّة، في السياسة والاقتصاد، والفكر والفن والأدب، والعمران. فالبصرة من أهمّ الموانئ الثلاثة على الخليج العربي،التي أسهمت في تطوّر التجارة البحرية، وهي: سيراف على الشاطئ الشرقي من الخليج، والبصرة على الساحل العراقي في الشمال، ومسقط على الساحل العُماني في الجنوب[1]. وقد «كان العرب يسمّون البصرة قبل التمصير أرض الهند، ويسمّون بحرها بحر الصين، ويرجع ذلك إلى أنّها كانت منتهى التجارة البحريّة القادمة من الصين والهند، وكانت تجارة ناشطة منذ قرون تسبق الإسلام»[2]. وتحدد الجغرافيا القديمة أنّ طول البصرة أربع وستون درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة،

(1) الخوري، د. فؤاد إسحق: **القبيلة والدولة في البحرين - تطوّر نظام السلطة وممارستها**، معهد الإنماء العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1983 م، ص 28.

(2) العلوي، هادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة»، **مجلة البديل**، اتحاد الكتّاب والصحافيين العراقيين، لا. ب، العدد العاشر، تشرين الأول / اكتوبر 1987م، ص 9.

وهي في الإقليم الثالث[1]. وسُمّيت بالبصرة لأنّ فيها حجارة سوداء صُلبة. وذكر الشرقي ابن القطامي[2]: «أنّ المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها، فقالوا: «إنّ هذه أرض بَصرَة، يعنون حَصْبة، فسمّيت بذلك».

مُصِّرَت البصرة عام 14 هـ/635 م، بأمر من الخليفة عمر بن الخطّاب، بعد أن تمّ إخراج الساسانيين[3] نهائياً من العراق[4]، وذلك لأنّ عُتْبَة بن غَزْوان[5] عندما شارك في فتح العراق، وبعد معركة القادسيّة، توجّه إلى الجنوب لتطهيره من الساسانيين، وعسكر في موضع قريب من شطّ العرب[6]، وكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في تمصير البصرة قائلاً: «إنّه لا بدّ للمسلمين من منزل إذا أشتى شَتَوا فيه وإذا رجعوا من غزوهم لجأوا إليه. فكتب إلى عمر: أن ارتدْ لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء واكتب إليّ بصفته،فكتب إلى عمر: إنّي قد وجدت أرضاً كثيرة القَضّة في طرف البرّ إلى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قَصَباء»[7].وعندما وصلت الرّسالة إلى عمر بن الخطّاب،قال:[8] «هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب،فكتب إليه [إلى عتبة بن غزوان] أن انزلها».

---

(1) **معجم البلدان**، 1 / 430.

(2) م ن، 1 / 430.

(3) الساسانيّون: سلالة فارسية ساسانيّة تنتسب إلى ساسان أحد كهنة الإلهة آناهيتا. ملكت بين 226م – 651م. أسسها أردشير الأول. أشهر ملوكها: شابور الأول وشابور الثاني وكسرى أنوشروان.
العلايـــلي،عبد الله، وآخرون: **المنجد في الأعـــلام**، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة، 5 نيسان، 1980م، ص 344.

(4) العلوي، هادي: «**البصرة في ذاكرة الحضارة**»، ص 9.

(5) عُتْبَة بن غَزْوان: (ابن جابر بن وهيب الحارثي المازني، 40 ق هـ –17 هـ / 584 – 638م): باني مدينة البصرة. صحابي، قديم الإسلام. هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً. ثم شهد القادسية مع سعد بن أبي وقّاص. ووجّهه عمر إلى أرض البصرة والياً عليها، فاختطّها عتبة ومصّرها. وقَدِم المدينة لأمر خاطب به عمر بن الخطاب، ثم عاد فمات في الطريق. وكان طويلاً جميلاً من الرماة المعدودين.
الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، 4 / 201 .

(6) العلوي، هادي: «**البصرة في ذاكرة الحضارة**»، ص 10.

(7) **معجم البلدان**، 1 / 430.والقضّة: ما صغر أو تفتت من الحصى.
المنجد في اللغة، مادة: قضّ، ص 635.

(8) م ن، 1/ 432. والبصرة: الأرض الغليظة، والطين فيه حصى وحجارة رخوة فيها بياض.
المنجد في اللغة، مادة: بَصَر، ص 40.

ويذكر المؤرّخ علي بن الحسين المسعودي[1]، أنّ عتبة بن غزوان إنّما خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد بن أبي وقّاص[2] من حرب جَلُولاء وتكريت، وأنّه قدم إليها وهي يومئذٍ تُدعى أرض الهند، وفيها حجارة بيض فنزل موضع الخُرَيبة، ومصّرها في ربيع سنةٍ ست عشرة للهجرة، و«بنى دار إمارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها رحبة بني هاشم، وكانت تُسمّى الدهناء، وفيها السجن والديوان وحمّام الأمراء»[3].

ثم شهدت المدينة تطّوراً وتخطيطاً عمرانياً، يتناسب مع زيادة عدد سكانها، إذ خُطّطت الشوارع الرئيسة والفرعيّة، فكان عرض الشارع الرئيس ستين ذراعاً، وعرض كل شارع من الشوارع الفرعيّة عشرين ذراعاً، أما الأزقّة فكان عرض كل منها سبعة أذرع، وراعوا في هذا التخطيط، أن تكون هناك رحبات فسيحة لمربط خيلهم، وقبور موتاهم، وجعلوا منازلهم متلاصقة[4]. وتؤكّد المصادر أنّ منازلهم كانت في بداية الأمر من القصب، نظراً لقربه من موضع البناء، ونظراً لانشغالهم بالغزو والفتح، «فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءه كما كان»[5].

لكنّ التطوّر العمراني الذي شهدته البصرة بعد الفتح الإسلامي كان في فترة ولاية أبي موسى الأشعري[6] (17 ـ 29هـ/638 ـ 650م)، إذ عندما عيّن الخليفة عمر

(1) م ن، 1/ 432. والبصرة: الأرض الغليظة، والطين فيه حصى وحجارة رخوة فيها بياض.
المنجد في اللغة، مادة: بَصَر، ص 40.

(2) سعد بن أبي وقّاص: (ابن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، 23ق هـ – 55 هـ / 600 – 675م): فاتح العراق ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر بن الخطّاب للخلافة، وأحد العشرة المبشّرين بالجنة. شهد بدراً وافتتح القادسية. ونزل أرض الكوفة وجعلها خططًا لقبائل العرب.
الزركلي، خير الدين: الأعلام، 3 / 87 .

(3) **معجم البلدان**، 1 / 432.

(4) عثمان، د.محمد عبد الستار: **المدينة الإسلامية**، ص 65.

(5) **معجم البلدان**، 1 / 430.

(6) أبو موسى الأشعري: (عبدالله بن قيس بن سليم بن حرب، 21 ق.هـ – 44 هـ / 602 – 655 م): صحابي، من الولاة الفاتحين، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما عليّ ومعاوية بعد حرب صفين. ولد في زبيد (باليمن) وقدم مكّة عند ظهور الاسلام فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة.ثم استعمله رسول الله (ص)على زبيد وعدن.
الزركلي، خير الدين: **الاعلام** 4 / 114.

ابن الخطّاب أبا موسى الأشعري والياً على البصرة قال له[1]: «يا أبا موسى، إنّي مستعملك؛ إنّي أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرّخ، فالزم ما تعرف، ولا تستبدلْ فيستبدل الله بك. فقال: يا أمير المؤمنين، أعنّي بعدّة من أصحاب رسول‌الله من المهاجرين والأنصار، فإنّي وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلاّ به (...) فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً؛ منهم أنس بن مالك[2] وعمران بن حُصين[3] وهشام بن عامر[4]». وعند وصوله إلى البصرة أخذ بتغيير الهيكليّة العامة لمنشآتها الدينيّة والإداريّة، ولمنازل سكانها، إذ «إنّ الناس اختطّوا وبنوا المنازل، وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين، وسقّفها بالعشب، وزاد في المسجد»[5].

ويقيس أحد رجال البصرة في عهد واليها خالد بن عبد الله القسري [6] طول المدينة وعرضها، ويعلن نتائجه قائلاً[7]: «فوجدت طولها فرسخين وعرضها فرسخين إلاّدانقاً.»، أي أنّنا أمـام مساحة تقـدّر بحوالي سـتة وثلاثين ميـلاً عربياً أي بمساحة تقريبية تعادل (139كم^2)[8]. وحسب إحصائيات أحد رجال البصرة في عهد زياد بن

(1) **تاريخ الطبري**، 4 / 70 – 71.

(2) أنس بن مالك: (ابن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري، 10 ق.هـ - 93 هـ / 612 – 712م): صاحب رسول الله (ص) وخادمه. روى عنه رجال الحديث 2286 حديثاً. مولده بالمدينة. مات بالبصرة، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.
الزركلي،خير الدين: **الاعلام**، 2 / 24 - 25.

(3) عمران بن حصين:(ابن عبيد، ... - 52 هـ /... 672- م): من علماء الصحابة. أسلم عام خيبر (سنة 7هـ) وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة. وبعثه عمر بن الخطاب إلى سكان البصرة ليفقههم. وولاّه زياد ابن أبيه قضاءها. وتوفي بها - م ن، 5 / 70.

(4) هشام بن عامر: لم أجد له ترجمة في الأعلام، ولا في المنجد في الأعلام .

(5) البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر بن داود: من كتاب **فتوح البلدان**، اختار النصوص وعلّق عليها د. شوقي أبوخليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1997 م، ص 433.

(6) خالد بن عبد الله القسري: (ابن يزيد بن أسد، 66 ـ 126 هـ / 686 ـ 743 م): أحد خطباء العرب وأجوادهم. يمانيّ الأصل، من أهل دمشق. وُلّي مكّة سنة 89 هـ للوليد بن عبد الملك، ثم ولاّه هشام بن عبد الملك العراقين (الكوفة والبصرة) سنة 105هـ.
الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، 2 / 297.

(7) **معجم البلدان**، 1 / 434.

(8) العلوي، هادي: «**البصرة في ذاكرة الحضارة**»، ص 12.

أبيه[1]، وجد أنّ عدد جماعة المقاتلين العرب ثمانون ألف مقاتل، وأنّ عدد أفراد عائلاتهم مائة وعشرون ألف فرد[2]. وطبيعي جداً أن يزيد عدد سكان البصرة على هذا الرقم بكثير فيما لو أحصى رجل آخر عدد السكان، هذا إذا عرفنا أنّ جاليات أخرى وأفراداً آخرين كانوا يقيمون في هذه المدينة، فهناك البدو (الأعراب) الذين لا ينضوون تحت جماعة المقاتلين الذين ذُكروا سابقاً، وهناك الجاليات الأجنبية غير العربيّة التي تعيش في هذه المدينة، إذ تشير الدراسات إلى أن سواد البصرة كلهم عجم[3]. يُضاف إلى ذلك المهاجرون إلى البصرة من الأرياف القريبة، وغالبيتهم من الأنباط، وهم الساميّون الذين يشكّلون حلقة وسيطة بين الآراميين والعرب[4].

ويبدو أنّ البصرة كانت موقعاً عسكرياً كبيراً، تأسّس في أثناء الفتح الإسلامي[5]، ليُسْهم في نمو الفتح وامتداده، وليكون قادراً على إيواء المجاهدين وعوائلهم، ومركزاً ادارياً للمناطق الجديدة التي تمّ فتحها، وليشكّل حلقة وصل بين المدينة المنوّرة العاصمة والمناطق المفتوحة، إذ يمكن بوساطته إرسال النجدات والأوامر العسكريّة، بالإضافة إلى كونه خطّاً مفتوحاً، يُؤمّن رجوع المسلمين في حال تعرّضهم للخطر، ومركزاً تموينياً للجيوش التي تحارب في الجبهات الحربيّة[6].

والبصرة ـ عبر التاريخ ـ مركز تجاريّ مهمّ، نظراً لكونها أكثر الموانئ الخليجية استفادة من. «التجارة، لأنّ الملاحة فيها سهلة ومأمونة لاقترابها من المناطق العميقة المياه نسبياً.»[7]. ومن ميزاتها أنّها تقابل فارس[8]، ولذا فهي صلة وصل بين الحضارتين

(1) زياد بن أبيه: (1 – 53هـ / 622 – 673 م): أمير، من الدهاة، القادة الفاتحين، الولاة. من أهل الطائف. اختلفوا في اسم أبيه، فقيل عُبيَد الثقفي، وقيل أبو سفيان. ولدته أمه سميّة (جارية الحارث بن كلدة الثقفي)، واسلم في عهد أبي بكر، ولاّه معاوية بن أبي سفيان البصرة والكوفة وسائر العراق.
الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، 3 / 53.

(2) **معجم البلدان**، 1 / 434.

(3) ميكيل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام**، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص 568.

(4) العلوي، هادي: «**البصرة في ذاكرة الحضارة**»، ص 12.

(5) ميكيل ـ اندريه: م س، ص 568.

(6) الموسوي، مصطفى عباس: **العوامل التاريخية لنشأة وتطوّر المدن العربيّة الإسلاميّة**، ص 63 –64.

(7) الخوري، د. فؤاد إسحق: القبيلة والدولة في البحرين،ص 29.

(8) ميكيل، اندريه: **جغرافية دار الإسلام**، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني، ص 230.

العربيّة والفارسيّة، فبوساطة مينائها تدخل المؤثرات الفارسيّة إلى الحضارة العربيّة، من جوارٍ وتجارة وتبادل معرفي، وعادات وتقاليد. وبشكل عام كان لمنطقة الخليج العربي، بموانئها المهمّة: سيراف والبصرة ومسقط، دور مهمّ في تنشيط حركة المثاقفة الحضاريّة بين العرب وغيرهم من الشعوب، لأنّ هذه المنطقة «منطقة حدودية، و[هي] منطقة تأثير وتأثّر، ليس فقط بين العرب والفرس وإنّما أيضاً مع دول الجوار الأخرى الهنديّة والإفريقيّة. فقد شكّلت هذه المنطقة حلقة الوصل بين العرب والأقوام الأخرى، وبفضل التجار (...) انتشر الإسلام في السواحل الإفريقيّة والهنديّة وفي جزر أندونيسيا، كما تدفّق الأفارقة والهنود وغيرهم على الجزيرة العربيّة للحجّ وعلى الخليج للبحث عن اللؤلؤ والاتّجار. كما تمّ استيطان متبادل، واغتنت سائر القوميّات بتفاعلها مع بعضها»[1].

وتبدو البصرة في نصوص ألف ليلة وليلة فضاءً مهمّاً في الوحدات السرديّة،وإن لم تصل هذه المدينة إلى مكانة بغداد في الليالي، فإنّها تتفوّق على كل مدن العراق، وبلاد الشام الأخرى، وقد سحرت هذه المدينة المهمّة رواة الليالي فنسجوا. «حولها جميل الأخبار وظريفها»[2].

وهنا أستعرض في العنوان الآتي، أهمّ ملامح مدينة البصرة وأخبارها وحضارتها، وعلاقاتها السياسيّة والاجتماعيّة، كما صوّرتها حكايات ألف ليلة وليلة.

(1) النعيمي، عبد الرحمن محمد: **الصراع على الخليج العربي**، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الثانية، 1994 م، ص 14.

(2) عوّاد، ميخائيل: **ألف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر العباسي**، وزارة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى 1962 م، ص21.

البصرة في ألف ليلة وليلة

تشكّل البصرة أهمّية كبيرة في مدن ألف ليلة وليلة، لأنّها مفتاح مدن العراق، وبخاصة بغداد، صوب العالم، كونها ميناءً مهمّاً على الخليج العربيّ، إذ يتمّ من خلاله ارتحال السرد الحكائي صوب البلدان الأخرى، وبالتّالي يكون هذا الميناء مفتاحاً لتشكّل الحكايات الجديدة، ثمّ تشابكها وثرائها بالأبطال والأحداث الجديدة.

أمّا حكايات ألف ليلة وليلة التي احتفت بمدينة البصرة، ونقلت بعضاً من أخبار حكّامها ونسائها ومجتمعها، فهي الحكايات الآتية: حكاية «**الوزير نورالدين مع أخيه شمس الدين**»[1]، وهي حكاية داخلة ضمن حكاية. «**هرون الرشيد مع الصيّاد**»، والحكاية تجري حوادثها في مصر والبصرة، وحكاية «**علي نور الدين وأنيس الجليس**»[2]، وتبتدئ حوادثها بالبصرة لتنتهي في قصر الرشيد المسمّى قصر الفرجة ببغداد، وحكاية «**علي بن بكّار وشمس النهار**»[3]، وتجري أحداثها ببغداد، لكنّ أبطالها يرتحلون إلى البصرة، ثم يعودون إلى بغداد ثانية، وحكاية «**خالد بن عبد الله القسري أمير البصرة مع الشاب الجميل**»[4]، وكلّ حوادثها لا تتعدّى فضاء البصرة، ببيوتها وأزقّتها، وحكاية «**هرون الرشيد مع أبي محمد الكسلان**»[5]، إذ تبتدئ

(1) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 93.
(2) م ن، 1 / 183.
(3) م ن، 2 / 183.
(4) م ن، 3 / 5.
(5) م ن، 3 / 8.

حلقات السرد في بغداد، ثم ترتحل إلى البصرة، ثم تعود ثانية إلى بغداد، **وحكاية «بدور بنت محمد بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني»**[1]، وتقع حوادثها في البصرة، لكنّ الرّاوي ينقل هذه الحوادث ليسردها أمام الخليفة الرشيد في بغداد، وحكاية. **«هرون الرشيد مع الرجل الذي يطلب دواءً لعينه»**[2]، وبطلها شيخ من البصرة،وحكاية **«الزّاهد ابن هرون الرشيد»**[3]، وحوادثها تجري في البصرة، لكنّها تُروى في قصر الرشيد ببغداد، وحكايات **«السندباد البحري»**[4]، وحكاية **«الأصمعي مع الأخوات الشاعرات»**[5]، وكلّ حوادثها بالبصرة، لكنّها تُروى أمام هرون الرشيد ببغداد، وحكاية **«ضمرة بن المغيرة مع إحدى النساء الجميلات»**[6]، ويرويها النديم حسين الخليع لهرون الرشيد ببغداد، وحكاية **«حسن الصائغ البصري»**[7]، وتبتدئ الحكاية بأسواق البصرة، لكنّها تنتهي ببغداد، إذ يفكّ الرّاوي بعض حبكات السرد أمام زبيدة زوجة هرون الرشيد، وحكاية **«مالك بن دينار مع العبد ميمون»**، وكلّ حوادثها تظلّ أسيرة لفضاء البصرة، وأبطالها لا يغادرون البصرة. ويمرّ الرّاوي على مدينة البصرة في حكاية **«الحمّال والبنات»**[8]، باعتبارها طريق سفر مهمًا، بالإضافة إلى حكايات أخرى.

إنّ الحكايتين الوحيدتين اللتين لا تخرجان عن فضاء البصرة زماناً ومكاناً هما: حكاية **«خالد بن عبد الله القسري مع الشاب الجميل»**، وحكاية **«مالك بن دينار مع العبد ميمون»**، في حين أنّ بقية الحكايات التي ذكرت البصرة، ترتحل بأبطالها إلى بغداد المركز، وإلى مدن أخرى بعيدة، فقدر البصرة في الليالي أن تدور

(1) م ن، 3 / 59.
(2) م ن، 3 / 160.
(3) م ن، 178/3.
(4) م ن، من ص 389 من المجلد الثالث إلى ص 23 من المجلد الرابع.
(5) م ن، 4 / 96.
(6) م ن، 4 / 107.
(7) م ن، 4 / 245.
(8) م ن، 1 / 77.

في فلك بغداد المركز، وكأنّ الحكاية لا تأخذ أهميتها الفنيّة والجماليّة إلاّ بارتحال السرد إلى بغداد. وهنا يمكن القول: إنّ عدم استقلالية البصرة بحكاياتها، وعدم تفكيك حوافز السرد في فضاءات البصرة، راجع إلى فكرة المدينة المركز، وهيمنة هذا المركز السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة على بقية المدن الأخرى الأقلّ مركزيّة، كما ذكرنا سابقاً. فالأصمعي في حكايته مع «**الأخوات الشاعرات**»، ينقل ملامح الحركة الشعريّة الناشطة بالبصرة إلى بغداد، وحسين الخليع في حكايته مع إحدى الجواري الجميلات، ينقل إلى الخليفة هرون الرشيد أخبار نساء البصرة، الأديبات والعاشقات، وكيفية تعاملهنّ مع رجال البصرة الأدباء والظرفاء. لكنّ الرّواة في هذا الارتحال لا يسلبون من البصرة خصائصها الجماليّة، وشفافية سكانها، ورقّة نسائها. تقول سهير القلماوي[1] عن مدينة البصرة في ألف ليلة وليلة: «ولئن احتلّت بغداد الصدارة في الأخبار العربيّة، وفي تأثيرها في القصص الذي يذكر الرشيد خاصة (...)، [فـ] قد كانت هناك في أرض العراق مدينة فتنت القاصّ وكانت ألصق ببيئته وأشدّ تأثيراً في حياة أصحابها؛ تلك هي مدينة البصرة (...)، [التي كانت] موطن كثيرين من أبطال قصص الليالي وأخبارها».

ومن ملامح البصرة في حكايات ألف ليلة وليلة، أنّها بوّابة العراق التجارية صوب العالم الخارجي، فمنها يسافر التّجار إلى المدن البعيدة، حاملين بضائع العراق، وهي مفتاح للثروة والمال القادمين من أصقاع الأرض. فها هي الأخت الصغرى في حكاية «**الحمّال والبنات**»، تفتقر بعد أن استهلكت أختاها الكبيرتان معظم ثروتها، فتقرر السفر. ومن خلال ميناء البصرة تسافر مصطحبة تجارة، ثم ترجع بعد حين، وقد باعت هذه التجارة، وربحت أرباحاً كثيرة. تقول:[2] «ولم نزل على هذه الحالة [حالة الاستهلاك]، فأردت أن أجهّز لي مركباً إلى البصرة فجهّزت مركباً كبيرة وحملت فيها البضائع والمتاجر وما أحتاج إليه»..

(1) القلماوي، د. سهير: **ألف ليلة وليلة**، ص 231.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 78.

وميناء البصرة ميناءٌ كبيرٌ، يتّسع للسفن العظيمة التي تحتاج إليها تجارة المسافات البعيدة. فها هو السندباد البحري يبحر في إحدى هذه السفن، مصطحباً بضاعته النفيسة، يقول[1]: «واشتريت لي بضائع نفيسة فاخرة تصلح للبحر، وحملت حمولتي وسافرت من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة، فرأيت سفينة عظيمة فيها تجّار وأكابر ومعهم بضائع نفيسة».

وميناء البصرة ميناء مشهور بين الموانئ العالميّة، وتصل سمعته إلى أقاصي المدن الأسطوريّة والتخيّليّة التي كان يصل إليها السندباد. يقول السندباد[2]: «فسمعت بخبر جماعة من تلك المدينة [مدينة بعيدة جداً لا اسم لها] أنّهم جهّزوا لهم مركباً يريدون السفر به إلى نواحي البصرة».

وتبدو البصرة في الليالي مدينة التجّار الأثرياء، والتجارة النشيطة، ولا يفوقها في الثراء والتجارة إلاّ مدينة بغداد: «ويُحكى أنّه كان (...) رجل من التجّار مقيم بأرض البصرة.. وكان عنده مال كثير»[3]. وحركة التجارة النشيطة في البصرة تحتاج إلى مخازن كبيرة، تستوعب طموح هذه التجارة وازدهارها، ومن هنا فقد وُجِدت هذه المخازن التي تحتاج إلى محاسبين لضبط السيولة المالية، التي توفّرها حركة البيع والشراء. ففي حكاية «**أحد أولاد أهل النعم مع جاريته**»، يسافر الرجل الثري إلى البصرة، وهناك يدّعي أنّه رجل فقير، فيعرض عليه صاحب أحد المتاجر الكبيرة أن يشتغل في متجره محاسباً، ليضبط له حركة البيع والشراء: «فقال [صاحب المتجر] أتقيم عندي ولك في كل يوم نصف درهم وأكلك وكسوتك وتضبط لي حساب دكاني (...). وأقمت عنده وضبطت أمره ودبّرت له دخله وخرجه فلمّا كان بعد شهر رأى الرّجل دخله زائداً وخرجه ناقصاً»[4].

إنّ المظهر التجاري لمدينة البصرة في اللّيالي، يلتقي تاريخيّاً مع مظاهر النشاط

(1) م ن، 4 / 6.
(2) م ن، 4 / 12.
(3) م ن، 4 / 269.
(4) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 441.

التجاري الذي عرفته البصرة في العصر العباسيّ. ولأنّ هذا النشاط كان مزدهراً، وذائع الصيت، فإنّ ابن حوقل[1]، لم ير حاجة لإعادة ذكر ما في البصرة من تجارة واسعة مشهورة، أمّا المقدسي[2]، فقد ذكر من أنواع التجارة بالبصرة، تجارة التمور والحنّاء والخزّ. ويحتلّ تمر البصرة المرتبة الأولى بين التمور في الدولة الإسلاميّة[3]، وليمون البصرة لا نظير له في العالم الإسلاميّ[4]. وقد ساهمت الفوائد التي جنتها البصرة من تجارتها البعيدة في ازدهارها الذي وصلت إليه[5].

أمّا الملاحة البحرية فقد لعبت دوراً كبيراً في ثراء البصرة وازدهارها، إذ «اشتهر أهل البصرة (...) بالأسفار البحريّة حتى قالوا: «أبعد الناس نجعة في الكسب بصري»، وبالغ الواصفون في كثرة أنهارها وكثرة الزوارق فيها»[6].

ويتعاطف أحد الرّواة مع تجار البصرة،ويراهم مثالاً للأمانة. فهاهو التاجر البصري أبا المظفّر، يعطي لأبي محمد الكسلان كلّ أرباح أمواله، غير منقوصة. يقول هذا الرّاوي:[7] «فأمر عبيده [عبيد أبي المظفّر] أن يحضروا المال فحضروا به، فقال: يا ولدي لقد فتح الله عليك بهذا المال من ربح الخمسة دراهم. ثم حملوه في صناديق على رؤوسهم، وأعطاني مفاتيح تلك الصناديق. وقال لي: امض قدّام العبيد إلى دارك فإنّ هذا المال كله لك». ويعتبر الرّاوي أنّ أخلاقهم تجسّد كثيراً من القيم الجماليّة، فهم كرماء ورحماء، ومتعاطفون مع الفقراء، فالتّاجر البصري في حكاية «**أحد أولاد أهل النعم مع جاريته**»، يساعد الغريب الفقير القادم من بغداد، ويؤويه، ويزوّجه ابنته

(1) عن/ الخازن، د.وليم: الحضارة العباسيّة، ص 81.
وأخذ الخازن عن/ المسالك والممالك،ليدن، طبعة 1873 م،ص 161.

(2) عن/ الخازن، د. وليم: الحضارة العباسيّة، ص 181.
وأخذ الخازن عن / أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، طبعة 1977 م، ص 138.

(3) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، القسم الأول والقسم الثاني، ص 292 .

(4) م ن، ص 308.
وأخذ ميكيل من/ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ترجمة ج. بلد شينو، (اطروحة دكتوراه)، جامعة باريس الثالثة، 1978 م، ص7.

(5) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص 343 .

(6) أمين، د. أحمد: **هرون الرشيد**، ص 78.

(7) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 14.

ويشاركه في تجارته: «فأخبرته [أخبر التاجر] أنّي غريب فقير (...) فدعاني أن أتزوّج بابنته ويشاركني في الدكّان، فأجبته إلى ذلك ولزمت الدكان»[1]. على أنّه ينبغي القول إنّ كثيراً من رواة الحكايات لا يتعاطفون مع التجّار، بل يعتبرونهم طبقة دونية وجشعة، والذي يتعاطف مع التجّار هو راوٍ تاجر في حقيقة الأمر، فالرجل الفقير السابق الذي قدم إلى البصرة ووصف كرم تجّارها، هو في الأصل ذو أصول تجاريّة بغداديّة: «فقد ورث عن أبيه مالاً جزيلاً»[2]، قبل أن يفتقر.

وبالإضافة إلى ازدهار البصرة تجاريّاً، فهي تعرف المهن التي تنتمي إلى أصول صناعية. وتذكر الليالي أن البصرة تحتوي على محلاّت «النحّاسين والصاغة»، فبعد أن يموت أحد تجار البصرة، يترك لولديه أموالاً كثيرة، فيستثمرانها في صناعة النحاس وصياغة الذهب. يقول الرّاوي[3]: «وأخذ كلّ واحد منهما قسمه وفتحا لهما دكانين أحدهما نحّاس والثاني صائغ». ويبدو أنّ البصرة كانت تاريخيّاً «معدن اللآلئ والجواهر»[4]، ولذا فليس بمستبعد أن تكون في الليالي أرضاً للذهب، وصائغة له[5].

وتبدو البصرة في الليالي مليئة بالبساتين، التي يصفها الرّاوي «بجنان البصرة»[6]. ومن ملامح التخطيط الهندسيّ في البصرة، أنّ «فيها سبعين درباً طول كل درب سبعون فرسخاً»[7].

وإذا كانت البصرة في الليالي «هذا البحر المجهول الذي يمثّل أحلام الثراء

(1) م ن، 4 /441.
(2) م ن، 4 / 435.
(3) م ن، 4 / 246.
(4) ميكل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام**، الجزء الرابع، القسم الأول والثاني، ص 312.
(5) يبدو أن ثراء البصرة التجاري – تاريخيًّا – وكونها سوقاً للعمل والتجارة، ومعدنا للجواهر، أسهم في أن تظلّ بغداد وسامراء منتعشتين بارتكازهما على هذه المدينة.
م ن، ص 240.
(6) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 59.
(7) م ن، 3 / 59.

بغموضها وبعدها»[1]، فإنّها بالنسبة للأبطال التجّار المغامرين، ببحرها وبرّها، مدينة أليفة وحميمة، ومحطّة استراحة آمنة، يرخي الأبطال فيها سدول همومهم ومخاوفهم، فقد كانت بالنسبة للسندباد فضاءً جمالياً،يحطّ فيه رِحَاله بعد أهوال السفر، ليتأمّل ذاته، ويسترخي هادئاً لعدة أيام حتى يستعيد طمأنينته النفسيّة، تأهباً لاستنفار قدراته فيما بعد، واستهلاكها في ملذّات ولهو بغداد. يقول السندباد[2]: «ولم نزل مسافرين من بحر إلى بحر ومن جزيرة إلى جزيرة إلى أن وصلت بالسّلامة بإذن الله إلى مدينة البصرة. فطلعت من المركب، ولم أزل مقيماً بأرض البصرة أياماً ولياليَ».

ويستطيع السندباد أن يقيم بالبصرة، وأن يلهو مثله مثل كل الأبطال المغامرين والتجّار، فالبصرة مدينة النساء الجميلات، والجواري الأبكار، وهي فضاء أليف للّهو والطّرب، ويمكن أن تكون مثل بغداد في لهوها، فالنّاس فيها يقيمون حفلات اللهو على شاطئ البحر، وضفاف الأنهار.فعندما يشاهد أحد الأبطال البغداديين جماعة من البصرة، تخرج حاملة طعامها وشرابها، يسأل عن سرّ ذلك، فيقول له[3] أحد بقّالي البصرة: «هذا يوم المتنعمين، يخرج فيه أهل الطرب واللّعب والفتيان من ذوي النّعمة إلى شاطئ البحر يأكلون ويشربون بين الأشجار على نهر الأُبُلّة».

إنّ صورة خروج متنعمي البصرة إلى القصف واللّهو، خارج المدينة، ليست غريبة على بنية علاقات المدينة العربيّة الإسلاميّة وأفراحها في مسيرتها التاريخيّة، إذ عرفت المدينة الإسلاميّة كل أشكال اللهو والمتع، والاستمتاع بالحياة وأفراحها، «والحقّ أنّ الحياة الاجتماعيّة في المدينة الإسلاميّة، اتّسمت بتعدد وسائل التسلية والترويح عن النفس. ومن هذه الوسائل الخروج إلى المنتزهات والحدائق»[4]. وبالإضافة إلى الاحتفاء بيوم المتنعمين في البصرة، الذي ذكره الرّاوي في الحكاية، فقد عرفت مدن العراق في العصر العباسيّ، وبخاصة بغداد، احتفالات أخرى بأعياد

(1) القلماوي، د. سهير: **ألف ليلة وليلة**، ص 232.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 13. وكذلك 4 / 5.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 441.

(4) عاشور، د. سعيد عبد الفتاح: «الحياة الاجتماعيّة في المدينة الإسلاميّة «، **مجلة عالم الفكر**، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، أبريل، مايو، يونيو، 1980 م، ص 97.

كثيرة منها: عيد النيروز أو الرّبيع. وقد تكون هذه الاحتفالات من المؤثرات الفارسيّة الكثيرة[1]، التي دخلت على المدينة العربيّة الإسلاميّة، من خلال تفاعلاتها الثقافيّة والاجتماعيّة مع المدينة الفارسيّة.

ومن الملامح الاجتماعيّة للبصرة في حكايات الليالي، وجود النساء الوفيّات، إذ يقدّم ساردو حكايات البصرة صوراً جمالية لنساء البصرة، مغايرة لصور نساء القاهرة وبغداد ودمشق، اللواتي يصفهنّ الرّواة من دون خجل، بالمحتالات والزانيات والقوّادات والماكرات واللعوبات، وأن إبليس يخشاهنّ، ويحذر من مكايدهنّ الشّريرة. فنساء البصرة مخلصات لأحبائهنّ، ويدفعن الموت عنهم، ومستعدات أن يتعرضنّ للفضيحة أمام الأمير، إذا كان في ذلك نجاة للحبيب الوفي. ففي حكاية «**خالد بن عبد الله القسري مع الشاب الجميل**»، ترفع إحدى أسر البصرة دعوى أمام أمير البصرة، على شاب «ذي جمال باهر،وأدب ظاهر، وعقل وافر، وهو حسن الصورة طيّب الرّائحة، وعليه سكينة ووقار.»[2]، كما تقول الحكاية وتتهمه بالسرقة، لأنّها ضبطته متلبّساً بها، في منزلها. وعندما يرى الأمير خالد القسري هذا الشاب، يشكّ في صحة الادّعاء، ويسأل الشاب عن هذا الادّعاء، أمام أفراد الأسرة، فيؤكّد أنّه سرق، وأنّ هذه الأسرة صادقة في دعواها. وعندما يتقدّمون به ليقطعوا يده، تتقدّم إحدى النّساء الجميلات، وتنفرد بالأمير خالد، وتخبره: «بأنّ هذا الفتى عاشق لها وهي عاشقة له، وإنّما أراد زيارتها فتوجّه إلى دار أهلها ورمى حجراً في الدّار ليعلمها بمجيئه، فسمع أبوها وأخوها صوت الحجر فصعدوا إليه. فلمّا أحسّ بهم جمع قماش البيت كله وأراهم أنّه سارق، ستراً على معشوقته.»[3]. وإزاء موقف الشاب البصري النبيل، الذي يستعدّ لأن يضحي بيده أملاً في أن تظلّ صورة هذه المرأة، في العرف الاجتماعيّ، كما هي عليه من النقاء، تذهب المرأة إلى الأمير لكي تنقذ عشيقها، غير عابئة بالفضيحة.

(1) م ن، ص 100.
(2) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 6.
(3) م ن، 3 / 7.

ويوازي هذه الصورة الجمالية للمرأة، في الطرف الآخر، صورة الرجال الكرماء في مدينة البصرة، الذين لا يقلّون كرماً وخلقاً عن نسائها، فها هو أحد رجال البصرة يُكرم نور الدين القادم من مصر: «ثمّ إنّه أمر [أي الرجل] بوضع الخرج على البغلة والبساط والسجادة، وأخذ نور الدين معه إلى بيته وأنزله في مكان ظريف وأكرمه وأحسن إليه وأحبّه حبّاً شديداً»[1].

وبالإضافة إلى وفاء نساء البصرة، فإنّهنّ مثيرات وممتلئات بالقدرات الجماليّة الجنسية، مثلهنّ مثل كل أميرات ألف ليلة وليلة وجواريها. يصف حسن الخليع إحدى نساء البصرة المتألّقات، للخليفة هرون الرشيد قائلاً[2]: «وإذا بجارية أسيلة الخدّين عليها قميص جلّناري، قد غلبت شدة بياض يديها وحمرة خدّيها، قميصها يتلألأ ومن تحت القميص ثديان كرمّانتين وهي يا أمير المؤمنين متقلّدة بخرزة من الذهب الأحمر (...) ولها حاجبان مقرونان وأنف أقنى تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدّر! وقد غلب عليها الطيب وهي والهة حيرانة ذاهبة تروح وتجيء تخطو على أكباد محبّيها في مشيها،ولسيقانها أصوات خلاخلها».

يكشف المقطع السابق عن خيال الرّاوي الشعبيّ، الذي تعبّر عنه شخصية حسين الخليع، هذا الخيال الشبقيّ المحروم جنسيًّا في مجتمع طبقيّ يجعل النساء سلعـاً وإمـاء، لا يستطيع أن يصل إليها إلا الأمراء والملوك والتجّار والأثرياء. ومن دائرة حرمان الرّاوي وفقره، وشهوته لامتلاك النساء الجميلات، والذهب الذي صعب امتلاكه إلاّ من قبل الأثرياء، نجد أنّه يزيّن هذه المرأة بكل ما هو محروم منه، فخرزة الذهب الأحمر، والخلاخل، واللؤلؤ والدرّ، كلّها معطيات ماديّة، احتكرتها طبقة الملاّك والسلطة في الليالي، وحُرِم الفقراء منها. وقد شكّلت هذه المعطيات في الليالي هاجساً وحلماً وطموحاً بالنسبة للطبقات المهمَّشة إنسانياً واقتصادياً.يضاف إلى ذلك أنّ الرّاوي الشعبيّ لا يستطيع أن يقدّم لخليفة ملأ صيته الدنيا ـ هرون الرشيد ـ وعُرِف بعشقه للجمال والنساء، امرأة قبيحة، فالصّورة النسائية المتخيّلة

(1) م ن، 1 / 96.

(2) م ن، 4 / 107.

يجب أن تساير الوضع الطبقيّ والسياسيّ للمروي له، ولذا فإنّ الرّاوي الذي يعرف ما يسرّ أبطاله السلطويين قدّم امرأة عظيمة الجمال لرجل عظيم الهيبة والثراء. على أنّ سيرة هذه المرأة الجميلة المثيرة، هي وغيرها من نساء البصرة في الليالي، وفي علاقاتها مع الرجال ـ كما يقدّمها الرّواة ـ تخلو من أية مظاهر للخلاعة أو الفجور، أو ابتزاز الرجال مالياً، إذا ما قارنّاها بسير النساء والجواري في بغداد ودمشق والقاهرة، كما أشير سابقاً.

ولا ندري ما هو السبب الرّئيس الذي جعل الرّواة لا يذكرون أي مظهر من مظاهر فجور نساء البصرة وعربدتها، في حين أنّ البصرة ووفقاً للتركيبة الاجتماعيّة السائدة فيها، والعائدة لعدّة جنسيّات من حضارات مختلفة ـ ونظراً لانفتاحها المعرفي والتجاري على الحضارات الأخرى، باعتبارها ميناءً تجارياً مهمّاً ـ يمكن أن تكون مليئة بالفجور والمعاصي مثلها مثل بغداد أو دمشق أو القاهرة. فالمرأة في البصرة تعشق عشقاً عفيفاً، لكنّها في عشقها لا تطلب اللّذة المحرّمة، بل تطلبها لذة حلالاً، تضبطها قوانين الشرع الإسلاميّ، وهذا ما تشير إليه حكاية «**ضمرة بن المغيرة مع إحدى النساء الجميلات**»، فالمرأة الجميلة في هذه الحكاية، تعشق ضمرة دون أن تتهتك في عشقها، بل تُظهر له وفاءً ومحبة شديدين، آملة الزواج به[1]، وهي في عشقها تخاف الله في كل خطوة تخطوها[2].

ونلمس هذه الصورة الجماليّة لنساء البصرة في غير حكاية، ففي حكاية «**بدور بنت محمد بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني**»، يكشف السرد المقياس الجمالي لإحدى نساء البصرة[3]، ويُظهر السارد عفّة هذه المرأة وحياءها، إذ تقول للشيخ ابن منصور الذي يتجسس عليها: «يا شيخ أليس عندك حياء، وهل من شيب وعيب؟ فقلت لها [أي قال ابن منصور]: يا سيّدتي أمّا الشيب فقد عرفناه وأمّا العيب

(1) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 110.

(2) م ن، 4 / 111.

(3) يقول الراوي عن هذه المرأة:«بيضاء كأنّها البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر، بحاجبين مقرونين وجفنين ناعسين، ونهدين كرمانتين، ولها شفتان رقيقتان كأنهما اقحوانتان، وفم كأنه خاتم سليمان يلعب بعقل الناظم والناثر». ن، 3 / 60.

فما أظنّ أنّي أتيت بمعيب. فقالت (...) وأيّ عيب أكثر من وقوفك عند دارٍ غير دارك ونظرك حريماً غير حريمك»[1].

وعندما يجد الشيخ مخرجاً لحرجه، مؤكّداً أنّه رجل غريب عطشان، سرعان ما تكرمه المرأة، وتبدي لطفاً ونبلاً يليق بامرأة كريمة ـ يتعاطف معها السارد ـ واثقة بنفسها وقدراتها على احترام ذاتها والآخرين: «ثم نادت بعض جواريها (...) فجاءتني بكوزٍ من الذهب الأحمر مرصّع بالدّر والجوهر ملآن ماءً ممزوجاً بالمسك الأذفر، وهو مغطّى بمنديل من الحرير الأخضر»[2].

يبدو من خلال المقطع السابق، أنّ أداة السقاية تنمّ عن مستوى حضاري وجمالي، يعكس وضعاً مجتمعياً مزدهراً، من خلال منزل كل ما فيه أنيق ومريح. ومن إعجاب الرّاوي بأناقة هذه المرأة وجمالها، فإنّه يقدّم هذا الكوز الجميل الذي تضفي عليه المرأة لمساتها السحريّة، وتغطّيه بمنديل من الحرير الأخضر. وبطبيعة الحال، فإنّ هذه المرأة تنتمي إلى طبقة التجار الأثرياء، هذا إذا عرفنا أنّ والدها هو محمد بن علي الجوهري، الذي تحدّثت عنه حكايته في ألف ليلة وليلة، والموسومة بـ حكاية «**هرون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري**»[3]. وبدور هذه، وبالرّغم من ثرائها المالي الفاحش، فإنّها لا تتهتك، بل تعشق جبير بن عمير الشيباني عشقاً عفيفاً، هذا العشيق الذي يصفه الرّاوي بأنّه مثال للرجال الكرماء في مدينة البصرة، ومعروف بشهامته وعفّته[4].

ومن الملامح الجماليّة للحياة الثقافيّة والفكريّة بالبصرة، ملمح النساء الشاعرات الأديبات اللواتي يفقن الرجال ظرفاً وأدباً، ويتبارين في حفظ الشعر. ففي حكاية «**الأصمعي مع الأخوات الشاعرات الثلاث**»، يكشف فضاء الحكاية عن معرفة بنظم الشعر، فالأخوات الثلاث شاعرات موهوبات في نظم الشعر الغزليّ. تقول

(1) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 60.
(2) م ن، 3 / 60.
(3) **ألف ليلة وليلة**، 2 / 425.
(4) م ن، 63/2.

الأخـت الصغرى لأختيها: «تعالين نطرح ثلثمائة دينار، وكل واحدة منّا تقول بيتاً من الشعر فكلّ من قالت البيت الأعذب المليح، كانت الثلثمائة دينار لها». وبمصادفات ألف ليلة وليلة، يمرّ الأصمعي[1] أمام منزلهنّ، فيحتكمن إليه، فيحكم بتفوّق شاعرية الصغرى على أختيها، لبيت قالته:

«بنفسـي وأهلـي مـن أرى كل ليلـة ضجيعي ورّياه من المسـك أطيبا»[2]

ففي هذه الحكاية، يبدو كلّ أبطالها شعراء، أو يحبّون الشعر، ويهتمّون بالمعرفة اهتماماً كبيراً، فالأخوات شاعرات، والأصمعي ـ راوي الحكاية ـ هو الأديب والشاعر الذي ذاعت شهرته في أرجاء العراق والدولة الإسلاميّة، والمروي له هو الخليفة هرون الرشيد الذي تُنْقل إليه أخبار البصرة ـ عاشق الفن والأدب والجمال بامتياز، من بين خلفاء الليالي وملوكها جميعاً ـ.

ويشير السارد في هذه الحكاية إلى إتقان إحدى الفتيات لفنيّات الخطّ الجماليّة:

«فدفعت لي [إلى الأصمعي] ورقة فنظرت فيها خطّاً في نهاية الحسن، مستقيم الألفات مجوّف الهاءات مدوّر الواوات»[3]. ويبدو أنّ هذا الخطّ الجميل يلتقي، في درجة إتقانه وجماله، مع الخطّ الذي عرفته البصرة التاريخيّة، فسكان البصرة «استعملوا الخطّ وطلبوا صناعته واستحكم وبلغ (...) رتبة من الإتقان»[4].

وتشير حكاية «**بدور بنت محمد بن علي الجوهري مع جبير الشيباني**» إلى أنّ السيّدة بدور كانت تحفظ الكثير من الأبيات الشعريّة، وكانت ترسلها إلى حبيبها جبير الشيباني، تبيّن فيها مدى شوقها إليه[5]. على أنّ هذه الخلفيّة المعرفيّة بالشعر، عند نساء البصرة، في الليالي، هي مزيج من الشعر العربيّ الجاهليّ والإسلاميّ والأمويّ

(1) م ن، 4 / 97

(2) م ن، 4 / 98.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 98.

(4) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، 2 / 967.

(5) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 62.

والعباسيّ، أي أنّها من التراث الشعريّ الجمعيّ الذي يحفظه رواة الليالي المتعددون، وينقلونه إلى فضاء النصّ الحكائي. فالرّاوي يذكر مرّة أنّ السيدة بدور قالت شعراً، ونسبته إلى شاعر بعبارة: «فقد قال الشاعر»، دون أن تحدد اسم هـذا الشاعـر،[1] وفـي مرّة أخرى يقول عنها: «فكتبت هذه الأبيات»[2]. دون أن يحدّد قائلها. وهو يقدّم ـ أيضاً ـ حبيبها جبير الشيباني، على أنّه يحفظ الشعر العربيّ، وأنّ جواريه الحسان تحفظ الكثير من المقطوعات الشعريّة في الحبّ والغزل[3]

إنّ الفضاء المعرفي الثقافيّ لنساء البصرة ورجالها في الليالي، يستمدّ مرجعيته من فضاء معرفي تاريخيّ عرفته مدينة البصرة. فقد عُرِف عن هذا الفضاء التاريخيّ احتضانه للشعراء والفنانين، والمدارس والحركات الفكريّة: مدرسة البصرة النحويّة، وحركة المعتزلة[4] . فـ«في البصرة نشأ الاعتزال بعد أن مهّدت له القَدَريَّة[5] في الكوفة والشام.تمّ ذلك على يد واصل بن عطاء[6]. وقام عليه من بعده متكلمون من أبناء مدينته ارتبط بعضهم ببدايات الاعتزال وبعضهم بتطوّره ونضجه»[7].

(1) م ن، 3 / 61.

(2) م ن، 3 / 62.

(3) للاطلاع على الخطابات الشعريّة التي يمتلئ بها فضاء الحكاية تُرَاجع الصفحات: 260، 264، 266، 276، 268، 269، 270، من المجلد الثالث.

(4) المعتزلة: أهمّ فرقة من المتكلمين الذين يرون أن الإنسان حر: يفعل هذا أو يتجنب ذلك بمحض إرادته. ومن هنا فإنّ مسؤوليته عما يعمل. كما أنّه بلغ من تمجيدهم للعقل البشري اعتقادهم أنّ هذا العقل كان يستطيع أن يصل إلى أنّ هذا العالم من خلق إله واحد حتى لو لم تصله الشرائع السماوية وذلك بتأمّله في عجيب مخلوقات الله سبحانه وتعالى .فهم ينفون القدر وينـزّهون المولى عن التشبيه والزمان والمكان والحركة.
وهبة، د. مجدي ؛ المهندس، د. كامل: **معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب**، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة 1979 م، ص 204.

(5) القَدَريّة: هو مذهب في علم الكلام الإسلاميّ، يرى أصحابه أنّ الإنسان حر مختار في أفعاله وإلاّ لبَطُل الثواب والعقَاب. وكان على رأس هذا المذهب في العصر الأمويّ الحسن البصري، وقد انبثق منه مذهب الاعتزال.
م ن، ص159.

(6) واصل بن عطاء: (80 ـ 131 هـ / 700 ـ 748 م): رأس متكلمي المعتزلة، ولد بالمدينة وانتقل إلى البصرة حيث اتصل بالحسن البصري وعمرو بن عبيد. لُقّب بالغزّال لتصدّقه على فقيرات معامل الغزل.له «السبيل إلى معرفة الحق» و«الخطب في التوحيد والعدل».
المنجد في الأعلام، ص 740.

(7) العلوي، الهادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة»، ص 15.

وقد عُرِف عن هذا الفضاء احتضانه للنساء الأديبات الموصوفات بكثرة الرّواية والغناء في آن، ومنهنّ ـ على سبيل المثال ـ الجارية بَذْلَ، فقد كانت إحدى «المتقدّمات الموصوفات بكثرة الرّواية، [و] يقال:إنّها كانت تغني ثلاثين ألف صوت. ولها كتاب في الأغـــاني»[1].وترعـــرع في هذا الفضاء راوي الشعر حمّاد الرّاوية[2] (ت 155هـ/772 م).

وكانت البصرة في عهدها الأمويّ والعباسيّ مأوى الشعراء، فقد كان ذو الرّمّة (غيلان بن عقبة بن مسعود العدوي، ت117هـ/735 م).كثيراً ما يأتي ليقيم بها[3]. ونشأ فيها أبو نواس (الحسن بن هانئ، ت 198 هـ/814م). وكان الشاعران الفرزدق (همّام ابن غالب التميمي، ت110 هـ/728 م)، وجرير (ابن عطية بن حذيفة الخَطَفي، ت 110 هـ/728م)، يترددان إليها كثيراً، وقد دُفِن الفرزدق في مقابر بني تميم بالبصرة[4].

ومن شعرائها ـ أيضاً ـ عِمْران بن حطّان بن وائل (ت 84 هـ/703م)[5]، وأشجع ابن عمرو السُّلَمِيّ (ت 195 هـــ/811م)[6]، ومحمد بن ذؤيب العُماني (ت 228 هـ/843م)[7].

وأمام هذا الفضاء المعرفي التاريخيّ المزدهر شعراً وأدباً، وقف رواة ألف ليلة وليلة لينهلوا منه، وليضيفوا إلى نصوص الليالي بعضاً من قسماته ومعطياته، وليؤكّدوا أنّ صورة البصرة في الحكايات لا تتغاير عن صورتها التاريخيّة المزدهرة.

ومن ملامح التيارات المعرفيّة والفكريّة في البصرة، والتي يشير إليها رواة الليالي، بروز تيّار، أو نزعة معادية لحركة التجارة والرفاهيّة، واكتناز المال، وبذخ

(1) الأصفهاني، أبو الفرج: **الأغاني**، تحقيق علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة 1970 م / 1389هـ، الجزء السابع عشر، ص 20.
(2) م ن، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، 18 / 142.
(3) م ن، ص 5.
(4) م ن، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ومحمود محمد غنيم، طبعة 1973م / 1393 هـ، 21 / 389.
(5) الأصفهاني، أبو الفرج:**الأغاني**، 18 /109.
(6) م ن، 18 / 212.
(7) م ن، 18 / 318 .

السلطة وفجورها، وهي نزعة بعض الشخوص إلى الزّهد. وقد نشأ هذا التيّار كردّ فعل معادٍ لممارسات السلطة السياسيّة والاقتصاديّة في الفضاء الاجتماعيّ، وعلاقات هذه السلطة بالفقهيّ والدّيني، ومحاولتها تسخير هذا الفقهيّ والدّيني لمصلحتها، وابتعادها في آن عن الجوهر الجمالي الذي أتت به رسالة الإسلام. ومن أسباب نشوء هذا التيّار «انصراف الناس بالعراق في عصر الفتوح إلى المادة ومتاع الدّنيا، فعمّت هناك موجة واسعة من الزّهد في الدّنيا ونعيمها الفاني.»[1]. ففي حكاية «**الزّاهد ابن هرون الرشيد**»، يُبرز الرّاوي إلى أي مدى وصلت إليه العلاقة بين السلطة السياسيّة وبين الزّهاد. ففي هذه الحكاية، كان للخليفة هرون الرشيد ابن زاهد ـ لا يذكر الرّاوي اسماً له ـ وكان معادياً لأسلوب والده في ممارسة السلطة والبذخ، والانكباب على ملذّات الدّنيا، وقد ترك هذا الابن حياة البلاط ونزل البصرة، ليعمل مع «الفعلة في الطين،وكان لا يعمل في كل يوم إلا بدرهم ودانق. فيتقوّت بالدانق ويتصدّق بالدرهم»[2].

ويصوّر الرّاوي ملامح هذا الابن المليء زهداً ورفضاً لكلّ ملذّات الدّنيا، المنكبّ على عمله وصلاته بتفان قلّ نظيره، والذي يرفض أن يأخذ من ربّ عمله (أبي عامر البصري) أيّة زيادة عمّا اتفقا عليه: «ولم يزل يخدم [أي ابن الرشيد] إلى الليل فأعطيته درهمين، فلمّا رآهما قال: ما هذا؟ قلت: والله هذا بعض أجرتك لاجتهادك في خدمتي. فرمى بهما إليّ وقال: لا أريد زيادة على ما كان بيني وبينك. فرغّبته فلم أقدر عليه»[3].

ويجسّد الرّاوي المفارقة بين طبيعة تيّار الزّهد، وتيّار السلطة السياسيّة، من خلال أبيات يرسلها الابن الزّاهد، وهو على فراش الموت، إلى والده الرشيد ببغداد، مع أبي عامر البصري:

يـا والـدي لا تغتــرر بتنعّــم فالعمـر ينفـد والنعيـم يـزول

(1) وهبة، د. مجدي: **معجم مصطلحات الأدب**، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى 1974 م، ص 616.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 179.

(3) م ن، 3 / 180.

وإذا علمت بحال قوم ساءهم فاعلم بأنك عنهم مسؤول
وإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول[1]

إنّ الزّهد «طريقة في الحياة، ملامحها الأساسيّة هي التقشف البالغ، وأكبر رفض ممكن لمظاهر الرّاحة، طلباً لتحقيق مثل أعلى أخلاقي أو ديني سامٍ (...)، [وهو] شكل من أشكال الاحتجاج على ترف وعجز الطبقات الحاكمة.»[2]. وتنطبق الرؤية الفلسفيّة المعارضة هذه، على ابن الخليفة هرون الرشيد، الرافض لترف أبيه،والذي نزل البصرة احتجاجاً على سطوة أبيه في بلاطه وبين جواريه، ووجد فيها ملاذاً لرؤيته، وطموحاً للتّحرّر من ربقة المال وسلطته، وبطر الحكّام وعسفهم.

ويبدو أنّ لهذه الحكاية سنداً حقيقيّاً في تاريخ الدولة العباسيّة، لأنّ رواة الليالي استفادوا من كلّ ثقافات عصرهم ـ بما فيها التاريخ ـ والعصور التي سبقتهم. فالابن الذي لم يذكره راوي الحكاية، هو أحمد بن هرون الرشيد، والرّاوي في الأصل التاريخيّ هو عبد الله بن الفتوح. يقول صاحب (المنتظم)، نقلاً عن أبي القاسم الحريري عن غيره، وصولاً لابن الفتوح[3]: «خرجت يوماً أطلب رجلاً يرمّ لي شيئاً في الدّار، فذهبت، فأُشيرَ إلى رجل حسن الوجه بين يديه مزود وزنبيل، فقلت: تعمل لي؟ قال: نعم بدرهم ودانق». وتتناصّ الحكاية في اللّيالي، في معظم حوادثها، مع حكاية ابن الجوزي في كتابه المنتظم[4].

ومن مظاهر انتشار تيّار الزّهد والصوفيّة في مدينة البصرة، ما يرويه الرّاوي

(1) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 181.

(2) روزنتال، م؛ يودين، ب: **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة السادسة، تشرين الأول/ أكتوبر، 1987م، ص 236.

(3) عن/ الموسوي، د. محسن جاسم: «صيغ الكلام وأوجه الكتابة في ألف ليلة وليلة»، **مجلة فصول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع 1994م، ص 42.
وأخذ الموسوي عن / ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1992م، الجزء التاسع، ص 93.

(4) لمزيد من الاطلاع، تقارن الحكاية في **ألف ليلة وليلة**، المجلد الثالث، من ص 178 إلى ص 183، بالحكاية في كتاب: المنتظم، الجزء التاسع، من ص 93 إلى ص95. وفي بحث الموسوي السابق، ص 42 – 43.

في حكاية «**مالك بن دينار والعبد ميمون**»، إذ يقول[1]: «انحبس عنّا المطر بالبصرة، فخرجنا نستسقي مراراً فلم نر أثر الإجابة».

ويخرج كبار علماء البصرة وسادتها إلى المسجد، ليقيموا صلاة الاستسقاء، لكنّ المطر يظلّ منحبساً، فبينما هم أمام المسجد، وإذا «بأسود مليح الوجه رقيق الساقين عظيم البطن قد أقبل عليه مئزر من صوف، إذا قوّم جميع ما كان عليه لا يساوي درهمين فجاء بماء فتوضّأ ثم أتى المحراب فصلّى ركعتين خفيفتين كان قيامه وركوعه وسجوده فيهما سواء ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيّدي ومولاي (...) أنفد ما عندك أم فنيت خزائن ملكك، أقسمت عليك بحبّك لي ألاّ سقيتنا غيثك الساعة ؟ فما تمّ الكلام حتى تغيّمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب. ولم نخرج من المُصَلّى إلاّ ونحن نخوض في الماء للركب»[2].

وبطبيعة الحال لا تخلو حادثة إسقاط المطر من تخيّلات وهميّة يؤمن بها راوي الحكاية. فالرّاوي مؤدلج مع طبقة الزّهاد، ضدّ طبقات المجتمع، بفقهائها وعلمائها، لأنّ الكلّ الفقهيّ لمدينة البصرة يجتمع في المسجد لصلاة الاستسقاء، فلا تجيبهم العناية الإلهيّة، في حين أنّها سرعان ما تستجيب لدعاء عبد بسيط، وتسقط له المطر. ولا تخلو هذه الرؤية من إيديولوجيا واضحة معادية لطبقة السلطة السياسيّة، والسلطة الفقهيّة والدّينيّة في آن، لأنّ دعاء هاتين السلطتين غير مستجاب، في حين أنّ دعوة العبد سرعان ما تُستجاب. ومن خلال إيمان الرّاوي بأنّ التفكير الزّهدي والصوفي هو الحل الأمثل لصلاح الأمة، وهو البديل من السياسيّ، ومن الفقهيّ المرتبط به، فإنّه يعطي هذا الزّاهد مكانة خاصة عند ربّه تفوق مكانة جميع سكان البصرة، فبدعائه الفردي يسقط المطر، في حين أنّ دعاء الجماعة (السياسيّة والدّينية) كلّه هباء لا قيمة له.

ويعطي الرّاوي هذه المكانة المتميّزة أيضاً للزّاهد ابن هرون الرشيد، إذ يضفي عليه قدرات غيبيّة خارقة متّصلة بحبل السماء، تعجز عنها جميع التيّارات

(1) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 425.

(2) م ن، 4 / 426.

الفقهيّة والمذهبيّة، فعندما يقول له والده الرشيد[1]: «لقد فضحتني بما أنت عليه»، أي في إعراضه عن الدّنيا، وسلوكه طريقة الزّهاد، ووضعه «على جسده جبّة صوف وعلى رأسه مئزر صوف»[2]، فإنّ الابن الزّاهد يثبت لوالده السياسيّ، أمير المؤمنين، أنّه بكل أُبّهته وعظمته، وسلطاته المطلقة، عاجز عن أن يكون قريباً من الله، في حين أنّه وهو المستهجنة طريقته وسلوكه في علاقته مع ربّه، قادر على أن يتجاوز السياسيّ، ويضع مشروعاً بديلاً من مشروعه، ومن خلال هذا البديل يستطيع الاقتراب إلى ربّه، أكثر من قدرة هذا السياسيّ. يقول الرّاوي[3]: «فنظر إليه ولم يجبه [إلى أبيه]، ثمّ نظر إلى طائر على شرفة من شرفات القصر، فقال له: أيّها الطائر بحقّ الذي خلقك أن تسقط على يدي. فانقضّ الطائر على يد الغلام ثم قال له: ارجع إلى موضعك فرجع إلى موضعه. ثم قال له: اسقط على يد أمير المؤمنين فأبى أن يسقط على يده».

لقد وعى الزّاهد في ألف ليلة وليلة انحرافات السياسيّ وخروقاته الكثيرة للقوانين الفقهيّة والشرعية، وتهالكه على لذائذ الدّنيا، وابتعاده عن إقامة الحقّ والعدل في مجتمعه، فنفر منه، واعتبر أن الاقتراب منه ثُلْمَة في دينه، وابتعاد عن مرضاة الله. وبهذا المنحى تسجّل المصادر التاريخيّة بعضاً من أخبار الزّهاد وعلاقتهم برجال السياسة، فيذكر ابن عبد ربّه الأندلسي[4] أنّ الخليفة العباسيّ أبا جعفر المنصور لقي:

«سفيان الثوريّ[5] في الطواف، وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟

(1) **ألف ليلة وليلة**، 3 / 179.

(2) م ن، 3 / 178.

(3) م ن، 3 / 179.

(4) العقد الفريد، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية 1981 م، الجزء العاشر، ص 54.

(5) سفيان الثّوري: (سفيان بن سعيد بن مسروق الثّوري، 97 – 161 هـ / 716 – 778 م): كان سيّد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسيّ على أن يلي الحكم، فأبى. وخرج من الكوفة (سنة 144 هـ) فسكن مكّة والمدينة. ثم طلبه المهدي، فتوارى. وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً. الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، 3 / 104.

قال: لا، ولكنّك قبضت عليّ قَبْضة جبّار.

قال: عِظْني أبا عبد الله.

قال: وما عملتَ فيما عَلِمت فأعِظك فيما جهِلت؟

قال: فما يمنعك أن تأتينا؟

قال: إنّ الله نهى عنكم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾.

فمسح أبو جعفر يده به ثمّ التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحَبّ إلى العلماء فلقَطوا إلاّ ما كان من سفيان فإنّه أعيانا فراراً».

ومن الملامح السياسيّة للبصرة في ألف ليلة وليلة أنّها محكومة بطغمة من الحكّام والوزراء،الذين يعيثون فيها بطشاً بمناوئيهم،وتشريداً لهم، فلقد «استأثرت البصرة [في ألف ليلة وليلة] بالولاة المتجبّرين والحكّام الذين لا يبالون بالعدل أو الرّعية »[1]. ونلمس في حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدّين**»، التي تجري حوادثها في مصر والبصرة حالات الصراع السياسيّ بين نظام وزير البصرة المتوفى (نور الدين)، وبين نظام الوزير الجديد (لا يذكر الرّاوي اسماً له)، إذ يستنفر الوزير الجديد كل أحقاده السياسيّة،مرتدياً جبّة الحاكم الظالم، ليحرّض سلطان البصرة (لا يذكر الرّاوي اسماً له)، ضد وزيره السّابق حسن بدر الدين بن نور الدين. ولا يذكر الرّاوي أي سبب يدعو الوزير الجديد لأن ينتقم من ابن الوزير القديم، ويغتصب أموال أبيه وأملاكه، على الرّغم من أنّه لا يزال غارقاً في أحزانه على أبيه.تقول الحكاية[2] : «وولّى السلطان وزيراً جديداً مكانه، وأمره أن يختم على أماكن نور الدّين وعلى عماراته وعلى أملاكه، فنزل الوزير الجديد وأخذ الحجّاب وتوّجهوا إلى بيت الوزير نور الدّين ليختموا عليه، ويقبضوا على ولده حسن بدر الدين، ويطلعوا به إلى السلطان ليعمل فيه ما يقتضي رأيه». وكان في نيّة السلطان الذي يصوّره الرّاوي وقد

(1) القلماوي، د.سهير: **ألف ليلة وليلة**، ص 233.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 101.

ارتدى جبّة السفّاح، أن يقتل حسن بدر الدّين[1]، فما كان من ابن الوزير إلّا وأن فرّ من البصرة إلى «غير مقصد»[2].

ونشاهد وجه الوزير الظّالم في البصرة،وذلك في حكاية «**علي نور الدّين وأنيس الجليس**». فقد أمعن الوزير المعين بن ساوي ـ في الحكاية ـ فساداً، ونهباً لأموال الناس في البصرة، بعد أن مات زميله في الوزارة الوزير الفضل بن خاقان[3]، وبعد أن أصبحت مقاليد الوزارتين بيديه، سلك مسلك النميمة، واغتصب أملاك رعاياه في البصرة[4]. وفي هذه الحكاية يضطرّ علي نور الدّين ابن الوزير المتوفَّى، أن يذهب بجاريته الجميلة أنيس الجليس، لكي يبيعها في سوق النخّاسين، بعد أن فقد كلّ أمواله على ندمائه في الطّعام والشراب واللهو[5]. وبمصادفات اللّيالي الكثيرة ينزل الوزير المعين بن ساوي إلى سوق الرّقيق ويشاهد الجارية أنيس الجليس، وما إن يشاهدها حتى يحتال لكي يأخذها غصباً. ويوضّح الدلاّل في سوق الجواري لصاحب الجارية علي نور الدين، طريقة هذا الوزير في النصب والاحتيال قائلاً: «إنّه من ظلمه سوف يكتب لك ورقة حوالة على بعض عملائه ثم يرسل إليهم ويقول: لا تعطوه شيئاً، فكلّما ذهبت إليهم لتطالبهم يقولون في غدٍ نعطيك ولا يزالون يوعدونك ويخلفون يوماً بعد يوم وأنت عزيز النفس، وبعد أن يضجّوا من مطالبتك إياهم يقولون أعطنا ورقة الحوالة فإذا أخذوا الورقة قطعوها وراح عليك ثمن الجارية»[6].

وبعد أن يكتشف علي نور الدين هذه الحيلة يرفض بيع الجارية. وسيكون هذا الرفض، في ما بعد، سبباً لاستنفار أحقاد الوزير المعين بن ساوي على علي نور الدين، والذهاب إلى مولاه السلطان محمد بن سليمان الزّيني مدّعياً كاذباً أنّه كان

(1) م ن، 1 / 101.
(2) م ن، 1 / 101.
(3) م ن، 1 / 189.
(4) يقول الراوي عن هذا الوزير: كان «يكره الناس ولا يحبّ الخير وكان محضر سوء. وقد كان كما قيل:
«دع اللئام بني اللئام فإنّما تلد اللئام بنو اللئام لئاما»
ألف ليلة وليلة، 1 / 183.
(5) م ن، 1 / 191.
(6) **ألف ليلة وليلة**، 1 / 195.

يريد شراء جارية جميلة له، لكنّ ابن وزيره السابق ضربه وشتمه[1]، وفقاً لما تقتضيه التركيبة المعرفيّة والسلوكيّة لحكّام ألف ليلة وليلة وسلاطينها، القائمة على الحكم الفردي المطلق، الأناني المستأثر بكل خيرات بلدانهم ونسائها واقتصادها، سيستنفر السلطان الزّيني أحقاده على علي نور الدّين، لرفضه بيع الجاريه. تقول الحكاية[2]: «قام عرق الغضب بين عينيه، ثم التفت إلى من يحضر به من أرباب الدّولة وإذا بأربعين من ضاربي السيف وقفوا بين يديه، فقال لهم انزلوا في هذه السّاعة إلى دار علي بن خاقان وانهبوها واهدموها وائتوني به وبالجارية مكتّفين واسحبوهما على وجوههما وائتوا بهما بين يديّ».

إنّ حكّام البصرة ليسوا الظّلمة والطّغاة الوحيدين في ليالي ألف ليلة وليلة، بل تمتلئ كلّ مدن ألف ليلة وليلة بالحكّام والولاة الظّلمة، لكنّ الرّواة لا يجعلونهم يستكملون مسيرة ظلمهم، فهناك إمّا هازم اللذّات ومفرّق الجماعات، بتعبير شهرزاد، الذي ينهي حالة الظلم، وإمّا ظالم آخر ينهي حياتهم انتقاماً، وفقاً لنسق الظلم الذي يستمرّ مع استمرار الحكايات، أو عادل آخر يحقق تزامن ثنائية العدل والظّلم، استكمالاً لفكّ عقدة الحكايات في ما بعد.

هذه هي أهمّ ملامح مدينة البصرة في الليالي، والتي هي في التاريخ «أعزّ مدن العالم قوّةً وثــروةً»[3]، ومن أكثرها تطوّراً معرفيّاً، وتأليفاً للكتب، ووضعاً لقواعد النحو[4]. ومن أنشطها تجارة خارجيّة بعيدة ومزدهرة[5]. وهي الغنيّة بمياهها

(1) م ن، 1 / 197.

(2) م ن، 1 / 197 – 198.

ويتوالى السرد في الحكاية ليرتحل إلى بغداد (دار السلام)، حاملاً أنيس الجليس وعلي نور الدين، وهناك في بغداد ينصفهما الخليفة هرون الرشيد، وينتقم لهما من الوزير المعين بن ساوي، ومن سلطان البصرة محمد بن سليمان الزيني.

م ن، 1 / 216.

(3) العشّ، د. يوسف: **تاريخ عصر الخلافة العباسيّة**، راجعه ونقّحه د. محمد أبو الفرج العشّ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 1402 هـ / 1982 م، ص 127.

(4) م ن، ص 236.

(5) ميكيل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام**، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، الجزء الرابع، ص 343.

وأنهارها،والأرض التي «لا يدخلها عقرب ولا حيّة»، كما يذكر المسعودي[1].وهي المدينة التي كانت، قبل أن تشتعل فيها ثورة الزنج بقيادة علي بن محمد[2] في السابع من رمضان 255 هـ/869 م، قبّة الإسلام، وفرضة البلدان، ومدينة السفن التجارية الكبيرة، والقصور والدور والأسواق المزدحمة على حدّ أوصاف ابن الرومي[3] (علي ابن العباس، ت 283 هـ/896 م)، حين يقول في رثائها:

لهف نفسي عليك يا قبّة الإسـ لام لهفاً يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فُرْضَة البلـ دان[4] لهفاً يبقى على الأعوام.

إلى أن يقول:

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها أين أسواقها ذوات الزّحام؟
أين فلك منها وفلك إليها منشآت في البحر كالأعلام؟
أين تلك القصور والدور فيها أين ذاك البنيان ذو الإحكام؟.

إنّ بغداد والبصرة ليستا المدينتين العراقيتين الوحيدتين في حكايات ألف ليلة وليلة، بل لقد ذكرت الحكايات مدناً أخرى، لكنّها لا تشكّل أهمّية من حيث مركزيّة الحدث، أو ارتحالات السرد وحركة أبطاله، وتنامي الفضاء المكاني، بعلاقاته السوسيولوجية، والمعرفيّة، وتركيبته السلطويّة، لأنّها ليست إلا محطّات عابرة، يمرّ

(1) عن / السابق، ص 518.

(2) علي بن محمد: (صاحب الزنج، ...- 270 هـ / ... - 883 م): ثائر قاد ثورة الزنج على العباسيّين وأقام شبه نظام عسكري اشتراكي. شيّد مدينتي المختارة والمنيعة سنة 869 م، واحتلّ جنوبي العراق وأحرق البصرة.عجزت الخلافة في بغداد عن قهره مدة 14 عامًا حتى أنزل به «الموفق بالله» في أيام «المعتمد على الله» ابن المتوكل، الضربة القاضية.
المنجد في الأعلام، ص 475.

(3) **ديوان ابن الرومي**، شرح: محمد شريف سليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثاني، ص وكذلك: الملوحي، عبد المعين: **مواقف إنسانيّة في الشعر العربيّ**، دار الحضارة الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1992 م، ص 49 – 50.

(4) فرضة البلدان: الفرضة من النهر: الثُلْمة ينحدر منها الماء وتصعد منها السفن، ويُسْتقى منها، ومن البحر محطّ السفن.
المنجد في اللغة، مادة: فرض، ص 577.

فيها الأبطال مروراً عابراً، ودون توقف. هذا إذا استثنينا مدينة الكوفة، ونساءها العجائز المحتالات، ورجال سلطتها النصّابين والظّلمة، وجواريها المتألّقات سحراً وجمالاً، وأصواتاً عذبة[1].

أمّا المدن المحطّات العابرة في حركة السّرد، فهي: الموصل[2]، والأنبار[3]، وواسط[4]. ويشير الرّاوي إشارات سريعة إلى البلد الكبير العراق[5]، دون أن يذكر أيّة مدينة في هذه الإشارات.

وتبقى بغداد درّة مدن العراق وسيّدتها، وهي أهمّ فضاء مكانيّ وجماليّ وحميم تتحرّك فيه الشخوص، وتحلم، وتبكي وتعاني. وكونها حميمة بالنسبة للمحبّين والأثرياء، والتجّار ورجال السلطة، والجواري الجميلات، وعاشقي الخمور والنساء، لا يعني أنّها بالنسبة للطبقات الفقيرة تشكّل هذا الفضاء الآسر، بل هي فضاء للفقر والاغتراب والوحشة والحزن والخوف من كابوس السلطة السياسيّة، كم تشير إليه حكاية «**السندباد البحري**»، وحكاية «**غانم بن أيوب وقوت القلوب**».

(1) لمزيد من الاطلاع تراجع «حكاية نعمة ونعم» في المجلد الثاني من ص 323 إلى ص 342.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 1/ 145.

ويقول ياقوت الحموي عن الموصل: «إحدى قواعد بلاد الإسلام، وهي محطّ رحال الركبان ومنها يُقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق ومفتاح خراسان، ومنها يُقصد إلى أذربيجان وسمّيت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات، وهي مدينة قديمة على طرف دجلة،ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى.».

معجم البلدان، 5 / 223.

(3) **ألف ليلة وليلة** 2/ 244.

والأنبار: مدينة على الفرات في غربي بغداد. وبينهما عشرة فراسخ، وأول من عمّرها سابور بن هُرمز، ثمّ جدّدها أبو العبّاس السّفاح أول خلفاء بني العبّاس، وبنى بها قصوراً، وأقام بها إلى أن مات.

(4) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 437.

وسمّيت واسط، لأنّها متوسطة بين البصرة والكوفة، لأنّ منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخاً.

معجم البلدان، 5 / 347.

(5) **ألف ليلة وليلة**، 4 / 39، 48.

الفصل الثاني

المدن شبيهة بالمركزية في ألف ليلة وليلة
(مدن مصر وبلاد الشام)

مدخل

1 ـ القاهرة

أ ـ لمحة تاريخيّة عن القاهرة.

ب ـ القاهرة في ألف ليلة وليلة.

2 ـ دمشق

أ ـ لمحة تاريخيّة عن دمشق.

ب ـ دمشق في ألف ليلة وليلة.

3 ـ ملحق: المدن الثانوية في ألف ليلة وليلة

مدخل

إنّ أهمّ المدن التي ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة هي المدن الحضريّة القريبة من البحار والأنهار، والمليئة بالعمران والبساتين، والحمّامات والأسواق والخانات التجاريّة. وحكايات ألف ليلة وليلة هي حكايات المدينة العربيّة الإسلاميّة في أوج نموّها المعرفيّ والحضاريّ في العصر الوسيط، ومثاقفتها وعلاقاتها مع المدن الأخرى، والحضارات الأخرى الهنديّة والفارسيّة والصينيّة، وإن ابتعدت هذه الحكايات عن المدن المزدهرة، فإنّها لا تبتعد عن بنية هذه المدن إلاّ لتنتقل إلى مدن أسطورية وجزر تبدو غاية في الجمال، وكأنها الصورة النديّة لهذه المدن. يقول أحد الرواة واصفاً إحدى هذه الجزر: «فنظروا إلى تلك الجزيرة فرأوا فيها أشجاراً وأنهاراً وثماراً وبساتين، وفيها من جميع الفواكه والأنهار من تحت تلك الأشجار، وهي كأنّها الجنّة»[1] وعموماً تبدو المدن التي يصل إليها الرّواة كأنّها جنان الأرض، من حيث التشكيل العمراني، ونشاط الحركة التجاريّة، وجمال النساء اللاتي يصفهنّ الرّواة بالأقمار المشعّة».

غير أنّ المدن التي وصفتها حكايات ألف ليلة وليلة ليست مدناً مدينية تماماً، بل تبدو علاقاتها علاقات بدويّة، على الرغم من استهجان الراوي المديني لعلاقات البادية، فحتى بغداد المركزيّة أو البصرة المدينة الحضريّة المهمّة في الليالي لا تخلو تماماً من علاقات البداوة وقيمها.

(1) **ألف ليلة وليلة**، 327/3.

لقد كان رواة ألف ليلة وليلة وَلِعين بوصف المدن الكبيرة والارتحال إليها، في حين أنّ المدن الصغيرة لم تكن إلاّ محطّات سفر، يرتاح فيها الأبطال والتجّار، أو طرقاً إجبارية يضطرّ السرد للمرور بها للوصول إلى المدينة المركز الحلم، التي تحتضن الأبطال وتعطيهم المال والشهرة والنساء، وكل ما لذّ وطاب.

لبغداد والبصرة الصدارة في الليالي، وتأتي بعدها من حيث الأهميّة القاهرة ودمشق، هاتان المدينتان المهمّتان اللتان لعبتا أدواراً سياسيّة وتجاريّة مهمّة في الدولة العربية الإسلاميّة. فدمشق كانت عاصمة للدولة العربية ـ أيام الأمويّين ـ التي بسطت هيبتها على جميع بلاد أواسط آسية (في التركستان)، وغربيّ الهند (باكستان اليوم)، وعلى شمال القارة الأفريقية، وعلى شبه جزيرة إيبيرية (إسبانية والبرتغال)، حتى أنّ الزحف العربي اجتاز جبال البرانس إلى فرنسة، ووصل إلى مدينة تور في الشمال الغربي من فرنسة.[1]

أمّا القاهرة فقد «مثّلت عاصمة المدنيّة» في ليالي ألف ليلة، إذ كانت «مصر تجذب التجار لا ليثروا من التجارة فيها ولكن ليروا مظاهر المدنيّة والخصب والثراء»[2]. إلاّ أنّ مركزيّة القاهرة في الليالي أهمّ بكثير من دمشق، على الرّغم من أنّ دمشق في التاريخ كانت عاصمة للخلافة الإسلاميّة، وكانت أكثر مركزية من القاهرة. ولا ندري ما السبب الرئيس الذي جعل الرّواة يحتفون بالقاهرة أكثر من دمشق، إلاّ أنّه يمكن القول: إنّ «الإضافات الأخيرة التي أُضيفت إلى هذا الكتاب [كتاب ألف ليلة وليلة] الضخم حدثت في مصر، والراجح أنّ ذلك كان في أواخر عهد المماليك[3]، ولعلها وُضِعت في القاهرة (...) وهذا الرأي يمكن استنتاجه (...) من لغة هذا الجزء

(1) حتي، فيليب: **الإسلام منهج حياة**، ص-171 172.

(2) القلماوي، د.سهير: **ألف ليلة وليلة**، ص232.

(3) يؤكد أحمد حسن الزيّات أنّ حكايات ألف ليلة وليلة جُمِعت بصيغتها النهائية بين عامي 923 – 933 هـ، وهما يوافقان عامي 1517 – 1526م.
ينظر: «ألف ليلة وليلة» في: «ألف ليلة وليلة»، كتب **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ترجمة إبراهيم خورشيد، ود.عبد الحميد يونس، وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني/مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى 1982م، الكتاب العاشر، ص91 .

[الإضافات] فهي تشبه اللغة العربية في عصورها المتأخّرة وتقرب في كثير من الوجوه من اللغة المصرية الدارجة»[1]. ولأنّ هذه الإضافات حدثت في القاهرة، فقد كان نصيب القاهرة في هذه الحكايات أكبر من نصيب دمشق، لأنّه من الطبيعي أن يسجّل الرواة أخبار مدينتهم قبل المدن الأخرى، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ ثمّة إشارات غير قليلة في الليالي إلى أهمية دمشق ومركزيتها أيام الدولة الأمويّة، وهذه الإشارات تجعلها تتفوق على مدن أخرى كثيرة، ومنها: الكوفة والقدس والإسكندرية وحلب وصنعاء وفاس، وغيرها من المدن العربية والأجنبيّة الأخرى الواردة في الليالي، والتي لا تتعدّى أن تكون محطات لاستراحات قصيرة جداً.

ويُلاحظ أنّ حكايات القاهرة لا تنتمي تحديداً إلى فضاءات القاهرة، بل إنّ الرّواة كانوا يعرفون أهمية بغداد المركز، ولذا فقد بدأوا بسرد الحكاية من القاهرة، ثم ارتحل أبطالهم مع ارتحال السرد إلى بغداد المركز. وهكذا تنتهي بعض حكايات (القاهرة) في بغداد، كحكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»، وحكاية «**علي الزيبق المصري**»، وحكاية «**علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد**».

وقد اعتبر الدّارسون أنّ الحكايات المصرية أضافها رواة محترفون إلى كتاب ألف ليلة وليلة، وقد عمل هؤلاء الرّواة على تضخيم حجم الكتاب بقصص عربيّة فيها الكثير من التقاليد الإسلاميّة، والأساطير الفرعونيّة والسير اليهوديّة في آن[2]، واعتبروا أنّ هذه الحكايات مرّت في ثلاثة أطوار:

1 ـ الطور الفاطمي: وفيه رُوِيت حكايات متأثّرة بالطلاسم والسحر والجن.

2 ـ الطور الأيوّبي: وفيه رويت قصص البطولة والحروب.

3 ـ الطور المملوكي: وتسجّل حكايات هذا الطور أخبار المدن والشطّار.[3]

ولم تسهم الإضافات الأخيرة إلى كتاب ألف ليلة وليلة، من قبل الرّواة المصريين، في ترجيح كفّة القاهرة على بغداد، لأنّ بغداد تمثّل الكلّ الحضاريّ

(1) ماكدونالد، د.ب: «ألف ليلة وليلة»، في: «**ألف ليلة وليلة**»، م ن، ص31.

(2) طرشونة، د.محمود: **مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة**، ص95.

(3) م ن، ص95

والمعرفيّ المزدهر للدولة الإسلاميّة، ولأنّها تتربّع على عرش المجد السياسيّ في التوسّع والنفوذ والقوّة، يضاف إلى ذلك «أنّ القصاص المصري إذا تحدّث عن مصر ـ وهو منها وفيها ـ تحدّث عمّا يرى، وعبّر عمّا يسمع (...) أمّا إذا تكلم عن بغداد فإنما يتأثّر بعوامل أربعة: يتأثّر بما وُضِع من الأقاصيص الجميلة في بغداد، ويتأثّر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبّهة الخلافة، ويتأثّر بما ركّب الله في طباع الناس من تقديس الماضي، وتعظيم البعيد، ويتأثّر بجهله أحداث التاريخ وتطوّر الأمم، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت «الرشيد» ومصرع «بغداد» ونكبة المجد الأثيل»[1].

ومن البديهي أن نقول إنّ بغداد المركزيّة في الليالي، والأولى في الحضارة العربية الإسلاميّة، في العهد العباسيّ، تتفوّق على دمشق، لا من حيث عدد الحكايات فحسب، بل من مستويات عديدة أخرى، كنموّ الأحداث وتشعبها، وحركة الأبطال، وحركة الوحدات السرديّة منها وإليها، وتشعب الملامح الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة التي امتازت بها بغداد، وتعدّد الفضاءات المكانيّة وأهميّتها في بناء حكايات بغداد، وقدرة بغداد هذه المدينة المنفتحة حضاريّاً على استيعاب الأقوام والشعوب ومن جنسيّات مختلفة، وعلى التفاعل معها، واحتضانها.

وقد أسهم انزياح دمشق عن مركزيّتها بعد أفول الدولة الأمويّة، في تقليل أهميتها في حكايات ألف ليلة وليلة عن أهميّة بغداد، وانزياحها عن أن تكون مركزيّة في هذه الحكايات، هذا إذا عرفنا أنّ معظم رواة حكايات الليالي في جزئها العربي، وفي طبقتها البغداديّة تحديداً، هم من العباسيّين، ومنهم إسحق الموصلي،[2]ومحمد البصري[3]، وإبراهيم بن المهدي عمّ الخليفة المأمون بن هرون الرشيد[4]، والقاضي أبو حسان الزيادي، أيام المأمون[5]، وأبو سعيد بن سالم الباهلي، أيام هرون

(1) الزيّات، أحمد حسن: «**ألف ليلة وليلة ـ تاريخ حياتها**» ـ في: محاضرات المجمع العلمي العربي، دمشق، طبعة 1954م، المجلد الثالث، ص451.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 416/2.

(3) م ن، 71/3.

(4) م ن، 119/3.

(5) م ن، 124/3.

الرشيد[1]. وآخرون، وأنّ رواة آخرين هم من الفرس الأعاجم، مثل علي العجمي الذي يروي لهرون الرشيد[2]. مع ملاحظة أنّ هؤلاء الأعاجم كانوا يكرهون النظام الأمويّ، ويتمنّون زواله، لأنّ هذا النظام اعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية، ولا يحقّ لهم ما يحقّ للعرب، وبالتالي طبّق عليهم سياسة التمييز العنصريّ، مما جعل «نقمتهم تتعاظم كلّما فكّروا في خضوعهم لسلطانه. و[قد] طما سيل الاستياء، أكثر مما طما، حول مدينة دمشق».[3] وهنا يبدو من غير المستحبّ أن تُروى الحكايات التي تمجّد دمشق بحضور خلفاء لا يحملون لتلك الدولة الأمويّة الآفلة أي مظهر من مظاهر الاحترام، أو لا يعترفون لها بالحقّ في خلافة خلفاء رسول الله (صلّى الله عليه وسلم)، وقيادة زمام الدولة الإسلاميّة. فـ

> **«على أثر قيام الدولة العباسيّة، تسقط مدينة دمشق، وينتهي عصرها الذهبي وتدخل عهد الانحطاط، ذلك أنّ ذِكر الأمويّين كان ثقيل الوطأة على الخلافة الجديدة، فصبّوا [أي العباسيّون] على المدينة غضبهم وحقدهم، وخرّبوا القصور، وانتهكوا حرمة قبور الخلفاء، وهدّموا أسوار المدينة، رغبة منهم في أن يحرموا السكان ما يتحصّنون به إذا ثاروا عليهم. وإذا كان الجامع الأمويّ قد سَلِم من هذا التخريب فالفضل في ذلك يرجع لما كان يتمتع به من احترام في نفوس المسلمين، ولا عجب بعد ذلك، أن تنحطّ دمشق إلى مصافّ المدن الثانويّة، فتنتقل منها دار الخلافة وتغدو قصبة ولاية تعمل فيها عناصر الانحلال لتفكيك عُرى ذلك النظام القديم»[4].**

وفي هذا الفصل أحاول أن أتبيّن ملامح القاهرة، التي لا يذكرها الرّواة تحديداً، بل يستبدلونها بمدينة مصر التي هي مدينة القاهرة، لأن الرواة عندما يذكرون مدناً

(1) م ن، 172/3.
(2) م ن، 144/2.
(3) روم، لاندو: **الإسلام والعرب**، ص70.
(4) منيمنة، د.سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، **مجلة الفكر العربي**، العدد 29، ص240.

مصرية أخرى فإنهم يحدّدونها، كالإسكندريّة والقليوبيّة ودمياط، وأن أتبيّن ملامح مدينة دمشق، وبعضاً من بنيتهما المعرفيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والتجاريّة، منطلقاً من نصّ الليالي نفسه، ومعتمداً في آن بعض الخلفيات المرجعية التاريخيّة التي تذكر هاتين المدينتين.

1 ـ القاهـرة

لمحة تاريخيّة عن القاهرة:

بعد الفتح العربي لمصر[1]، وضماناً لسيطرة العرب المسلمين عليها، ونظراً لأنّ بُعدها عن أرض الجزيرة العربية يجعل من استردادها، إن هي سقطت، أمراً صعباً، قرّر الفاتحون الاستقرار فيها، وكان عليهم أن يختاروا عاصمة لها، فقد أراد عمرو بن العاص أن يتّخذ من الإسكندرية قاعدة لحكمه نظراً لشهرتها وثرائها، لكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض أن يترك قوّاته في مدينة تفصلها مياه الفيضان عن أرض الجزيرة العربية في كل عام[2].

ويروي ياقوت الحمويّ[3] أنّ عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر مضى إلى الإسكندرية، وأقام عليها ستّة أشهر حتى فتحها الله عليه، عندها:» كتب إلى عمر ابن الخطاب يستأذنه في سكناها فكتب إليه: لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر، فقال عمرو لأصحابه: أين ننزل؟ فقالوا: نرجع أيّها الأمير إلى فسطاطك فنكون على ماء وصحراء، فقال للناس: نرجع إلى موضع الفسطاط، فرجعوا وجعلوا يقولون: نزلت عن يمين الفسطاط وعن شماله، فسميت البقعة

(1) ذكر ياقوت الحموي أن فتحها كان يوم الجمعة مستهل المحرم سنة 20 للهجرة.
ينظر: **معجم البلدان**، 263/4.

(2) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة الألف الكتاب (الثاني) الكتاب الثاني عشر، الطبعة الأولى 1986م، ص11-12.

(3) **معجم البلدان**، 263/4.

بالفسطاط لذلك ». لكنّ المسلمين لم يتّفقوا على اختيار الموقع الفعلي لمدينة الفسطاط، فهل يكون على الضفّة الشرقية أو الغربية؟ فقد رأى الأتقياء في جيش عمرو بن العاص أن يجعلوها على الضفّة الغربية تيمّناً بما يروى عن رسول الله (ص): «أن الجيزة بها روضة من رياض الجنة»، لكن عمرو بن العاص كان عمليّ التفكير، وانطلاقاً من رؤيته العسكريّة فقد فضّل الضفّة الشرقية حتى يكون الخليفة على اتّصال قوي بجيشه، وهكذا وقع الاختيار على الضفّة الشرقية في الأرض المجاورة لحصن بابليون، المهيمن على الطرق المؤدّية إلى الصعيد[1].

وحول موقع مدينة الفسطاط، يروي الطبري[2] قصة ربما تكون حقيقية، وربما تخيّليّة، لكنها في بنيتها العامة تلتقي مع قصص الأساطير العربية، التي كانت تجد صدىً واسعاً لدى عامّة الناس في العصر الجاهليً، وحتى في العصور الإسلاميّة اللاحقة له، فعندما عزم عمرو بن العاص السفر إلى الإسكندرية لفتحها، أمر «بفسطاطه أن يُقوَّض فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه. فقال: لقد تحرَّمت بجوارنا أقِرّوا الفسطاط حتى تنفُق وتطير فراخها، فأُقِرَّ فسطاطه، ووكّل به من يحفظه». وعندما رجع عمرو من الإسكندرية بنى المدينة مكان الخيمة التي بنت اليمامة عشّها عليها.

وتشير الدراسات إلى أنّ الفسطاط قد امتدّت «في القرن الثاني الهجري وأنشئت كذلك مدينة «العسكر»، وكان امتدادها نحو الشمال، حيث أنشأ أحمد بن طولون مدينة «القطائع»، التي انتهت عند ميدان المنشيّة. وهذه هي المدن الثلاث التي أنشأها العرب في مصر قبل إنشاء القاهرة»[3].

أسّس القاهرة القائد جوهر الصقلّي في عام 358هـ/969 م، في عهد الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله[4]. وأحاطها بالأسوار والأبواب المحصّنة كباب الفتوح وباب زويلة، وأنشأ فيها شارعاً رئيسيّاً عظيماً سمّي فيما بعد بشارع المعزّ لدين الله

(1) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص12.

(2) عن/ **معجم البلدان**، 263/4.

(3) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة 1995م، ص135.

(4) حلاّق، د.حسان: **مدن وشعوب إسلاميّة** 38/1.

الفاطمي، وقد أُنشِئ هذا الشارع بطريقة فنيّة متعرّجة، بحيث يهدف إلى حماية روّاده من أشعة الشمس في صيف القاهرة، وقد كان هذا الشارع المركزي مصبّاً للأسواق الفرعية، والمساجد والحمّامات والخانات والأسبلة والمدارس[1]. ويبدو أنّ بناء القاهرة كان نتيجة حتمية لاتساع حاجات الدولة الفاطمية إلى مدينة كبيرة تستوعب الجيوش التي قدمت معها، وتراعي زيادة عدد السكان الجدد، وهو في المحصّلة النهائيّة نتيجة طبيعية أفرزها التطوّر العمراني في المدن الإسلاميّة.

عُرِفت القاهرة في البداية باسم «المنصورية»، تبرّكاً باسم مدينة «المنصورية» التي أنشأَها خارج القيروان، المنصور بالله والد المعزّ، ولكن الخليفة [المعزّ لدين الله] الذي جاء ليستقر في مصر عام 362هـ/973 م، غيّر اسمها إلى «القاهرة».[2]

وتشير إحدى الدراسات إلى أنّ هنالك مجموعة من الدوافع دفعت القائد جوهر الصقلّي لبناء هذه المدينة، ومنها:

1 ـ الدوافع الجغرافية: قربها من مدينة الفسطاط واتصالها بها.

2 ـ الدوافع الاستراتيجية: كون القاهرة أول مدينة يصل إليها المسافر بعد خروجه من الشام.

3 ـ الدوافع العسكرية: حينما بنى جوهر الصقلّي مدينة القاهرة أراد أن يكون وأصحابه وأجناده في منأى عن العامة.

4 ـ الدوافع الاقتصاديّة: اختيار موقع للمدينة أقرب إلى نهر النيل، بحيث يكون النيل طريق نقل للبضائع والركاب، إذ تصعد فيه المراكب إلى الصعيد، وتنحدر إلى الإسكندرية[3].

(1) نبيل، مصطفى: «يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا»، **مجلة الهلال**، دار الهلال، القاهرة، العدد الرابع، أبريل 1993م، ص83.

(2) الصاوي، أحمد: «القاهرة مجمع أسواق الشرق»، **مجلة الشاهد**، شركة الشاهد للنشر المحدودة، ليماسول/ قبرص، السنة الخامسة، العدد السابع والخمسون، أيار/مايو، 1990م، ص78.

(3) العلواني، نوري عباس: مراجعة لكتاب: «دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلاميّة» لعبد الجبار ناجي، **مجلة الاجتهاد**، دار الاجتهاد، بيروت، السنة الثانية، العدد السابع، ربيع 1410هـ/1990م، ص310.

إلاّ أنّ هذا الموقع الذي رآه جوهر الصقلّي موقعاً متميّزاً، لم يعجب المعزّ لدين الله لأنه رآه بلا ساحل. عندها نبّه قائده جوهر الصقلّي، قائلاً: «فاتك بناء القاهرة على النيل عند المقسِّ (ميدان المحطّة)، فهلا كنت بنيتها على الجرف...؟ (منطقة الرصد)».[1] لكنّ الدراسات الجغرافية المعاصرة فيما بعد أثبتت أنّ جوهر الصقلّي»كان موفّقاً في اختيار موقع القاهرة، حيث يضيق عنده مجرى النيل، وحيث تتخلل الجزر المكان الذي تشرف عليه القاهرة، والتي هي أشبه بممرّ طبيعي يسهل للناس الانتقال من ضفّة إلى أخرى ويهون عليهم أمر ذلك كثيراً»[2].

وإذا كان القائد جوهر الصقلّي قد فاته ما قاله المعزّ لدين الله، انطلاقاً من رؤيته العسكرية لموقع القاهرة الذي ظنّ أنّه يحقق موقعاً مهمّاً لجنوده، وذلك من خلال الميدان الفسيح الذي كانت تُقام فيه حفلات استعراض الجيش والذي يتّسع لعشرة آلاف ما بين فارس وراجل[3]، فإنّ الخلفاء الفاطميين لم تفتهم النظرة إلى مواطن الجمال في أطراف القاهرة والفسطاط والجيزة، فانتقلوا بها إلى شاطئ النيل وحافتي الخليج، وشبرا حيث كانت الخضرة والماء، فأنشئوا [كذا] المناظر والحدائق وكانوا يقضون فيها أوقاتاً سعيدة»[4].

وقد قُسّمت المدينة لأن تتوزّع فيها الطبقات بحسب موقعها في الهرم السلطوي، بحيث يكون قصر الخليفة بعيداً عن قصور الطبقات الشعبية، وهذا ما يُلاحظ في معظم المدن الإسلاميّة التي شكّلت مدناً مركزية وعواصم للدولة الإسلاميّة، فالشارع المركزي ـ المشار إليه سابقاً ـ كان طوال العصر الفاطمي مقصوراً «على سكن الخليفة ورجاله (...) وقصر السلطان هو مركز القاهرة، ويحيط به قصور الأمراء والقادة، وفي الدائرة الأوسع التجّار والعامة. وعند هوامش القاهرة يعيش المزارعون»[5]. وقد احتلّت

(1) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص138.

(2) عثمان، د.محمد عبد الستار: **المدينة الإسلاميّة**، ص99.
وأخذ عن/مصطفى، د.نيازي: القاهرة ـ **دراسات تخطيطية في المرور والنقل والمواصلات**، ص9 – 10، دون أن يذكر دار النشر وتاريخ الطبعة.

(3) حمّاد، د.محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص137.

(4) م ن، ص138.

(5) نبيل، مصطفى: «**يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا**»، ص83.

مدينة القاهرة مكانة مهمّة بين مدن مصر. ولم تنازعها مكانتها هذه في تاريخ مصر سوى مدينتي طيبة والإسكندرية. والقاهرة أقدم مدينة في العالم باعتبارها وريثة «منف» القديمة.[1]

ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، أشار الشعراء الجوّالة إلى القاهرة باسم بابليون Babilone، وقد انتقلت هذه التسمية للاستعمال العام في أوروبا، إلّا أنّ المؤلفين الأكثر اطلاعاً بجغرافية المدن وتاريخها رأوا أنه من الضروري التمييز بين بابليون التوراتية،[2] وبين عاصمة مصر، التي ميّزوا فيها بين مدينتين: هما بابليون التي تحمل اليوم اسم مصر العتيقة، وبين القاهرة الحقيقية التي أسّسها الفاطميون في القرن العاشر الميلادي[3].

وتُعدّ القاهرة من أهم المدن الإسلاميّة التي تمتاز «بثقل ثقافي وحضاريّ وتاريخيّ، حيث تتجمّع فيها مختلف المظاهر العمرانية والتراثية عبر مراحل تاريخها، وذلك منذ تأسيسها عام 969م شمالي الفسطاط».[4] ويرى أحد علماء الجغرافية العرب أنه لو حُصِرت العواصم المخضرمة العربية في الدنيا، فلعلّ القاهرة هي أهم المدن جميعاً[5]. وموقع القاهرة هو موقع فريد في مصر وخارجها، فهو موضع التقاء الدلتا بالصعيد في عقدة الوادي.[6]

(1) م ن، ص75.

(2) أمّا مدينة بابليون التوراتية القديمة فقد«نمت في العصور القديمة بجوار الحصن الروماني الذي دُعي «قصر الشام». وفي زمن الفتح العربي توسعت بمعسكر الفسطاط الذي أقامه الفاتح عمرو بن العاص شمال شرقي الحصن. وبعد قليل نمت العاصمة القديمة أيضاً في اتجاه الشمال أثر ظهور «حي العسكر»، وعلى أيدي العباسيّين في القرن الثامن، وحي «القطائع» في القرن التاسع (الميلادي) بجهود الفاطميين. وفي عام 969م تأسست (...) نواة، القاهرة الحديثة إلى الشمال أيضاً وتوسّعت وتحصّنت على يد صلاح الدين الأيوبي».
ينظر: دوب، ب.هـ؛ Dopp, P.H: «القاهرة كما رآها الرّحالة الغربيون في العصر الوسيط»، ترجمة عبد الرحمن حميدة، **مجلة دراسات تاريخيّة**، جامعة دمشق، السنة الخامسة عشرة، العددان 50/49، آذار/ حزيران 1994م، ص64.

(3) م ن، ص63.

(4) حلاّق، د.حسّان: **مدن وشعوب إسلاميّة**، 38/1.

(5) حمدان، د.جمال: «**القاهرة الكبرى ـ دراسة في جغرافية المدن**»، مقدمة كتاب: القاهرة، لـ: ديزموند ستيورات، ترجمة يحيى حقي، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1987م، ص12.

(6) م ن، ص19.

ويرى أحد الدّارسين أنّ المميّزات المادية لموقع القاهرة جذب العديد من السكان في حين أن بواعث دينية أخرى أسهمت في جلبهم[1]. إذ إنّ الأقاصيص الدينية نسجت هالة قدسية حول هذا الموقع، فقد ساد بين الناس»أنّ الدعوات التي تُؤدّى على جبل المقطّم مجابة، وأنّ الله قد وعد بأن يجعل من السفح [سفح المقطّم] روضة من رياض الجنّة، وأنّ هذا السفح يتمتع بخاصيّة خارقة للطبيعة مباركة، فالجثث التي تُدفن فيها لا تبلى لوقت طويل (...) وقد أُعتقد أنّ من يُدفن في نهاية الطرف الجنوبي يُبعث أيام الأربعاء والخميس والجمعة المقدّسين..».[2]

من الملاحظ أنّ المصادر القديمة، التي جاءت بعد تأسيس القاهرة، لم تذكر القاهرة تحديداً، بل ظلّت تطلق عليها اسم الفسطاط تارة ومصر تارة أخرى، فياقوت الحمويّ[3] المتوفَّى 626هـ/1228م، بالرغم من استفاضته بالحديث عن الفسطاط ومصر بكثير من التفاصيل، فإنه لا يذكر القاهرة إلاّ مرّة واحدة قائلاً: «ثم اتّفق في سنة 564 [هـ] نزول الإفرنج على القاهرة فأضرمت النار في مصر لئلا يملكها العدو». ويبدو أنّ هذه المصادر ظلّت تعدّ القاهرة هي مصر والفسطاط، حيث يغلب الاسم القديم للبلد الكل (مصر) على الجزء المحدث (القاهرة)[4]. وقد ظلّ اسم مصر أو الفسطاط غالباً أيضاً على الاسم الجديد (القاهرة) في حكايات ألف ليلة وليلة.

وتبقى القاهرة في المحصّلة النهائية المدينة الجديدة المتطوّرة التي احتوت، وضمّت إليها بعد التجديد في بنائها، المدن الصغيرة السابقة لها المسمّاة بـ: بابليون Babilone والقطائع والعسكر والفسطاط، والتي يمكن عدّها أحياءً كبيرة مجاورة للقاهرة، وفي ما بعد ذابت ملامحها في القاهرة تماماً، وبقي الملمح الكل الجامع لها ملمح القاهرة المزدهرة عمرانياً وحضاريّاً، المليئة بالمساجد والشوارع، كما يروي

(1) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص15.

(2) م ن، ص15 – 16.

(3) **معجم البلدان**، 266/4.

(4) وهذا ما يُلاحظ حتى الآن بين سكان مصر، فالرجل من الإسكندرية أو من المنصورة أو من طنطا أو من الصعيد، وغيرها من مدن مصر، عندما يذهب إلى القاهرة يقول: أنا نازل مصر.

ياقوت الحمويّ[1] عن القاضي أبي عبد الله القضاعي، أنّه «كان في مصر من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد وثمانية آلاف شارع مسلوك وألف ومائة وسبعون حمّاماً».

وفي المصادر التاريخيّة تبدو مصر بلداً مباركاً وطيباً، وعمرانها أبعد العمران عن الخراب، إذ يروي ياقوت الحمويّ[2] عن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص أنّه قال عن مصر: «وهي اليوم أطيب الأرضين تراباً وأبعدها خراباً لن تُزال فيها بركة ما دام في الأرض إنسان (...) وقالوا: مثلّت الأرض على صورة طائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربتا خربت الدنيا».

إنّ القاهرة التاريخيّة سليلة الحضارات القديمة الفرعونية والرومانية هي «مدينة تجمع بين القديم الوسيط والحديث بل إنّها مدينة تجمع التاريخ كله»[3]. وقد تحدّث الرحالة عن هذه المدينة بإعجاب ودهشة، يصلان حد التبجيل، فها هو يعقوب الفيروني J. de Véroné، يأتي من البندقية وعندما يصل إلى القاهرة في آخر أيلول 1335م، يصفها قائلاً[4]: «وصلت إلى القاهرة، المدينة التي تحوي الكثير من العجائب التي تستحّق الذكر، لأنها زعيمة كل مصر وفلسطين والأرض المقدّسة، وكل بلاد الآشور حتى أرمينية (...) والهواء فيها عذب وخال من أي شكل من أشكال الوخامة، والسكان أغنياء جداً بفضل تجارة الهند». ويصفها رحالة آخر بأنها «بندقية الشرق»[5]. ويبدي أحد الرحالة المعاصرين إعجابه الشديد بها، فيصفها بأنها «المدينة، التي نطق فيها السيد المسيح أول كلماته»[6]. و«هي قطب العالم العربي، خاصة في مجال

(1) **معجم البلدان**، 266/4.

(2) **معجم البلدان**، 137/5.
إلاّ أنّ حوادث التاريخ المعاصر تثبت بطلان هذا الرأي، فمصر مثلها مثل كل البلدان المعرّضة للخراب بفعل الكوارث الطبيعية، وما الزلازل والفيضانات التي حدثت في الأعوام العشرة الأخيرة في مصر، والتي فتكت بمئات الناس إلاّ الدليل على بطلان رأي عبد الرحمن بن العاص.

(3) حلاّق، د.حسّان: **مدن وشعوب إسلاميّة**، 43/1.

(4) عن/ دوب، ب . هـ: «**القاهرة كما رآها الرّحالة الغربيون في العصر الوسيط**»، ص68،70.

(5) ستيورات، ديزموند: **القاهرة**، ص135.

(6) ثورو، بيتر: «القاهرة قلب مصر المضيء»، **مجلة الجيل**، مؤسسة الجيل للصحافة، باريس، المجلد السادس عشر، العدد الحادي عشر، تشرين الثاني/نوفمبر، 1995م، ص10.

الثقافة الشعبية»[1]. وهي «الخليّة العامرة بالحياة والتي لا مثيل لها»[2]، وهي المدينة الآمنة التي توفّر ملاذاً أميناً لّلاجئين إليها منذ أيام الملك هيرود، حتى المجاعة على الساحل الأفريقي، إلى الأيام المعاصرة[3].

وبعد انهيار بغداد العباسيّة وأفول عزّها، وسقوط الخلافة العباسيّة فيها سنة 656هـ/1258م، ستصبح القاهرة مدينة مركزية مزدهرة بالنسبة للدولة الإسلاميّة، مثلها مثل دمشق أيام الخلافة الأمويّة، ومثل بغداد أيام الخلافة العباسيّة. ونظراً للدور الجديد الذي ستلعبه مصر، وللمركزية السياسيّة التي تحتلها في ظلّ دولة المماليك، فإنّ القاهرة ستصبح في ظلّ هذه الدولة: «القلب من الجسم بعد أن تكوّنت للعروبة معالم واضحة فامتدّت حدود هذه الدولة من اليمن جنوباً حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً، وعلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط من خليج الإسكندرية حتى بلاد برقة، وعلى ضفاف النيل حتى أعالي النوبة»[4].

هذه هي بعض ملامح القاهرة عبر التاريخ، كما وصفتها المصادر والمراجع. فما هي أهم ملامحها الإنسانية والاجتماعيّة في حكايات ألف ليلة وليلة؟. هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال الصفحات الآتية.

(1) م ن، ص14.
(2) م ن، ص17.
(3) م ن، ص15.
(4) نبيل، مصطفى: «**يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا**»، ص79.

القاهرة في ألف ليلة وليلة

يتّفق الدارسون على أنّ كتاب ألف ليلة وليلة يتكون من طبقات متعددة، وإحدى هذه الطبقات كُتبت في بغداد وأخرى كتبت في مصر[1]. والطبقة المصرية أُضِيفت إلى الكتاب في زمن متأخر[2]، فـ«الأقاصيص الهيّنة الجيدة السبك التي تمثّل حياة الطبقة الوسطى وتقوم على مشكلة من مشكلات الحب ويكون حلّها على يد الخليفة هي من الطبقة البغدادية، وأمّا حكايات الصعاليك وحكايات الجن ـ وهذه في الغالب ضعيفة الأسلوب ـ فهي من طبقة مصرية متأخّرة»[3]. إنّ ما يميّز حكايات ألف ليلة وليلة في طبقتها المصرية كما يرى أحد الدارسين، وجود عنصر المغامرات في بنية أحداثها «التي تعتمد المكر والحيلة من جانب والمنافسة السياسيّة الحادة من جانب آخر»[4]. على أن الدارس، مهما كان دقيقاً، لا يستطيع أن يصنّف خصائص معينة ودقيقة للطبقة المصرية، تميّزها عن البغدادية أو الهندية أو الفارسية، لأنّ معظم الحكايات تلتقي في معظم بنياتها التركيبية، التي تتشابه من حيث الحيلة والمكر والقتل والدهاء والجواري

(1) ميلر، أوغست؛ Muller, August، عن/أويسترب، ج؛ Oestrup.J: «ألف ليلة وليلة»، في: «ألف ليلة وليلة»، كتب **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ص17.
وكذلك: الموسوي، د.محسن جاسم: **الوقوع في دائرة السحر ـ ألف ليلة وليلة في النقد الأدبي الإنكليزي**، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، طبعة 1987م، ص8.
وكذلك: القلماوي، د.سهير: **ألف ليلة وليلة**، ص84.

(2) أويسترب،ج: «**ألف ليلة وليلة**»، م س، ص17.

(3) م ن، ص28.

(4) الموسوي، د.محسن جاسم: **الوقوع في دائرة السحر**، ص9.

الجميلات، ورجال السلطة السفّاحون، والملوك والأمراء الذين يتطاحنون حروباً مدمّرة في تنافساتهم السياسيّة. فالطور البغدادي يتداخل مع الطور القاهري، ويتزامن معه، والسارد الذي يكون في بغداد سرعان ما ينتقل إلى القاهرة، وبالعكس، كما في حكاية «**علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة**»، والذي يكون في القاهرة سرعان ما ينتقل إلى بغداد، بوحداته السرديّة كما في حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»، وقد «كان القصاص المصري يعتمد على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة، والرّوايات القديمة الصحيحة والمدخولة، ثم يضيف إلى ذلك ما تُنوقل في مصر وما تجمّع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدوّنون ما رأوا من الأعاجيب»[1].

ويمكن بشيء من التقريب القول: إنّ الطريقة التي يمكنها أن تلقي الضوء لمعرفة الطور القاهري، ولو بشكل نسبي، هي متابعة السارد وهو يحدد الأماكن الواقعية التي يصل إليها الأبطال، أو يسمّي بعض أحيائها، أو يحدد أسماء حكّامها الحقيقيين في الأزمنة التي حكموا فيها، وسيساعدنا أيضاً، في تحديد هذه الحكايات لغة الحكاية التي تنهل في تركيبتها من لهجة المدينة، لأنّ هذه اللهجة من شأنها «أن تقودنا إلى أصل النص»[2]، فالحكايات التي تذكر المدن المصرية تحتفظ بلهجة عاميّة، لا تزال معروفة في مصر حتى الآن. على أنّ ذكر الشخصية المقرونة بمكان معين، أو بزمان يدور الأبطال في فضائه التاريخيّ، ليس دليلاً كافياً لمعرفة أصل الحكاية، أو الطبقة التي تنتمي إليها، فعلى سبيل المثال نجد أن الحكاية التي «تُقال عن الرشيد قد تكون أُلفّت بعده بقرون، أو حتى أُلفّت قبله بقرون وأُضيف إليها اسمه إضافة مفتعلة عندما أراد القاصّ أن ينزل هذه القصّة القديمة إلى جوّ المسلمين فسمّى الملك القديم هارون الرشيد، ولم يجد من سامعيه تحرّجاً ولم يقدّر أنّ قوماً سيتساءلون ويخضعون قصصه، الذي ألفّه ليؤدّي غرضاً آخر، لقوانين العقل والواقع والحق»[3].

(1) الزيّات، أحمد حسن: «ألف ليلة وليلة»، في: «ألف ليلة وليلة»، كتب **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ص83.

(2) الموسوي، د.محسن جاسم: م س، ص11.

(3) القلماوي، د.سهير: م س، ص84.

وفي دراستي لملامح القاهرة في حكايات ألف ليلة وليلة التي وصفتها، سأعتمد بالدرجة الأولى، في تحديد حكايات الطبقة المصرية، المسمّيات المكانية للمدن المصرية وأحيائها، من دون أن أجدني مضّطراً للخوض في الآراء الكثيرة المتشعّبة والمتضاربة التي تؤكّد أو تنفي أو ترجّح أنّ هذه الحكاية أو تلك قاهرية أو بغدادية، أو هندية أو فارسية، لأنّ دراستي ستنطلق من الفضاء المكاني، وأهمّ ملامحه، وعلاقات شخوصه، ودور هؤلاء الشخوص في تحديد سمات المكان وهم يصفونه، أو يتعايشون معه. وفي البداية تجدر الإشارة إلى أنّ الرّواة لا يذكرون القاهرة في جميع الحكايات إلاّ مرّتين[1]، وهم يستعيضون عنها باسم مصر، أو مصر القديمة، وهم يعنون بها القاهرة، لأنهم عندما يذكرون مصر فإنّهم يذكرون أحياء حقيقية لا تزال معروفة حتى الآن بالأسماء نفسها في القاهرة المعاصرة، ومن هذه الأحياء:

القليوبيّة[2]، وخان مسرور، وباب زويلة، والحبّانيّة، وبين القصرين[3]، وحي البنداقيّين، وحارة اليمانيّة والجودريّة[4]، وميدان الفيل[5]، وباب النصر، وحي العادليّة[6].

أمّا حكايات القاهرة في الليالي فهي: حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»، وهي داخلة ضمن حكاية «**هرون الرشيد مع الصياد**»[7]، وتجري حوادثها في مصر والبصرة، وحكاية «**النصراني لملك الصين**»، وهي ضمن حكاية «**الأحدب وملك الصين**»[8]، وحكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»[9]، وهي مصرية وبغدادية في

(1) وذلك في حكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة، **ألف ليلة وليلة**: 114/3، وفي حكاية الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي: م ن، 431/4.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 95/1.

(3) م ن، 1/130.
ويطلق بعض المصريين المؤمنين بكرامات الأولياء على باب زويلة في هذه الأيام اسم: باب المتوليّ.

(4) **ألف ليلة وليلة**، 90/4.

(5) م ن، 4/195.

(6) م ن، 4/374.

(7) م ن، 1/93.

(8) م ن، 1/128.

(9) م ن، 2/347.

آن، وحكاية «**وردان الجزّار**»[1]، وهي في زمن الحاكم بأمر الله، وحكاية «**الملك الناصر والولاة الثلاثة**»[2]، وحكاية «**علاء الدين والي قوص مع أحد اللصوص**»[3]، وحكاية «**الرجل البغدادي الذي سافر إلى مصر لأجل ما رآه في الحلم**»[4]، وفيها يرتحل السرد من بغداد إلى القاهرة، ثم يعود إلى بغداد، وحكاية «**الحاكم بأمر الله مع الرجل الكريم**»[5]، وحكاية «**علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد**»[6]، وكما يظهر من عنوان الحكاية، فإنّ الشخصية المصرية فيها ترتحل من القاهرة لتستقرّ ببغداد، وحكاية «**جودر ابن التاجر عمر وأخويه**»[7]، وحكاية «**علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة**»[8]، وحوادثها في القاهرة وبغداد، وحكاية «**سيف الملوك وبديعة الجمال**»[9]، وهي داخلة ضمن حكاية «**التاجر حسن مع الملك محمد بن سبائك**»، وحكاية «**معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة**»[10]، وحكاية «**الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي**»[11].

إذا كانت بغداد في ألف ليلة وليلة قد نالت حظوة كبيرة عند الرّواة، باعتبارها مدينة مركزيّة للسياسة والسطوة والعلم والمعرفة والترف والرفاهية، فإنّ حظّ القاهرة بالرّغم من حكاياتها الكثيرة أقلّ من حظّ بغداد، إذ يصورّها الرّواة على أنّها مدينة «للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل»[12]، ويمكن القول إنها تحتّل المرتبة الثالثة بين فضاءات المدن العربية في ألف ليلة وليلة، بعد بغداد والبصرة، لكنّ هذه المدينة

(1) م ن، 3/82.
(2) م ن، 3/114.
(3) م ن، 3/118.
(4) م ن، 3/128.
(5) م ن، 3/169.
(6) م ن، 3/208.
(7) م ن، 53/4.
(8) م ن، 4/111.
(9) م ن، 4/184.
(10) **ألف ليلة وليلة**، 370/4.
(11) م ن، 4/431.
(12) الزيّات، أحمد حسن: «**ألف ليلة وليلة ـ تاريخ حياتها**»، في: محاضرات المجمع العلمي العربي، 451/3.

بالرّغم من أنها فضاء للاحتيال بامتياز، فإنّ عليها قسمات وملامح جماليّة غير قليلة، فهي قريبة إلى القلب وعزيزة على النفس، وفضاء لمتعة العين والقلب:»فليس على وجه الأرض أحسن منها»[1]. ومن ملامحها: أنّ الحياة فيها طيّبة، وأنها تجمع كل ما تطمح إليه ملذّات النفس البشريّة، التقيّة والمارقة، وسكانها محلّ صدق، كما يذكر أحد الشعراء[2]:

أأرحل من مصر وطيب نعيمها وأي مكان بعدها لي شائق؟
بلاد تشوق العين والقلب بهجة وتجمع ما يهوى تقي ومارق
وإخوان صدق يجمع الفضل شملهم مجالسهم مما حووه حدائق
أسكان مصر إن قضى الله بالنوى فثمّ عهود بيننا ومواثق.

ومن صفاتها، أنها «مدينة مصر المحروسة»[3]، و«مدينة مصر السعيدة»[4]، والمدينة التي يقصدها الراوي هنا، هي القاهرة تحديداً.

والقاهرة في بعض حكايات ألف ليلة وليلة مدينة تجاريّة مزدهرة، وتجّارها أثرياء مترفون حتى التخمة: «كان بمدينة مصر رجل تاجر، وكان عنده شيء كثير من مال ونقود وجواهر ومعادن وأملاك لا تُحصى».[5] لكنّ الرّاوي العاشق لبغداد ذات الشهرة التجاريّة التي لا تُضاهى، لا يستطيع أن يتخلّص من سحرها وجاذبيتها، وهو يصف ثراء التّجار في القاهرة، بل يؤكّد أنهم يعودون بجذورهم إلى أصول بغدادية. فالتاجر المصري الغني صاحب الأموال التي لا تحصى «كان اسمه حسناً الجوهري البغدادي»[6].

ومن مظاهر ثراء التّجار في مصر وأبّهتهم، ما نقرؤه عن شمس الدين والد

(1) **ألف ليلة وليلة**، 145/1.
(2) م ن، 1/145.
(3) م ن، 4/370.
(4) م ن، 4/375.
(5) م ن، 3/208.
(6) م ن، 208/3.

علاء الدين أبي الشامات، فهو»صاحب خدم وحشم وعبيد وجوار ومماليك ومال كثير»[1]. وما يُلاحظ على أولاد هؤلاء التّجار أنّ فضاء القاهرة بكلّ شساعته وجمال نسائه لا يغريهم بدوام العيش فيه، فابن التاجر حسن البغدادي، المدعو بـ»علي المصري»، وعلاء الدين أبو الشامات ابن التاجر شمس الدين، يرفضان العيش في القاهرة بالرغم من ثرائها الأسطوري، ويرتحلان إلى بغداد المركز ليستقرّا هناك بقيّة حياتهما. وهذا الارتحال عائد إلى أضواء الشهرة والثراء التي عاشتها بغداد المركزيّة.

ويقدّم الرّاوي تجّار مصر في صورة مليئة بالكرم، وبخاصة في علاقاتهم المتميّزة مع رجال السلطة. فها هو أحد تجّار مصر الأثرياء الذي يملك مائة جارية[2]، يكرم الخليفة الحاكم بأمر الله وجنوده، عندما ينزلون في بستانه، ويطعمهم جميعاً مما أرسلته إليه جواريه المائة من طعام، إذ أخرج الرجل: «مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق من الفاكهة، ومائة جام ملآن حلوى ومائة زبديّة ملأى بالشرابات السكريّة »[3]، ثم قدّمها للخليفة وحرّاسه. ويقول الرّاوي[4]: إنّ الخليفة الحاكم بأمر الله سجد»شكراً لله تعالى وقال: الحمد الله الذي جعل في رعايانا من وسّع الله عليه حتى يطعم الخليفة وعسكره من غير استعداد لهم، من فاضل طعامه».

وصعايدة مصر هم الآخرون كرماء في ألف ليلة وليلة، ويذكر الرّاوي أن متولّي القاهرة الأمير شجاع الدين محمد نزل وأعوانه عند رجل من أهل الصعيد، وباتوا عنده، فأكرمهم خير إكرام، وقدّم لهم كل ما يليق بهم[5].

إنّ صورة رجال مصر الكرماء في الليالي لها خلفيّة تاريخيّة واقعية تسجّلها

(1) م ن، 2/247.
(2) م ن، 3/169.
(3) م ن، 3/169.
(4) م ن، 3/169.
(5) م ن، 4/431.

بعض المصادر التاريخيّة والاجتماعيّة، إذ يذكر ابن خلدون[1] أنّ أهل مصر»أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار». ويتعاطف الرّاوي مع رجال مصر، وبطبيعة الحال يفضّلهم على رجال الإفرنج، انطلاقاً من إيديولوجيته الإسلاميّة، ويدفع نساء رجال الإفرنج إلى ترك أزواجهنّ محبّة برجال مصر، ففي حكاية»**الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي**»، يتزوّج أحد رجال الصعيد امرأة إفرنجية جميلة، من سبايا نساء الإفرنج ـ أيام الحروب الصليبية ـ وعندما تُعقد الهدنة بين المسلمين والإفرنج لتبادل سبايا الطرفين وفقاً لمعاهدات وقف الحرب، يُحضرون المرأة الإفرنجية، ويسألها رسول ملك الإفرنج، بحضور الملك الناصر وزوجها الصعيدي: «أتروحين إلى بلادك أم إلى زوجك فقد فكّ الله أسرك أنت وغيرك. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمت وتزوّجت وحملت كما ترون وما بقيت الإفرنج تنتفع بي، فقال الرسول: أيُّما أحبّ إليك أهذا المسلم أو زوجك الفارس فلان؟ فقالت كما قالت للسلطان»[2].

أمّا الصورة النقيضة لصورة ثراء التجار الفاحش في القاهرة، فهي صورة المهمّشين اقتصاديّاً ومالياً، فمقابل الثراء الفاحش هناك الفقر المدقع، فأرباب المهن الدونيّة يتضوّرون جوعاً، مقارنة بالتجار الأثرياء، ولعلّ صورة معروف الإسكافي تجسّد حال هؤلاء المهمّشين، فقد «قعد في الدكان إلى نصف النهار، فلم يأته شغل [و] لم يكن معه من حقّ الخبز شيء ثم إنه مرّ على دكان الكنافي ووقف باهتاً واغرورقت عيناه بالدموع»[3].

إنّ دراسة نصوص الليالي المتباعدة في الزمان والمكان، والعادات والطباع والأخلاق، من شأنها أن تجعل الباحث لا يركن إلى نتائج دقيقة وثابتة أو متشابهة، لأنّ رواة الليالي المتعددين متناقضون في رؤيتهم للحياة بعلاقاتها وقيمها، وكذلك نجد أنّ المدن والشخوص التي يصفونها، هي الأخرى مليئة بالتناقض أيضاً. وربما قد تكون ثمّة قواسم مشتركة بين الحكايات من حيث الأحداث والغايات، من جهة،

(1) **مقدّمة ابن خلدون**، 874/2.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 435/4.

(3) م ن، 4/371.

وبين ملامح الشخوص ورؤيتها من جهة أخرى، لكنّ هذه القواسم تظلّ قابلة لشروخ وثغرات عديدة. ومن هذه الثغرات يبرز المتغاير، فإذا كان أحد الرّواة قد وقف مع الأمراء والأميرات، والأبطال التجار المغامرين، وحقّق لهم كل ما يطمحون إليه، فإنّ راوياً آخر وقف مع إسكافي فقير (معروف الإسكافي)، ونقله من حيّه الفقير بمصر، إلى مدينة (اختيان الختن)، وأكرمه وسخّر له خاتم «شبيك لبيك أنا بين يديك»، ثم جعله ملكاً على مدينة (اختيان الختن)[1]. وإذا كان راوٍ آخر قد رأى أنّ المرأة شرّ مطلق، فهي الزانية في طبعها، والماكرة في حياتها، فإنّ راوياً آخر قد رآها مليئة بالنبل والكرم والطهارة.

وإذا كان أحد رواة ألف ليلة وليلة يذكر أنه «كان في مصر سلطان عدل وإحسان»[2]، فإنّ راوياً آخر، انطلاقاً من فكرة الثنائيات الضدّية التي يركّز عليها معظم رواة ألف ليلة وليلة، يذكر أنه كان في مصر ملك يسمى شمس الدولة، يعذّب الناس ظلماً، ويغتصب ممتلكاتهم قهراً، إذ أرسل هذا الملك»إلى أخوي جودر وجاء بهما ورماهما تحت العذاب، (...) وأخذ الخرجين منهما ووضعهما في السجن»[3]. وإذا كان ظلم الحكام مستشرياً في مصر، شأنها شأن كل مدن ألف ليلة وليلة وبلدانها، فإنّ هذا لا يمنع من أن تكون هناك شريحة تنتمي إلى السلطة، وتتحلّى بالكرم والنبل، ويؤلمها ما يعانيه المظلومون والبؤساء في مصر، وهذا ما نلمسه في حكاية: «**معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة**»، إذ إنّ القاضي فطن إلى مكر زوجة معروف الإسكافي، فأنصفه منها، وتصدّق عليه:»وكان ذلك القاضي من أهل الخير، فأخرج له ربع دينار»[4]. ولا يعني إذا كان هذا القاضي عادلاً، أنّ أعوانه عادلون، بل هم ظلمة، مثلهم مثل طبقة الحاشية التي تحيط بالرجل السلطوي الكبير في الليالي، سواء أكان خليفة أم سلطاناً، أم قاضياً أم وزيراً، إذ يذكر الراوي في الحكاية السابقة أن رسل القاضي، بعد أن أفرج هذا عن معروف الإسكافي، ذهبوا ليأخذوا منه إتاوة غصباً، على الرغم من أنه بريء

(1) هذا ما تحكيه حكاية «معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة»، في المجلد الرابع، من ص370 إلى ص419.
(2) **ألف ليلة وليلة**، 94/1.
(3) **ألف ليلة وليلة**، 78/4.
(4) م ن، 4/373.

ومظلوم:»وإذا بالرسل أتوا إليه وقالوا له: هات خدمتنا؟ فقال لهم: إنّ القاضي لم يأخذ مني شيئاً بل أعطاني ربع دينار. فقالوا: لا علاقة لنا بكون القاضي أعطاك أو أخذ منك، فإن لم تعطنا خدمتنا أخذناها قهراً عنك»[1].

ومن الملامح الاجتماعيّة في قاهرة ألف ليلة وليلة: ملمح المرأة الشريرة والمتعهّرة والشاذّة جنسيّاً، وربما يكون هذا الملمح أهم ملمح لنساء ألف ليلة وليلة بعامة، ولنساء القاهرة بخاصة، «وشيء طبيعي أن يكثر الشرّ الصادر عن المرأة في الليالي هذه الكثرة، وتعجّ به الصفحات فقد قامت هذه الحكايات على أساس من خيانة زوجة لزوجها، وتسببت في تعقيده وسفكه للدماء»[2]. وتمثّل فاطمة العرّة، في حكاية «**معروف الإسكافي**»، المرأة في أبشع صورها الشريرة والمحتالة. فقد كانت، كما يقول الرّاوي[3]: «فاجرة شرّانيّة قليلة الحياء كثيرة الفتن، وكانت حاكمة على زوجها، وفي كل يوم تسبّه وتلعنه ألف مرة».

ومن صور هذه المرأة الشريرة، شراهتها في طلب الطعام، وإصرارها على أن يجلب لها زوجها كنافة خاصة بعسل النحل، وعندما لم يجد في المدينة إلاّ كنافة بعسل القصب اضطرّ أن يحضرها، وعند ذلك انفجرت زوجته شراً وسفهاً:» وغضبت عليه وضربته بها في وجهه وقالت له: قم يا مغفّل هات لي غيرها، ولكمته في صدغه، فخلعت سناً من أسنانه ونزل الدم على صدره (...) وقبضت على لحيته»[4]. ولم تكتف هذه المرأة بذلك بل حاكت له مكيدة كادت تودي به، لأنه لم يستطع أن يشبع رغباتها المسعورة في الحصول على الحلوى الفاخرة غالية الثمن، إذ إنها ربطت رباطاً على ذراعها ولوّثت ثيابها بالدم، وذهبت باكية إلى القاضي مدّعية أن زوجها معروف الإسكافي ضربها، وكسر ذراعها وقلع سنّها[5]. وعندما يصلحهما القاضي تذهب

(1) م ن، 4/373.

(2) حمّاد، د.هيام علي: **المرأة في ألف ليلة وليلة**، مكتبة نهضة الشرق/ جامعة القاهرة، القاهرة، طبعة سبتمبر 1979م، ص72.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 370/4.

(4) **ألف ليلة وليلة**، 371/4.

(5) م ن، 4/372.

إلى قاضٍ آخر وتشكو زوجها، مدّعية أنّه ضربها للمرّة الثانية[1]. فيصلحهما القاضي، وعندما يعجز الزوج عن شراء الحلوى تصمّم على الانتقام منه وإذلاله، فتذهب إلى الباب العالي لتشكو زوجها للمرة الثالثة[2]. فما كان من هذا الزوج المخذول إلّا أن ترك القاهرة هارباً منها إلى مدينة أسطورية بعيدة اسمها «اختيان الختن»[3].

وتمعن بعض نساء القاهرة، في ألف ليلة وليلة، في التهتك والشذوذ الجنسيّ، الذي يصل إلى حدّ ممارسة الجنس مع الحيوانات، فها هي المرأة في حكاية «**وردان الجزّار**» ـ لا يذكر الراوي اسماً لها ـ تلوذ بجسد دبّ ضخم في دهليز بعيد عن القاهرة، وتشتري كل يوم خروفاً من وردان الجزّار، وتطعمه لهذا الدبّ. يصف الرّاوي حالتها مع هذا الدبّ: «فلما فرغت [من إطعامه] أكلت كفايتها، ووضعت الفاكهة والنقل وحطّت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقي الدبّ بطاسة من ذهب، حتى حصلت لها نشوة السكر، فنزعت لباسها ونامت، فقام الدبّ وواقعها وهي تعاطيه من أحسن ما يكون لبني آدم، حتى فرغ وجلس، ثم وثب إليها وواقعها. ولما فرغ جلس واستراح. ولم يزل كذلك حتى فعل فيها عشر مرات ثم وقع كل منهما مغشيّاً عليه، وصارا لا يتحركان»[4]

قد يبدو الفعل الجنسيّ هنا أسطورياً في عدد مرّاته، وفي الفضاء الواقع فيه (فضاء الدهليز)، لكنه ليس مستحيلاً، من حيث كونه تعبيراً عن إحدى حالات الشذوذ التي لم تسلم منها أية مدينة من المدن العربية الإسلاميّة، إذ شهدت العلاقات الجنسيّة انحرافاً، و«زحف الشذوذ الجنسيّ على المجتمعات العربية»[5]، وعلى الرغم من محاربة الفقهاء والمتشدّدين، للشذوذ الجنسيّ في المدينة الإسلاميّة، إلاّ أنّه» استمرّ رغم كل المراقبة والتحذيرات»[6].

(1) م ن، 4/373.
(2) م ن، 4/374.
(3) م ن، 4/377.
(4) م ن، 3/ 84-83.
(5) بو حديبة، د.عبد الوهّاب: **الإسلام والجنس**، ترجمة هالة العوري، مكتبة مدبولي، القاهرة، طبعة 1987م، ص272.
(6) م ن، ص232.

ويبدو أنّ مدينة القاهرة في أزمنة الليالي كانت أكثر المدن فضاءً للحريّات والعلاقات الجنسيّة، ويبدو أنّ سلطاتها في تلك الأزمنة كانت غير صارمة في تطبيق الحدود على العلاقات الجنسيّة، أو هي غير قادرة على تطبيقها، نظراً للعدد الكثير من الأجناس البشرية التي وفدت إلى القاهرة.[1] وهنا تتشابه القاهرة مع بغداد إلى حدّ بعيد من حيث الجنسيّات المتعددة التي دخلتها عبر التاريخ.

ويُلاحظ أن الشخوص إذا ما تعرّضت في بعض مدن ألف ليلة وليلة إلى الكبت والحرمان الجنسيّ، فإنها تهرب من مدنها إلى فضاء مصر لتحقيق لذّاتها الجنسيّة، كما في حكاية «**داء غلبة الشهوة عند النساء ودواؤها**»، إذ تَوْلَع إحدى الشابات الأميرات بنكاح قرد، وعندما يكتشف والدها السلطان أمرها، يقرّر أن يقتلها خوف الفضيحة، فتهرب مع قردها إلى فضاء مصر الآمن لتحقيق الفعل الجنسيّ الشاذ معه: «فتزيّت بزيّ المماليك وركبت فرساً وأخذت لها بغلاً حمّلته من الذهب والمعادن والقماش ما لا يوصف، وحملت القرد معها وسارت حتى وصلت به مصر، فنزلت في بعض بيوت الصحراء»[2]. ولا يقصد الراوي بالصحراء تلك البعيدة عن مصر، بل يقصد الفضاء المحيط بمدينة القاهرة، والبعيد نسبياً عن الازدحام، لأنّ هذه الأميرة كانت تشتري كل يوم «لحماً من شاب جزّار»[3]. هذا إذا عرفنا أنّ المرافق التجاريّة في تلك الأيام لم تكن موجودة في الصحراء، باستثناء بعض الخانات التي شكّلت محطّات استراحة على الطرق الصحراوية، التي تربط بين المدن.

ونساء القاهرة متحررات وجريئات، إذ يخرجن إلى الأسواق ويلتقين الرجال، ويبدو هذا طبيعياً في مدينة تغصّ أسواقها بالازدحام، ويلتقي فيها الرجال بالنساء،

(1) تشير الدراسات التاريخيّة إلى أنّ القاهرة كانت غاصّة بالسكان من الجنسيّات المتعددة، فقد «طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيما بعد حكّام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (...) إلى جانب أولئك جميعاً تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش وأكثر من هؤلاء عدداً وتدفقاً حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنبات الوادي، تجري في عروقهم آثار دماء فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة».
ينظر: ستيوارت، ديزموند: **القاهرة**، ص141.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 86/3.

(3) م ن، 3/86.

من دون كبير عناء، فـ«تزاحم البشر في القاهرة [عبر تاريخها الطويل] يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً»[1]. ويبدو أنّ مظاهر الترف التي عرفتها بعض أسر القاهرة الأرستقراطية، دفعت هاته النسوة للتحرّر، والاحتكاك بالرجال، والخروج من فضاءات المنازل إلى فضاءات المتاجر والأسواق المزدحمة بالمارين من الجنسيّات المتعددة.[2]

وتشير حكاية «**النصراني لملك الصين**» الداخلة ضمن حكاية «**الأحدب وملك الصين**» إلى أنّ إحدى نساء القاهرة الجميلات المتحرّرات التقت تاجرًا بغداديًا شابًا في سوق «قيصرية جرجس» بالقاهرة، وسرعان ما أعلنت له حبّها، وواعدته على اللقاء بمنزلها، المليء جمالاً وأبّهة، بحي الحبّانيّة. يصف الراوي لقاءهما بمنزل المرأة: «لم أشعر إلاّ والصبية أقبلت وعليها تاج مكلّل بالدرّ والجوهر، فلما رأتني تبسّمت وحضنتني ووضعتني على صدرها، وجعلت فمها على فمي وجعلت تمصّ لساني وأنا كذلك (...) وتمكن حبّها عندي وهان عليّ جميع المال. ثم أخذنا نلعب ونتهارش مع العناق والتقبيل إلى أن أتى الليل..»[3].

ويسجّل التاريخ بعضاً من ملامح نساء مصر المتحرّرات واللواتي يخرجن إلى الأسواق بحرّية[4]، من دون أن يثير خروجهن حفيظة مجتمعهن وأزواجهن وإخوتهن وآبائهن. وعلى ما يبدو كان هذا الخروج الحرّ مثيراً ومغرياً للطامعين والمغامرين بغزو البلدان واغتصابها، ودافعاً لغزو مصر، إضافة إلى ذلك حالة الترف والبطر التي عاشتها مصر، والتي كانت هي الأخرى مغرية للاندماج فيها، ولحصاد نعيمها. ويروي

(1) ستيوارت، ديزموند: **القاهرة**، ص151.

(2) يقول ابن خلدون عن القاهرة: «فانتقلت إلى القاهرة (...) فرأيت حضرة الدنيا. وبستان العالم. ومحشر الأمم (...) وكرسيّ الملك. تلوح القصور والأواوين في جوّه (...) ومررت في سكك المدينة تغصّ بزحام المارة. وأسواقها تزخر بالنعم.».
مقدمة ابن خلدون، 1/85-86.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 1/133-134.

(4) وممّا يشير إليه خروج النسوة إلى الأسواق وحرّية حركتهنّ في المجتمعات الإسلاميّة ـ دون أن يثير حفيظة الرجال ـ أنّ هنالك خلفية اجتماعيّة ومعيشيّة منفتحة على الآخر بحسّها المدينيّ، ومغموسة بالترف والبطر.

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي[1] الخبر الآتي: «أرسل أحد المغاربة جارية إلى مصر لتباع بألف دينار. فأتت سيدة وساومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار. وكانت السيدة ابنة الأخشيد محمد بن طغج ملك مصر حينذاك. وعندما عاد التاجر إلى وطنه روى الحكاية للمعزّ». فما كان من المعزّ لدين الله الفاطمي، إلاّ أن أغرته هذه الحكاية، فاستدعى الشيوخ، وطلب من التاجر أن يحكي لهم الحكاية، وعندها قرّر أن يغزو مصر قائلاً:[2] «يا إخواننا انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم وبينهم شيء فإنّ القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها وما هذا إلاّ من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم[3] فانهضوا لمسيرنا إليهم». فأجاب الشيوخ: «سمعاً وطاعة».

وإذا أخذنا بصحّة هذا الخبر، فإنّه يمكن اعتبار أنّ إيديولوجيا غزو مصر من قبل المعزّ لدين الله كانت تستتر خلف نيات عدوانية مبيّتة، تطمح لتحقيق مكاسب خاصة، يحققها احتلال مصر، هذا البلد الذي يعني بالنسبة للمعزّ الرفاهية وملذّات العيش، وفضاء حرّاً تحقق النفس فيه ما تصبو إليه من ثراء وامتلاك وملذّات لا يستطيع فضاء القيروان أن يحققها للمعزّ وقادته وأركان دولته. وإذا كانت جيوش المعزّ لدين الله زحفت من القيروان إلى مصر واستطاعت أن تحتلها، فإنّ هذا الاحتلال لم يكن ناتجاً من ضعف نفوس رجال مصر، ولم يكن ناتجاً من الحريات الاجتماعيّة العامة التي أعطت المرأة نوعاً من الاستقلالية في تصرفاتها، بعيداً عن سلطة الرجال وجبروتهم، بل لأن سياسة الغزو كانت مهيّأة نفسياً لأن ترى في مصر فضاء جميلاً، تتحقّق فيه أحلام الغزاة الجامحة صوب الرفاهية وامتلاك الأموال والابتناء بالجواري،

(1) عن/فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص44 –45 .

(2) م ن، ص45.

(3) ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ رأي المعزّ متشكّل من الموروث الرجولي المتسلّط، الذي يرى في خروج المرأة عيباً، وخرقاً للرّؤية الجمعية المتشدّدة التي انتشرت في بعض المجتمعات الإسلاميّة المتزمّتة، وأنّ هذا الرّأي فيه الكثير من الإجحاف بحقّ المرأة، وبحقّ الرّجل الذي تعدّه هذه الرؤية ضعيف النفس، إن هو أعطى ابنته أو زوجته الحرّية، ووثق بها حين خروجها من منزلها. إضافة إلى احتمال أن يكون ما قد رُوي عن المعزّ مجرّد افتراء، أو هو من جملة الأكاذيب التي حُشِرت داخل التاريخ العربي، منذ بدايات تشكلّه حتى زمننا الراهن.

إضافة إلى ذلك الاستعدادات الحربية لجيش غازٍ ضخمٍ «بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهّزين بخير عتاد وبصحبتهم ألف جمل وعددٍ لا يُحصى من الخيول التي حُمّلت بالفضّة والمؤن والذخائر»[1].

وإذا كانت مصر في بعض حكايات الليالي فضاء حرّاً تتحقق فيه حرية الفعل الجنسيّ، باعتباره فضاءً مفتوحاً على الموبقات والمعاصي ـ وهي في هذا تشبه بغداد إلى حد بعيد، بل هي تفوقها ـ فإنه من الطبيعي أن يكون من بين هذه المعاصي شرب الخمرة. ففي حكاية «**الملك الناصر وولاته الثلاثة**»[2]، يعترف والي القاهرة للملك الناصر بأن رجلين من رجال سلطته القضائية كانا ولعين بالخمرة، وما استطاع أن يضبطهما متلبّسين بالجرم، عندها احتال عليهما، وعندما ضبطهما عفا عنهما مقابل تقديمهما له رشوة مالية[3]، على أنّ والي القاهرة لم يكن معنياً في الحكاية بمنع الناس من شرب الخمرة[4]، لأنه كان هناك دكاكين «للخمارين»[5]، كما تذكر الحكاية، بل كان همّه أن يضبط هذين الرجلين من رجال سلطته، حتى ينتقم منهما[6]، من دون الآخرين، ويقدّمهما إلى القضاء.

وفي حكاية «**النصراني لملك الصين**» يرتحل بطل الحكاية، وهو شاب بغدادي،

(1) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص45.

(2) الملك الناصر: (محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي، 684 ـ 741 هـ/ 1285-1341م): هو أحد سلاطين المماليك، تولّى عرش مصر ثلاث مرّات مختلفة ما بين عامي 1293م و1341م، وقد تطوّرت العمارة في عهده وازدهرت، وأشهر منجزاته القناة التي شقّها من الإسكندرية إلى النيل.
عن/لاندو، روم: **الإسلام والعرب**، ص100.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 115/3.

(4) في مدينة القاهرة التي عاشت رفاهية وثراءً واسعاً في عهد المماليك بسبب «نجاحهم في جذب تجارة شرق حوض البحر المتوسط إلى القاهرة التي صارت مركزاً للنقل التجاريّ»، [فولكف، أولج، م س، ص96]، يبدو طبيعياً أن تنتشر الحوانيت التي تبيع الخمور، هذا إذا عرفنا ميل المماليك ـ تاريخيّاً ـ على اللذائذ، والإمعان في اللهو وطلب المتعة، فقد «كان المماليك والأمراء في مقدمة صفوف الشعب إقبالاً على الفنون والملاهي ومتع الحياة ولذّاتها».
ينظر: البقيلي، محمد قنديل: **الطرب في العصر المملوكي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سلسلة المكتبة الثقافية، العدد 389، الطبعة الأولى 1984م، ص44.

(5) **ألف ليلة وليلة**، 114/3.

(6) م ن، 3/114.

ـ لا يذكر الراوي اسماً لهذا الشاب ـ إلى القاهرة، وينزل في أحد الخانات بحي «بين القصرين»، ويبيع تجارته، ويمعن في ملذّات الطعام والشراب: «وأقمت أياماً كل يوم أفطر على قدح الشراب وأُحْضِر اللحم الضاني والحلويات»[1]. وعندما يتعرّف إلى إحدى السيدات القاهريات الثريات، فإنها تدعوه إلى منزلها، وهناك يغيبان في حمّى الشراب والجنس كل ليلة: «فقدّمت لنا الجواري الطعام والمدام فإذا هي حضرة كاملة فشربنا إلى نصف الليل ثم اضطجعنا، ونمنا فنمت معها إلى الصباح، فما رأيت عمري مثل هذه الليلة »[2].

ونظراً لثراء القوم وبطرهم في القاهرة، وميلهم إلى اللذائذ والمتع، فإنّ حفلات شرابهم تكون عامرة بالطعام الفاخر. ويصف الرّاوي العشاء الذي أعدّه الشاب التاجر البغدادي، وأرسله إلى عشيقته القاهرية: «وجهّزت العشاء، فعملت جوزاً ولوزاً وتحتها أرز مفلفل، (...) وأخذت فاكهة ونقلاً ومشمشاً وأرسلتها»[3]. وإذا كانت عشيقة هذا الشاب (القاهرية) في إحدى صفاتها مخلّة بالعرف الاجتماعيّ باعتبارها هي الباحثة عن الرجال، الطالبة لهم، والفاعلة في علاقاتها الجنسيّة، لأنها هي التي تطلب من الشاب تحقيقها، وهي التي تبتزّه، لأنها تقبض منه بعد كل لقاء جسدي «خمسين ديناراً»[4]، فإنها، وعندما يفتقر هذا الشاب ويصرف كل أمواله عليها، تبدي نبلاً عميقاً وأخلاقاً كريمة، إذ تعيد له كل أمواله، وتملّكه كل أموالها، وتتزوّجه حلالاً. يقول الشاب[5]: «وأرسلت إلى الشهود فحضروا فقالت لهم اكتبوا كتابي على هذا الشاب واشهدوا أني قبضت المهر، فكتبوا كتابي عليها ثم قالت: اشهدوا أنّ جميع مالي الذي في هذا الصندوق وجميع ما عندي من المماليك والجواري لهذا الشاب فشهدوا عليها، وقبلت أنا التمليك وانصرفوا بعدما أخذوا الأجرة، ثم أخذتني من يدي وأوقفتني على خزانة وفتحت صندوقاً كبيراً، وقالت لي انظر هذا الذي في الصندوق،

(1) م ن، 1/131.
(2) م ن، 1/134.
(3) م ن، 1/134.
(4) م ن، 1/134.
(5) م ن، 1/137.

فنظرت فإذا هو ملآن مناديل، فقالت هذا مالك الذي أخذته منك (...) فخذ مالك فقد ردّه الله عليك».

إنّ هذا الملمح النبيل لصورة الأنثى في الليالي لا يتكرّر كثيراً، لأنّ الغالبية العظمى من نساء الليالي محتالات وداعرات، ومبتزّات لأموال الرجال، وهذا ما تثبته البنية الفكرية والإيديولوجية لمجمل الرّواة الذين أضفوا على نساء الليالي مزيداً من الدونية والمكر والخداع ونقص العقل[1].

ومن وجوه القاهرة في ألف ليلة وليلة: وجه الاحتيال واللصوصية، وهو الوجه الأبرز لهذه المدينة، فهناك المرأة المحتالة، وهناك الرجل المحتال، سواء أكان لصّاً أم فقيراً صعلوكاً، أم ملكاً كبيراً.

ومن لصوص القاهرة المحتالين، ما ذكره الراوي في حكاية «**الملك الناصر وولاته الثلاثة**»، فبينما كان والي بولاق يوماً من الأيام جالساً في داره مهموماً، من جرّاء دَين أصابه: «ثلاثمائة ألف دينار» [2]، وإذا بمجموعة من اللصوص يطرقون بابه، ويقولون له[3]: «إننا لصوص وغنمنا في هذه الليلة غنيمة عظيمة وجعلناها برسمك لتستعين بها على هذه القضية التي أنت مهموم بسببها وتسدّ بها الدَّين الذي عليك». فما كان من الوالي إلاّ أنّ قدّر الموقف الذي عدّه كريماً من هؤلاء اللصوص، وأعطاهم المئة ألف دينار، التي كان قد ادّخرها لرد دينه، كما يذكر الراوي[4]، معتبراً أنّ هذا المبلغ جزء من ثمن هذه الغنيمة التي ظنّ أنها كافية لردّ كل ديونه، إلاّ أنّ اللصوص لم يكونوا أصحاب مروءة، فهم مجرّد لصوص محترفين[5]، ومحتالين مهرة.

(1) لمزيد من الاطلاع على آراء هؤلاء الرّواة الإيديولوجية المعادية للمرأة، ينظر: **ألف ليلة وليلة**، 2/299،293. و: 3/171.

(2) م ن، 3/116.

(3) م ن، 3/116.

(4) م ن، 3/116.

(5) وعبر تاريخها الطويل عانت القاهرة من اللصوص الكثر الذين انتشروا في أزقتّها ومقابرها، ونظراً لكثرة اللصوص في القاهرة المملوكيّة، والذين شكّلوا خطراً على الحوانيت التجاريّة، وبخاصة في الليل، فقد انتشر في القاهرة «حرّاس موكّلون بحراسة الحوانيت يقومون بأعمال الدورية».
ينظر: فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص103.

وتنطلي الحيلة على والي بولاق، ويفاجئنا راوي الحكاية بمكوّنات هذه الغنيمة، على لسان الوالي نفسه: «فلما أصبح الصباح رأيت ما في الصندوق نحاساً مطليّاً بالذّهب والقصدير يساوي كله خمسمائة درهم. فعظم عليّ ذلك وضاعت الدنانير التي كانت معي، وازددت غمّاً على غمّي»[1].

ويبقى سرد الـراوي لهذه الحكاية ليس بريئاً، و«ليست هناك حكايات بريئة»[2] في ألف ليلة وليلة، فهذا الراوي يُدين بشكل غير مباشر سلوك والي بولاق المتعاطف مع الظَلَمة في مدينته من جهة، يشير من جهة أخرى إلى الجهل الذي تغرق فيه السلطة، فبدلاً من أن يقبض الوالي على هؤلاء اللصوص، ويردّ ما سرقوه إلى أصحابه، ويكشف ما في الصندوق قبل ذهابهم، فإنه يعطيهم مائة الألف دينار، ويتركهم يمضون» تحت الليل إلى حال سبيلهم، ولم يعلم بهم أحد»[3].

وقد كان فقراء القاهرة في الليالي قادرين أيضاً، على حبك الحيلة في أعلى تقنياتها. فها هو معروف الإسكافي، بعد أن يهرب من القاهرة ويلجأ إلى «اختيان الختن»، يمارس الاحتيال ويدّعي أنه تاجر ثري كبير، وأنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل بعد أيام إلى المدينة، ويصدّقه الناس، ويقرضونه» ستين ألف دينار»[4]، ويوهم الناس بأنّ أمواله الكثيرة جداً القادمة مع الحملة قادرة على تبديد فقر المدينة، فيقوم بتوزيع المبلغ الذي اقترضه على فقراء المدينة[5]، ومن ثمّ لتكون هذه الحيلة طريقاً إلى كسب ودّ الملك، فما كان من الملك إلاّ أن قرّبه، ورغب في تزويجه ابنته الجميلة[6]. ووفق النسق السحريّ الذي يحكم بنية السرد والفضاءات المكانية، التي يرتحل إليها السرد، يضفي الراوي على سلوك معروف الإسكافي هالة من الثراء الأسطوري، فيبدأ

(1) **ألف ليلة وليلة**، 116/3.

(2) هذا هو جزء من عنوان كتاب: Miquel, André: Sept contes des mille et une nuits, ou il n'ya pas de innocent, Paris, Éditions Sindbad,1981 conte.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 116/3.

(4) م ن، 4/381.

(5) م ن، 4/382.

(6) م ن، 4/383.

بتشكيل حالات من التخيّل الكاذبة، تقوم بدورها في حبك حيلة جديدة على الملك وابنته، إذ يدّعي أنه سيقدّم لابنة الملك مهراً يليق بمكانتها السياسيّة والاجتماعيّة. يقول معروف الإسكافي[1]: «لابدّ أن أدفع صداقها خمسة آلاف كيس، وأحتاج إلى ألف كيس أفرّقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة، وألف كيس أعطيها للذين يمشون في الزّفّة، وألف كيس أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم؟ وأحتاج إلى مائة جوهرة أعطيها للملكة صبيحة العرس، ومائة جوهرة أفرّقها على الجواري والخدم، فأعطي كل واحدة جوهرة تعظيماً لمقام العروسة؟ وأحتاج إلى أن أكسو ألف عريان من الفقراء ».

إنّ هذا التخيّل السحريّ الخارق، الذي يحلم به رجل إسكافي فقير، هو بنية تتكرر في غير حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، فعندما يجد هذا الفقير أنّ الواقع الذي يعايشه لا يحقق ما يصبو إليه، فإنه يتحايل على من حوله، ويضفي على حيلته تخيّلات لا تتحقّق إلاّ بالمصادفات الغرائبية السحريّة الموجودة في ألف ليلة وليلة، فـ«في النصوص العجائبية ـ وألف ليلة وليلة من أهمها ـ يروي المؤلف أحداثاً غير قابلة للوقوع في الحياة»[2]. وطالما أنّ الراوي الشعبي يعايش واقعاً أسود، ويتموضع في طبقة دونية مهمّشة منه، فإنه شكّل بطلاً شعبياً كمعروف الإسكافي، جعله يتجاوز هذه الطبقة الدونية وفق عمليات التخيّل، وصولاً إلى الطبقة العليا، والزواج بإحدى نسائها، وحمّل هذا البطل أحلامه الملغاة وأوهامه التي يستحيل أن تتحقق في واقعه الأسود، ففي الأدب الشعبي» سبق لأقدم الشعوب بحقّ أن حقّقت رغباتها في حكاياتها، وهي تلك الرغبات التي لم تظفر بتحقيقها قطّ في الحياة»[3].

ويبقى فضاء مصر من أهم الفضاءات المكانية التي يعتمد فيها الناس، من

(1) م ن، 4/385.
وهكذا وردت إشارات الاستفهام في النصّ، فآثرت أن أتركها كما هي.

(2) تودوروف، تزفيتان: **مدخل إلى الأدب العجائبي**، ترجمة الصديق بوعلام، مراجعة د.محمد برّادة، دار شرقيات، القاهرة، الطبعة العربية الأولى، 1994م، ص49.

(3) ديرلاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافيّة**، ترجمة د.نبيلة ابراهيم، مراجعة د.عزّ الدين اسماعيل، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان/أبريل 1973م، ص131.

خلال علاقاتهم الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، على الحيلة لتحقيق مآربهم. وعلى الرغم من أنّ بغداد كانت حقلاً خصباً للشطّار والمحتالين، إلاّ أن القاهرة فاقتها في خبرات الاحتيال في بعض الأحيان، فها هو علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري يأتي إلى القاهرة، وعندما يصل إلى مدينة بغداد يحتال على بوّاب مدينتها وعلى سكانها مدّعياً أنه تاجر كبير، ويوهمهم أنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل إلى بغداد بعد أيام قليلة[1]، وهاهو علي الزيبق المصري يبزّ كل محتالي بغداد، ويتفوّق على حيلهم بحيل أشدّ ذكاء ومهارة منها.[2]

لقد كان «القصاصون العرب [في ألف ليلة وليلة] مدينين للمصريين بأعمال اللصوص الماكرة وبالحيل»[3]. وقد ظهرت معظم أشكال المكر والاحتيال في كل مدن ألف ليلة وليلة ـ العربية وغير العربية ـ وبخاصة في مدينتي القاهرة وبغداد. ولم تقتصر الحيلة على مذهب دون آخر، فهي عند المسلمين والمسيحيين واليهود والمجوس، وهم مواطنو مدن ألف ليلة وليلة. وقد تورّط فيها أهم ملوك مصر في الليالي، وهو الملك الناصر (أشهر سلاطين المماليك)، إذ احتال هذا الملك على وزيره، أبي عامر بن مروان، لكي يأخذ منه غلاماً جميلاً من غلمان النصارى كان قد أُهدي إليه، وبعد أن يأخذه حيلة، يشي أعداء أبي عامر عند الملك الناصر بأنّ «عنده من الغلام بقية حرارة وأنه لا يزال يلهج بذكره حين تحركه الشمول فيقرع السنّ على إهداء الغلام»[4]. وعندما سمع الملك الناصر هذه الوشاية قرر أن ينتقم من وزيره أبي عامر، بعد أن يحتال عليه ليكشف مدى إخلاصه وولائه له، بكتابة رسالة مزوّرة عن لسان الغلام، يطلب فيها من مولاه الوزير أن يتحايل في استدعائه من عند الملك،

(1) **ألف ليلة وليلة**، 213/3-214.

(2) وقد احتال هذا الرجل على طبّاخ دليلة المحتالة ـ وهي أشهر امرأة محتالة، هي وابنتها زينب النصّابة في جميع حكايات ألف ليلة وليلة ـ وعلى عبيدها وكلابها، وذلك بأن سقى الطباخ خمراً، ثم وضع البنج في الطعام الذي ستأكل منه العبيد والكلاب، ودليلة وابنتها زينب، حتى يتمكّن من سرقة جميع الثياب التي سرقتها دليلة من متاجر بغداد.
لمزيد من الاطلاع ينظر: **ألف ليلة وليلة**، 4/152، 154.

(3) دير لاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافية**، ص217.

(4) **ألف ليلة وليلة**، 446/4.

لأنه لا يطيق الصبر على مفارقته، وأنّه غير راغب بالبقاء في دار الناصر، لكن الوزير وبفطنته السياسيّة اكتشف أنّ هذه الرسالة ما هي إلاّ مكيدة من الملك لاكتشاف مدى إخلاصه، فأخذ رسالة الغلام، وكتب على ظهرها هذه الأبيات: [1]

أمـن بعـد أحـكام التجـارب ينبغـي لذي الحزم أن يسعى إلى غابة الأسد
ولا أنـا ممـن يغلـب الحـبّ عقلـه ولا جاهـل مـا يدّعيـه أولو الحسـد
فـإن كنت روحـي قد وهبتـك طائعاً وكيف تردّ الروح إن فارقت جسدي.

ويتابع الراوي قائلاً:[2] «فلما وقف الناصر على الجواب تعجّب من فطنته ولم يعد إلى استماع واشٍ فيه بعد ذلك».

وقد كان ملوك مدن الليالي، سواء أكانت عربيّة أم أجنبيّة، يستشيرون ويقرّبون أصحاب الحيل الأذكياء، وعندما يجدون أنفسهم عاجزين عن حلّ مشكلة معيّنة، فقد كانوا يأخذون بآرائهم، وبخاصة آراء العجائز الماكرات اللواتي يفقن رجال زمانهنّ مكراً ودهاءً وخبرةً معرفيّة. فعلى سبيل المثال نجد أنّ الملك أفريدون ملك القسطنطينية، عندما تهزمه الجيوش الإسلاميّة ـ جيوش الملك شركان حاكم دمشق، وأخيه ضوء المكان حاكم بغداد ـ يلجأ إلى العجوز شواهي ذات الدواهي (أم حليفه الملك حردوب)، لكي تخطط له كيف يحارب ويحتال على الجيوش الإسلاميّة،[3] أي أنّ أصحاب الحيل والمكر والمكيدة ـ في الليالي ـ لم يكونوا يحتالون من أجل كسب العيش، أو إشباع شهواتهم الجنسيّة، أو من أجل الحصول على منصب يقرّبهم من السلطان فحسب، بل كانت لديهم معارفهم في خطط الحروب العسكرية، وكانت لهم نظرتهم الثاقبة، لما يجري في مدنهم، وعلاقاتها الطبقيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وقد تعلّموا الحيلة وأتقنوها وتفننوا في حبكها.

إنّ القاهرة التي تبدو واقعية في الليالي تمتزج بكثير من اللوحات السحريّة،

(1) م ن، 4/446.
(2) م ن، 4/446.
(3) **ألف ليلة وليلة**، 357/1.

والتخيّليّة[1]، التي أضفاها الرواة عليها، وهذه حال معظم مدن الليالي. فالمدينة الواقعيّة لا تتشكّل من فضاءاتها وعاداتها وملامحها التاريخيّة الواقعية فحسب، بل توغل بعيداً في السحر والخرافة إذا ما رأى الرّواة أنّ ثمّة ضرورة لهذا السحر، لأنّ الحدث الواقعي لا ينمو مكتفياً بذاته في مدن الليالي، بل يحتاج إلى حوافز سحريّة لاستكمال بنائه.

ويحفل الفضاء السحريّ للقاهرة، في حكايات الليالي، بالجان وبأولاد ملوك الجان. ومن ملامح العوالم التخيّليّة والسحريّة التي تحتفي بالجان والعفاريت ما يسجّله الراوي في حكاية «**معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة**»، فعندما يهرب معروف من شرّ زوجته وظلمها يجلس باكياً عند إحدى الدور الخربة المهجورة بحي العادلية، وإذا بحائط الدار ينشقّ، ويبرز منه مارد «طويل القامة رؤيته تقشعر منها الأبدان»[2]، ويطلب منه أن يخبره بقصته حتى يساعده، وعندما يعرف قصّته مع زوجته يقول له[3]: «أتريد أن أوصلك إلى بلاد لا تعرف لك زوجتك فيها طريقاً؟ قال له: نعم. قال: اركب فوق ظهري. فركب وحمله وطار به بعد العشاء إلى طلوع الفجر، وأنزله على رأس جبل عالٍ». ولأنّ معروفاً الإسكافي يعيش في فضاء شعبي مصري يؤمن بالسحر والقدرات الخارقة للجان والعفاريت، فإنّ الرّاوي ـ في ما بعد ـ يقدّم له كل الحوافز (الموتيفات) السحريّة التي تجعله غنيّاً في مدينة «اختيان الختن» الأسطورية، ثم ملكاً عليها، إذ يقدّم له كنزاً أسطورياً في طريق رجوعه من «اختيان الختن»، بعد أن هبطت عليه المواجع والأحزان. ويذكر الراوي أنه بينما كان عائداً شاهد رجلاً مسكيناً يحرث أرضه في إحدى القرى الصغيرة، فعرض عليه أن يساعده في الحراثة، ومن

(1) وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ القادمين إلى القاهرة كانوا يشاهدونها مقارنة بمدنهم، وكأنها منسوجة من عوالم خيالية، بل هي تصل في غرابة حياتها إلى حدّ يفوق التخيّل، ويُروى عن الفقيه الكاتب أبي القاسم البَرْجي قاضي العسكر بفاس، أنه قال عن القاهرة: «إنّ الذي يتخيّله الإنسان فإنّما يراه دون الصورة التي تخيّلها لاتّساع الخيال عن كل محسوس، إلاّ القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيّل فيها».
عن/ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، 1/86.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 374/4.

(3) م ن، 4/374.

خلال حراثته وجد كنزاً كبيراً غاصّاً بالأموال والجواهر الثمينة[1].

إنّ الراوي الشعبي، وهو يقدّم هذا الكنز الكبير لبطله معروف الإسكافي، لن يعرّضه لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق، وهو في طريق عودته إلى «اختيان الختن»، بل سيقدّم له ـ حتى تصل الحكاية إلى ذروتها ـ حرّاساً لهذا الكنز، ولأنّ حراس هذا الكنز الكبير قد يعجزون عن الدفاع عنه، فيما إذا كانوا بشراً عاديين، فإنه وفقاً للنسق السحريّ الغرائبي، سيقدّم له خاتماً سحريّاً يخدمه مارد من الجان[2]، وستسهم هذه الأداة السحريّة في نمو الحكاية، لأنّها ستعيد معروفاً الإسكافي إلى مدينة «اختيان الختن» مكللاً بالمال والمنعة، ومن شأن هذه الأداة السحريّة أنّها تساعد البطل» في النهاية [على] التخلص من سوء الطالع، ولكن قبل استلام الأداة السحريّة يصبح البطل عرضة لعدد مختلف من الأحداث التي تؤدّي كلها، على أية حال، إلى نتيجة حصوله على تلك الأداة»[3]. ولم تسهم هذه الأداة السحريّة في تخليص معروف الإسكافي من سوء طالعه فحسب، بل قذفت به إلى أعلى المراتب الاجتماعيّة والسياسيّة وتوّجته ملكاً على «اختيان الختن»، بعد أن أثبت للناس جميعاً أنّه صادق في ثرائه، وأثبت لوالد زوجته الملك أنه كفؤٌ لابنته الجميلة.

ويتكرّر إسعاف البطل في حكايات ألف ليلة وليلة المصرية بالأداة السحريّة

(1) لمزيد من الاطّلاع على محتويات هذا الكنز الأسطوري ينظر: **ألف ليلة وليلة**، 395/4.

(2) يقول، الرّاوي: «ثم إنّه فتحها [العلبة الذهبية] فرأى فيها خاتماً من الذهب مكتوباً عليه أسماء وطلاسم مثلاً دبيب النمل فدعك الخاتم وإذا بقائل يقول لبيك يا سيدي فاطلب تعط؟ هل تريد أن تعمّر بلداً أو تخرّب مدينة، أو تقتل ملكاً أو تحفر نهراً أو نحو ذلك؟ فمهما طلبته فإنّه قد صار بإذن الملك الجبّار خالق الليل والنهار». م ن، 395/4.

(3) بروب، فلاديمير: **مورفولوجيا الحكاية الخرافيّة**، ترجمة وتقديم أبو بكر أحمد باقادر وأحمد عبد الرحيم نصر، منشورات النادي الأدبي الثقافي جدّة، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م، ص100.
وهذه الأحداث التي أشار إليها فلاديمير بروب تتشكّل أيضاً في حكاية معروف الإسكافي، ولعلّ أهمها: ادعاء معروف الإسكافي بأنّه تاجر ثريّ، وأنّ حملته التجاريّة لم تصل بعد إلى المدينة [388/4]، ثمّ زواجه بابنة ملك اختيان الختن [388/4]، ثمّ شكّ وزير الملك بمعروف، ومحاولة التآمر عليه عند الملك [389/4]، ثمّ اعترافه أخيراً أمام زوجته (ابنة الملك) بأنّه رجل إسكافي وهارب من زوجته الشريرة بمصر [391/4]، ثم خروجه من المدينة حزيناً باكياً على فراق زوجته بنت الملك [393/4].

التي تنقله من وضع طبقيّ دوني إلى وضع آخر متميّز، سلطوي وثري، أو تزيل عنه همّاً أو ظلمًا حلّ به، وبخاصة إذا كان هذا البطل من أفراد الطبقة الشعبيّة، فالراوي في حكاية «**جودر وأخويه**»، يجعل التاجر المغربي يقدّم لجودر ـ عندما لقيه في الحجّ ـ خاتماً سحريّاً، وذلك بعد أن كان أخواه سالم وسليم قد تآمرا عليه وباعاه إلى رئيس بحر السويس، ولهذا الخاتم خادم من الجان اسمه الرعد القاصف، يقوم بمساندة البطل، ويتكفّل بنقله إلى مصر[4]، وهنا يمكن القول: إنّه لا غرابة ـ وفق المنطق السحريّ العجائبي الذي يتحكم في علاقات الأبطال وارتحالاتهم ـ في أن ينقل العفريت ـ خادم الخاتم السحريّ ـ جودر بن عمر من مكّة إلى مصر، لأنّ المعتقد الشعبي» يجعل للجان من القوى والسمات الفائقة ما يقدّمهم على الإنسان نفسه، فلا يعود الإنسان مركز المخلوقات، ولا هو الذي أمر الله الملائكة أن يسجدوا له ففعلوا إلاّ إبليس فقد أبى واستكبر، وإنّما هو أدنى قوة وأقلّ سلطاناً من الجان..»[2]. وستسهم هذه الأداة السحريّة (الخاتم) في ما بعد[3]، في أن تقدّم لجودر أجمل امرأة في المدينة، وهي الأميرة آسية بنت الملك شمس الدولة[4]، وفي تتويجه ملكاً على مصر، بعد أن يموت ملكها شمس الدولة[5].

إذا كان الراوي في بعض الحكايات المصرية لا يقدّم لأبطاله الفقراء الأداة السحريّة التي ستجعلهم يتجاوزون مدنهم ومواطنيهم مالاً وسلطة، فإنه لا يحرمهم من الكنوز الأسطورية[6] التي تجعلهم في مصافِّ الملوك ثراءً. ويبقى تقديم هذه

(4) **ألف ليلة وليلة**، 80/4.

(2) صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة 1971م، ص153-154.

(3) وقبل أن يُقْتَل جودر بفعل السمّ الذي دسّه له سالم وسليم، في مأدبة الطعام التي أقاماها له.
ألف ليلة وليلة، 4/91.

(4) م ن، 89/4.

(5) م ن، 90/4.

(6) يقول وردان: «وبعد ذلك نظرت في المحلّ [دهليز تحت الأرض] فوجدت فيه من الذّهب والفصوص واللؤلؤ ما لا يقدر على جمعه أحد من الملوك». [84/3]. ولماذا لم يقدّم الراوي الأداة السحريّة لوردان الجزّار؟ لأنّ الحكاية وقعت في زمن الحاكم بأمر الله*، وهو شخصية تاريخيّة حقيقيّة حكمت مصر، ولو أنّه قدّم هذه الأداة لجعل وردان الجزّار حاكماً على مصر بدلاً من الحاكم بأمر الله، وهذا سيجعل الحكاية تفتقد مصداقيتها التاريخيّة، وبخاصة إذا عرفنا أنّ هذا الرّاوي يحاول أن يوهم قارئه بواقعية حكايته، وصحّة تاريخها، حين يقول: =

الكنوز لهؤلاء الأبطال المهانين اقتصادياً، نوعاً من التعويض والسمّو على الواقع الرثّ وتجاوزه بالاتكاء على الحلميّ والتخيّليّ الذي يحقّق الإنسان فيه كل ما يصبو إليه،» ففي المجتمع الذي لا تتاح فيه الحياة المنطلقة يهرب العامّة من مواجهة مشاكلهم ومنها مسألة الحصول على الثروة ـ إلى تخيّلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى ألقيت التعزيمة المناسبة»[1]. إلاّ أنّ الرّاوي، في موضع آخر، قدّم الأداة السحريّة (خاتم شبيك لبيك) إلى البطل الشعبي جودر ابن التاجر عمر، لأنّ زمان الحكاية أسطوري تخيّليّ، وملك مصر في هذا الزمان هو ملك أسطوريّ، واسمه «شمس الدولة»، وهو غير معروف تاريخيّاً من بين الملوك الذي حكموا مصر في الدولة الإسلاميّة.

ويُلاحظ أنّ الكنوز في الحكايات المصرية مرصودة بأسماء أبطال مصريين محددين[2]، ولا يمكن أن تفتح أبوابها إلاّ لهؤلاء الأبطال، وهاهو الحاكم بأمر الله يقول[3] لوردان الجزّار: «إنّ هذا الكنز لا يقدر لأحد أن يفتحه غيرك، فإنه مرصود باسمك وصنعتك (...) وهو عندي مؤرّخ وكنت أنتظر وقوعه حتى وقع».

إنّ فضاءات مصر في حكاية «**جودر ابن التاجر عمر** »هي فضاءات سحريّة

= «وهذا السوق موجود إلى الآن ويُعرف بسوق وردان». [85/3].

* الحاكم بأمر الله: (منصور بن العزير، 375 ـ411 هـ/985 ـ 1021م): هو الخليفة الفاطميّ الذي حكم مصر من سنة 996م إلى سنة 1021م. تردّت الدولة في عهده. وقد أمر بتدمير كنيسة القيامة في بيت المقدس عام 1009م، وقتل بعض وزرائه بدون سبب، وزعم أنّ الله تجسّد فيه. كان متطرفاً في التعصب وعدم السماح مع غير المسملين.

عن/روم، لاندو: الإسلام والعرب، ص95، 111.

(1) في حكاية «وردان الجزّار» يكتفي الراوي بتقديم الكنز إلى وردان دون الأداة السحريّة، [163] – صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، ص139.

(2) ولا يرصد الرّواة الكنوز المصرية للأبطال المصريين فحسب، بل يرصدون كنوزاً أخرى بأسماء هؤلاء الأبطال، كما في حكاية «جودر ابن التاجر عمر»، إذ نجد أنّ كنز الكهين «الشمردل» في مدينة فاس المغربية مرصود باسم «جودر»، مما جعل التّاجر المغربي يأتي مصر ليطلب من جودر أن يفتحه له [63/4]، وكذلك نجد أنّ الكنز البعيد في القرية الأسطورية التي يصل إليها معروف الإسكاف - لا يحدّد الرّاوي اسماً لها - هو مرصود باسم معروف الإسكافي الهارب من فقره وزوجته في مصر. [396/4].

(3) **ألف ليلة وليلة**، 85/3.

يسكنها ملوك الجان، ففي بركة» قارون»[1] يسكن الجان أولاد الملك الأحمر الذين أتوا من فاس[2]. وهذه البركة مرصودة أيضاً باسم الصياد «جودر»، إذ إنّ ملوك الجان الذين يعيشون على هيئة أسماك في هذه البركة لا يُنتصر عليهم إلاّ بشخص جودر ابن التاجر عمر، باعتباره التعويذة القادرة على فكّ سحرهم، كما يؤكّد الساحر الكهين الأبطن للمغربي عبد الصمد: «فرأيت أن هذا الكنز لا يُفْتَح إلاّ على وجه غلام من أبناء مصر اسمه جودر بن عمر، فإنه سيكون سبباً في قبض أولاد الملك الأحمر وذلك الغلام يكون صياداً، والاجتماع به يكون على بركة قارون ولا ينفعك هذا الرصد إلاّ إذا كان جودر»[3].

هذه هي بعض ملامح مصر والقاهرة في ألف ليلة وليلة، وإن غابت القاهرة في معظم الأحيان تسميةً في الليالي واستُبدلت بمصر، فإنها هي المعنيّة في أغلب الحكايات، لأنّ الرّواة يذكرون أحياء حقيقية عرفتها القاهرة قديماً، ولا تزال هذه الأحياء تحتفظ بأسمائها حتى وقتنا الراهن. كما أُشير إلى ذلك سابقاً.

إنّ القاهرة مدينة السحر، وهي تحتلّ في الأدب الشعبي مكانة مهمّة ومتميّزة، وهي «البلاد المليئة بالعجائب فحكاياتها الخرافية التي وصلت إلينا قد دُوِّنت في (...) أسلوب فني، وهي إلى ذلك تُعدّ ينبوعاً للتراث الشعبي والعقائد القديمة البالغة في القدم. وما يزال بعض هذه الحكايات يعيش في الحكايات الشعبية لدى كثير من الشعوب»[4]. ولا تزال فضاءات القاهرة الشعبية هي الفضاءات العربية الأولى ـ إذا ما استثنينا فضاءات مدن المغرب التي تضاهيهاـ المغلّفة بنكهة السحر والأساطير والحيل والتمائم والحُجُب، والأولياء الصالحين، والحشيش والجوزة (النارجيلة)،

(1) قارون: وزير فِرْعون الذي رفض أن يؤمن بما جاء به موسى عليه السلام، وقد طغى وتجبّر بسبب ثروته الهائلة التي كان يزعم أنّه حصل عليها بسبب علمه وبراعته في الكيمياء. وقد خسف الله به وبداره الأرض. ويرتبط قارون ببحيرة في مصر باسم بِرْكة قارون في الفيّوم. ويقول المقريزي في كتاب «الخُطط» إنّ كافوراً شيَّد داراً بجانبها فطرده منها الجن.
يونس، د.عبد الحميد: **معجم الفولكور**، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى 1983م، ص175.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 62/4.

(3) م ن، 4/62.

(4) دير لاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ص178.

والمقاهي التي لا تزال تحتفظ بطعم حكايات ألف ليلة وليلة، والنساء اللواتي يقرأن الكفّ ويفتحن المندل، ويغامرن في شعاب الحياة كما الرجال، بل ربما أكثر. ويبدو أنّ هذه المدينة الثّرية البطرة، التي تعاقبت عليها حضارات ومدنيّات وأمم كثيرة، كان لها حظّ وافر من الموسيقى والخمور والجواري والملاهي والنساء. والاحتفالات بأعياد الفرح، وإقامة طقوس لهوها الخاصة[1]، والمعارف والعلوم والطبّ والسحر وفنون الاحتيال.

وكما كانت حكايات مدينة القاهرة وغيرها من مدن ألف ليلة وليلة محكومة بثنائية الواقعيّ والتخيّليّ، فإنّ حكايات القاهرة المعاصرة هي الأخرى لا تزال موشومة بكثير من الواقعيّة السحريّة والتخيّل الغرائبي[2].

وأحبّ أن أشير في نهاية هذا العنوان إلى أنّ القرآن الكريم لم يذكر أي بلد عربي باسمه في كل آياته سوى مكّة ومصر[3].

وإذا كانت مصر في الأدبيات الكلاسيكية وكتب الرحالة مثالاً للرخاء والرفاهية،

(1) لمزيد من الاطلاع ينظر: صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي** من ص128 إلى ص131.

(2) يزعم ديزموند ستيورات العاشق للقاهرة الجميلة أنّه لا تزال بعض النساء الأجنبيات اللواتي عشقن الطبّ الفرعوني، تمارس بعض فنون السحر في قصور القاهرة الفارهة، حتى وقت متأخر، ويروي القصّة الآتية: «في أحد القصور المطلّة على النهر [نهر النيل] كان يقيم باشا مصري متزوّج من سيّدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطبّ الفرعوني القديم أن خصصّت له ثلاثة معامل. وفي إحدى المناسبات عارضها صديق ثري قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شرّاً فتحدّاها أن تُظهر قدراتها، فحبست عنكبوتاً سامّاً في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضاً من شعره وأظافره. ولم يحدث شيء، ثمّ اضطرّت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هي هناك وصلتها برقيّة تفيد أنّ صديقها هذا في المستشفى على وشك الموت ـ فيما يبدو ـ بالسرطان فاتّصلت من زيوريخ بالتلفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أنّ العنكبوت الذي كان على وشك الموت جوعاً داخل البرطمان قد فرض طريقاً عميقاً داخل التمثال، ربما سعياً وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدّامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملاً) فما إن تمّت العملية حتى شفي صديقها الضحيّة في الحال.».
القاهرة، ص161 ـ 162.

(3) والآيات الكريمة التي تشير إلى مصر هي: آية 61 سورة البقرة، آية 87 سورة يونس، آية 99 سورة يوسف، آية 51 سورة الزخرف.

والدولة العامرة بالحياة، والرافلة بالترّف، كما يذكر ابن خلدون[1] نقلاً عمن تحدّث عنها: «ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضي منه العجب، حتى إنّ كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النُقْلَة إلى مصر لذلك، لما يبلغهم من أنّ شأن الرَّفْه بمصر أعظم من غيرها»، فإنها لم تسلم من هجاء بعض الشعراء، الذين رأوها داراً للفسق والبغاء. يقول أحد الشعراء فيها:[2]

مصـر دار الفاسـقينا تسـتفزّ السـامعينا
فإذا شـاهدتَ شاهد تَ جنونـاً ومجونـا
وشـيوخاً ونسـاء قد جعلنَ الفسق دينا
فهي موت الناسـكينا وحيـاة النائكينـا.

(1) **مقدمة ابن خلدون**، 873/2 ـ 874.

(2) عن/ الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، 141/5. ولمزيد من الاطّلاع على ما قيل في هجاء مصر يُنظر هذا المصدر 141/5 ـ 142.

2 ـ دمشق

لمحة تاريخيّة عن دمشق

لا تّتفق معظم الدّراسات التي أرّخت لدمشق على تاريخ محدّد لبنائها وظهورها، بل نجد تبايناً واضحاً في معظم هذه الدّراسات التي حاولت أن تحدّد مسيرتها عبر تاريخها الطويل. إلاّ أنّ معظم هذه الدّراسات تتّفق على أنّ المدينة قديمة جدّاً.

ويرى الباحث في علم الآثار عفيف البهنسي[1]، أنّه في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ابتدأ اسم دمشق بالظهور، ولكنّ هذا لا يعني أنّ دمشق ابتدأت منذ ذلك التاريخ، بل ورد اسمها (دامسكي) في وثائق ايبلا التي تعود إلى عام 1230ق.م.

ويُرْوى عن كعب الأحبار أنّه قال[2]: «إنّ أول حائط وُضِعَ في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحرّان».

ويرى الباحث محمد حمّاد[3] أنّ دمشق من أقدم المدن التاريخية في العالم، وقد بنيت قبل مولد السيد المسيح بثلاثة آلاف سنة.

(1) «دمشق أقدم مدينة في العالم»، **مجلة التراث العربي**، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، السنة الرابعة عشرة، العددان 56/55، أبريل/ يونيو، 1994م، 233.

(2) الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، 464/2.

(3) **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص123.

ويرجع المؤرخ القديم يوسفوس تاريخ إنشاء مدينة دمشق إلى عهد عزّ بن آرام ابن سام بن نوح[1].

وتشير الدّراسات الأثرية إلى أن اسم دمشق ورد في ألواح فرعون مصر تحوتمس الثالث[2] بلفظ «تيماسيك» مع أسماء المدن التي احتلّها، وهذا ما تشير إليه جدران معبد الكرنك في الأقصر (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)[3].

وترى العالمة الأثريّة (جارود)[4] أنّ دمشق تعود إلى العصر الحجري الذي يعود إلى مئات ألوف السنين، وقد كانت مأهولة جداً بالسكّان الذين انتشروا في المرتفعات المحيطة بها، وعلى ضفاف نهريّ بردى والأعوج.

لقد توالت على دمشق عبر تاريخها الطويل أقوام غازية، واستوطنت فيها، وتولّت شؤونها وأمور الحرب والسلم فيها، فقد استوطنها الآراميّون[5] خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، وفي هذه الفترة انتشر اسم (آرام) أو مملكة آرام وعاصمتها دمشق، وتعني كلمة آرام الأعالي، واسم آرام كما ورد في النّصوص يعني أيضاً دمشق[6].

وكانت دمشق في العهد الآرامي منيعة وقويّة وقادرة على فرض «سيطرتها على مملكة إسرائيل المجاورة في أكثر الأحيان، بل إنّها كانت تقاوم دولة الأشوريين نفسها وتنتصر عليها أحياناً. وقد اقترنت هذه السطوة السياسيّة بالازدهار التجاريّ فاتّصلت

(1) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص232.

(2) تحوتمِس الثالث: (نحو 1504 ـ 1450ق.م): من أعظم ملوك مصر القدماء. غزا البلاد السورية 17 مرّة، وأنشأ إمبراطورية بين الفرات ومصر.
العلايلي، عبد الله، وآخرون: **المنجد في الأعلام**، ص184.

(3) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص233.

(4) عن/ م ن، ص235.

(5) الآراميّون: شعب ساميّ بدويّ النشأة، ظهرت قبائله حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، في شمال بلاد ما بين النهرين وعلى الفرات الأوسط، حيث استقرّ بعضهم وتحضّر، والبعض الآخر أسّس ممالك مستقلّة في سورية، أهمّها حماة وتل برسيب ودمشق، وقد زالت كلّها بعد سقوط دمشق في أيدي الأشوريين.
المنجد في الأعلام، ص3.

(6) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص234.

بفينيقيا وبلاد الجليل وصدّرت إليهما القمح والخمر كما كانت فوق ذلك، مركزاً دينيّاً يتمتّع معبدها بنفوذ واسع لم يفقده إلاّ في أواخر عهد الوثنيّة»[1].

ونظراً لأهميّة المدينة، ولطمع الغزاة في خيراتها، فقد تصارع هؤلاء الغزاة الكثر من أجل السيطرة عليها، فقد سيطر عليها الأشوريّون[2] بعد أن أخضعوها بقيادة «تيجلات ـ بايلسر الثالث» عام 731 ق.م (...) كما خضعت للكلّدانيين[3] تحت قيادة «نبوشاد رزار الثاني حوالي عام 604 ق.م»[4]، واحتلّها الفرس (الأخمينيّون)[5] من عام 538 إلى عام 333 ق.م[6]، وذلك في عهد الملك الفارسي «قمبيز Cambyes»[7]. ويُلاحَظ أنّه في عهد الاحتلال الأشوري والفارسي لم يحدث شيء ذو بال في حياة دمشق العمرانيّة.[8]

وفي عام 333 قبل الميلاد فتحها الإغريق اليونانيّون بقيادة الإسكندر

(1) منيمنة، د.سارة حسن: «**مورفولوجية مدينة دمشق**»، ص236.

(2) الأشوريون: يرجّح المؤرّخون أنّ الجماعة الأشورية قد خرجت من الجزيرة العربية مع الأكاديين والهجرات الأولى حوالي 3000 ق.م، أو قبل ذلك. لكنّها نزلت في الشمال في سهول دجلة حيث ظهر كيانها، ثمّ أنشأت الدولة الأشورية (عاصمتها أشور) التي خضعت أول الأمر للسيطرة البابلية. وقد اكتسب الأشوريون الكثير من ثقافة جيرانهم السومريين والحثّيين، كما تمرّسوا بحياة الحرب والقتال.
نخبة من أساتذة الجامعات: **موسوعة بهجة المعرفة ـ مسيرة الحضارة**، بإشراف: النيهوم، الصادق، ترجمة د.ماجد فخري، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طبعة إيطاليا، 11/23 /1982م، المجلد الأول، المجموعة الثانية، ص106.

(3) الكلدانيّون: ينتسب الكلدانيون إلى قبيلةساميّة تسمى كالدو وربما كانت إحدى القبائل الآرامية التي استوطنت في منطقة الأهواز [بالعراق] عند سواحل الخليج العربي في القرن التاسع قبل الميلاد.
عثمان، د.عبد العزيز: **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم**، دار الفكر الحديث، بيروت، طبعة 1966م، ص375.

(4) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص125.

(5) الأخمينيون: سلالة فارسية أسّسها قورش الأول (القرن السابع قبل الميلاد)، من أشهر ملوكها قمبيز الثاني وداريوس الأول وأحشورش. امتدّت إمبراطوريتهم إلى بلاد اليونان الآسيوية والساحل الفينيقي وفلسطين ومصر. انقرضت بموت داريوس الثالث.
المنجد في الأعلام، ص27.

(6) البنيّ، د.عدنان: «دمشق من 538 قبل الميلاد إلى آخر القرن الثالث الميلادي»، **مجلة التراث العربي**، العددان 56/55، نيسان/أبريل، تموز/يوليو، 1994م، ص247.

(7) حمّاد، د.محمد: تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، ص27.

(8) منيمنة، د.سارة حسن: «**مورفولوجية مدينة دمشق**»، ص237.

المقدوني[1]، وقد أضفى اليونانيّون (356 ـ 324 ق.م) على دمشق نظاماً جماليّاً عمرانيّاً يشبه نظام مدنهم في التخطيط والتنظيم، إذ تشير الدّراسات إلى أنّ شوارع دمشق في العهد اليونانيّ أصبحت مستقيمة ومتقاطعة، وحُصِرت في ما بينها وحدات سكنيّة على هيئة الجزر التي تشبه في مجموعها رقعة الشطرنج، وقد أشارت الدّراسات الطبوغرافية إلى أنّ هذه الأحياء السكنيّة أقيمت إلى الجانب الشرقيّ من دمشق القديمة.[2]

وفي عام 64 قبل الميلاد استولى على دمشق القائد الرومانيّ «بومبي» Pompee، ولكن قبل هذا التاريخ ظهرت قوّة «الأنباط»[3] قوّة وطنيّة في المنطقة، وكوّنوا دولة عربيّة في الأردن وحوران (85 ـ 72 ق.م)، وكانت «البتراء» عاصمتهم، وقد نجح الأنباط في الوصول إلى دمشق، والسيطرة عليها مرتين، الأولى في عهد ملكهم (الحارث الثالث) عام 85 قبل الميلاد، والثانية في عهد (الحارث الرابع) عام 37 بعد الميلاد[4]. وتثبت المصادر أن الدمشقيّين رحّبوا بالملك الحارث الثالث وقلّدوه الملكيّة عليهم، وضربوا النّقود باسمه، ووضعوا صورته عليها[5].

وفي العهد الرومانيّ (64 ق.م ـ 325م) عرفت دمشق ازدهاراً اقتصاديّاً، وتضاعف

(1) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص125.
والإسكندر المقدوني: (356 ـ 324 ق.م) الملقّب بذي القرنين: ولد في مقدونية وتوفي في بابل. تعلّم على أرسطو. خلف أباه فيلبس وعزم على فتح إمبراطورية الفرس فانتصر عليهم في إيسوس 333 ق.م. ثمّ في سواحل فينيقيا بعد أن حاصر صور سبعة أشهر، ثم في مصر حيث أسّس الإسكندريّة 332 ق.م.
المنجد في الأعلام، ص43.

(2) منيمنة، د.سارة حسن: «**مورفولوجية مدينة دمشق**»، ص237.
وأخذت منيمنة عن/ الريحاوي، عبد القادر: مدينة دمشق، طبعة 1969م، ص46. دون أن تحدّد دار النشر واسم المدينة.

(3) الأنباط: قبائل بدويّة عربيّة، كانت لا تزال رحّالة حتى القرن الرابع قبل الميلاد. استوطنت جنوب فلسطين. اتخّذوا البتراء عاصمة لهم لحصانتها. ظهروا لأول مرّة في التاريخ عندما صدّوا هجمات القائد السلوقي أنتيعونس 312 ق.م. أشهر ملوكهم: الحارث الأول، والحارث الثاني، والحارث الثالث، وعبيدة الأول.
المنجد في الأعلام، ص706.

(4) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص125.

(5) البني، د.عدنان: «**دمشق من 538 ق.م إلى آخر القرن الثالث الميلادي**»، ص250.

عدد سكّانها، وشهدت حركة عمرانيّة واسعة، وأنشأ فيها الرومان[1] مشروعين مهمّين، وهما بناء سور يحيط بالمدينة، وفتح قناة جديدة لمياه الشرب[2]، وما إن أتى عهد الإمبراطور الرومانيّ (ديوكلتيان Diocletian) الذي حكم ما بين 284 ـ 305م، حتى تصبح دمشق أهمّ المراكز الحربيّة للجيوش الرومانيّة، وقد أولاها الإمبراطور هدريان (Hadrin) ـ الذي تولّى عرش روما ما بين (117 ـ 138م) ـ أهميّة خاصة، إذ منحها لقب «متروبول»، ويعني مدينة رئيسيّة[3]. وفي عهد هذا الإمبراطور أصبحت دمشق إحدى المدن العشرة (الديكابوليس)، الأكثر أهمية في العالم الرومانيّ[4]. وما بين عامي 222 ـ 235م، حكمها الإسكندر سيفيروس (Alexander Severus)، الذي ينحدر من أصول سورية، وقد نالت في حكمه بعض الامتيازات التي سمحت لها أن تلعب دوراً نشيطاً في الحياة الرومانيّة[5].

وسميّت دمشق في العهد الرومانيّ «مدينة الأعمدة»، لأنّ المباني العامّة فيها امتازت بالأعمدة الكثيرة التي بناها المهندس «أبولودرس الدمشقيّ»[6].

وقد شهدت دمشق في عهد الغساسنة[7] نشاطاً عمرانيّاً مزدهراً بلغ أوجه

(1) الرّومان: هم السكان الذين سكنوا مدينة روما. وقد تأسست روما في مقاطعة لاسيوم الإيطالية 753 ق.م. وكانت أول عهدها مملكة 753 ـ 509 ق.م. ثم أصبحت جمهورية 509 ـ 31 ق.م. اشتد فيها النزاع بين الأشراف والعامّة إلى أن بلغ العامّة سائر الوظائف في القرن الثالث قبل الميلاد. ولما قويت المدينة الدولة بدأت الفتوحات فضمّت إليها أقاليم إيطاليا، 496 ـ 264 ق.م. ثمّ دمرت قرطاجة 146 ق.م. واحتلّت مكدونيا واليونان وآسيا الصغرى وسورية وحوّلتها إلى أقاليم رومانية.
المنجد في الأعلام، ص313.

(2) منيمنة، د.سارة حسن: م س، ص237.

(3) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنسانيّ عبر العصور**، ص125.

(4) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص240.

(5) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنسانيّة عبرالعصور**، ص125.

(6) م ن، ص126.

(7) الغساسنة: سلالة عربية يمنية الأصل. هجرت بلادها عند انفجار سد مأرب في القرن الثالث الميلادي. استوطنت بلاد حوران وشرقيّ الأردن وفينيقيا اللبنانية وفلسطين قبل الإسلام. اعتنقوا المسيحية في نهاية القرن الثالث. عملوا في الجيش البيزنطي وعهد إليهم حماية الحدود السورية. أشهر ملوكهم: الحارث بن جَبلة (529 ـ 569م)، المنذر بن الحارث (569 ـ 581م)، والنعمان بن المنذر (ت حوالي 595م).
المنجد في الأعلام، ص507.

خلال القرن السادس الميلادي، وذلك نظراً لما وصلت إليه دولة الغساسنة من رقيٍّ حضاريّ، وقد كان ببلادها كثير من الحصون والبيع والكنائس، وكانت مبانيها مجلّلة بالحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منها[1]، وقد بنى الغساسنة قصراً كبيراً في دمشق، وأطلقوا عليه «البريص»، وكان يقصده زعماء العرب، وينزلون فيه ضيوفاً على أمراء الغساسنة، وقد ذكره حسّان بن ثابت (ت 54 هـ/674م) في شعره، ومدح أمراءه قائلاً[2]:

للـه دَرُّ عِصابـة نادمتهـم ... يومـاً بجِلِّـق، فـي الزمـان الأوَّلِ
يَسْـقُون مَن وَرَدَ البَرِيـص عَلَيْهِم ... بـردى، يُصفّق بالرّحيق السّلسـل
يُغشَـون، حتـى مـا تَهـرُّ كلابُهـم ... لا يَسـألون عـن السَّـواد المُقْبِـلِ
بيض الوجوه، كريمة أحسـابهم، ... شُـمُّ الأنوف، من الطـرّاز الأول.

وفي رجب سنة 14 هـ/635م، أنهى العرب المسلمون الفاتحون النفوذ الأجنبي على دمشق. ويروي ياقوت الحموي[3]، أنّه نزل على كل باب من أبواب دمشق أمير من أمراء المسلمين، ونزل خالد بن الوليد على الباب الشرقيّ، ثم افتتحه عنوة، فأسرع أهل دمشق «إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ويزيد بن أبي سفيان وشُرحَبيل بن حسَنَة، وكان كلّ واحد منهم على ربع من الجيش، فسألوهم الأمان فأَمَّنُوهم وفتحوا لهم الباب، فدخل هؤلاء من ثلاثة أبواب بالأمان، ودخل خالد من الباب الشرقيّ بالقهر، وملكوهم وكتبوا إلى عمر بن الخطاب، (...) بالخبر وكيف جرى الفتح، فأجراها كلّها صلحاً».

هذا وقد أظهر الجيش الإسلاميّ الفاتح لدمشق موقفاً إنسانيّاً حضاريّاً، إذ حافظ على معالم المدينة التاريخية، غير الإسلاميّة، ولم يغصب أحداً على ترك منزله،

(1) حسن، د.حسن إبراهيم: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الجيل، بيروت/مكتبة النهضةالمصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عَشَرة، 1411 هـ/1991م، الجزء الأول، ص40.

(2) الأندلسي، ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، 88/4 ـ 89.
و: البـلاذري، أحمد بن يحيى بن جابـر: من كتاب **فتوح البلدان**، اختار النصوص وعلّق عليهـا د.شـوقي أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1997م، ص197.

(3) **معجم البلدان**، 465/2.

وأعطى الفاتح خالد بن الوليد (ت 21هـ/642م) لسكّان دمشق أماناً على أنفسهم وأموالهم.[1]

ثم صارت دمشق في ما بعد عاصمة للدوّلة الأمويّة، وشهدت في هذه الدوّلة ازدهاراً تجاريّاً وصناعيّاً وحربيّاً، بدءاً من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (40 ـ 60 هـ /660 ـ 680 م) مؤسّس الخلافة الأموية بدمشق[2]، وأصبحت في عهده المدينة الأولى في الشرق.[3]

وتمضي دمشق في تطورّها العمرانيّ والحضاريّ حتى تبلغ أوج عزّها ومجدها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (65 ـ 86هـ/685 ـ 705 م). وتتّسع الدولة الإسلاميّة في عهد ابنه هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ/ 724 ـ 743 م)، أقصى اتّساعها، وتصبح دمشق عاصمة مرموقة لإمبراطورية إسلاميّة لا نجد لها مثيلاً في الاتّساع، وذلك «في العصور القديمة ولم تبلغه في العصور الحديثة إلاّ الإمبراطوريتان البريطانية والروسية»[4].

وقد كانت دمشق في عصرها الأموي تعجّ بالمنشآت العمرانيّة الكثيرة التي تبدو غاية في الجمال، ومنها المسجد الأمويّ الذي بناه الوليد بن عبد الملك ابن مروان (86 ـ 96 هـ/705 ـ 715 م)، الذي يصفه محمد بن عبد الله القلقشندي[5]، بأنّه «أعظم مساجد الدنيا احتفالاً، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً، ولا يُعلَم له نظير، ولا يوجد له شبيه». وهذا الجامع هو إحدى عجائب الدنيا التي

(1) ويورد أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري نصّ عهد خالد بن الوليد لأهالي دمشق، والذي يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها: أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يُهْدم ولا يُسْكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية». من كتاب فتوح البلدان، ص196.

(2) حتي، فيليب: **الإسلام منهج حياة**، ص165.

(3) منيمنة، د.سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، ص238.

(4) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص241.

(5) «دمشق في القرن الثامن للهجرة»، ضمن كتاب: **درر وتحف من تراث السلف**، اختار النصوص:محمد علي السرّاج، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى، 1986م، الجزء الثاني، ص179.

يحددها ياقوت الحموي[1] بـ«قنطرة سنجة ومنارة الإسكندرية وكنيسة الرّها ومسجد دمشق».

ودمشق في العصر الأمـويّ مليئة بالحمّامات والفنادق والقيساريّات، والمشافي، وفيها دار للبريد ودار لضرب النقود، ودار للإمارة، وثكنات للجيش، ودار للخيل، وقصور فخمة، ومنها قصر الخضراء[2]، (قصر معاوية بن أبي سفيان).

وتنتهي فترة الخلافة الأمويّة بمقتل الخليفة الأمويّ مروان بن محمد (127 ـ 132هـ/ 744 ـ 749م)، بعد أن هزمته الجيوش العبّاسيّة وتبعته إلى مصر وقتلته بقرية بوصير من قرى الصعيد سنة 132هـ/750م[3]. وتفتح دمشق أبوابها أمام المغيرين العبّاسيّين بعد حصار قصير، ويدخلها هؤلاء، وينبشون قبور خلفائها، ويستأصلون الأحياء من سادة الأمويّين، إمّا غيلة وإمّا علناً[4]، ولا عجب في أن تفقد دمشق مركزيّتها السياسيّة والدينية والتجاريّة أيام الأمويّين، و«أن تغدو مدينة ثانوية في إطار الإمبراطورية الجديدة التي غدت حاضرتها الكوفة أول الأمر، ومن ثمّ بنت حاضرتها الجديدة: بغداد، وعملت على أن تكون قبلة الأنظار في كل المجالات»[5].

ولم يتوقّف الصراع على دمشق، بعد زوال الخلافة العبّاسيّة، بل خضعت هذه المدينة «للطولونيين وللأخشيدين وللفاطميين، ثم آلت إلى الأيوبيين الذين حصّنوها في وجه الصليبيين في العصور الوسطى»[6].

(1) **معجم البلدان**، 465/2.

(2) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص242 ـ 243.

(3) ابن طباطبا: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، ص138.

(4) حتي، فيليب: **الإسلام منهج حياة**، ص176.

(5) عاقل، د.نبيه: «دمشق.. من الفتح وحتى العصر العبّاسيّ ـ دراسة في العمران»، **مجلة التراث العربي**، العددان 55/ 56، ص83.

(6) حلاّق، د.حسّان: **مدن وشعوب إسلامية**، 46/1.
والطولونيون في مصر: «868 ـ 905م». والأخشيديون في مصر: «935 ـ 969م». والفاطميون في تونس ومصر: «909 ـ 1171م». والصليبيون: «1095م ـ 1254م».

وتستمرّ دمشق في تراجعها، وفقدانها لأهميّتها السياسيّة، ليخيّم الظلام والفقر عليها. ويقول المؤرخ ابن الجوزي[1] واصفاً الحال التي وصلت إليها دمشق في عهدها الفاطمي، وذلك أثناء حديثه عن حوادث العام 468 هـ/1075م: «لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء، وكان بها مائتان وأربعون خبّازاً فصار بها خبّازان، والأسواق خالية، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار يُنادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد».

وفي عام 468 هـ/1076 م، تخضع دمشق لسلطة السلاجقة (الأتراك)[2]، وتحت حكم هذه السلطة تعود دمشق لتزدهر من جديد، ولتتطوّر عمرانيّاً وحضاريّاً، إذ تُبنى قلعتها الشهيرة بقلعة دمشق في عام 470 هـ /1078 م، وتُحصَّن بالأسوار والأبراج والخنادق، ويُشاد فيها الحمّامات والمساجد والمدارس والقصور[3].

ثم تخضع دمشق للأيوبيين (1171 ـ 1250 م)[4]، وتستمرّ في ازدهارها الحضاريّ في هذه الفترة إذ تمثّل أهمّ مراكز النهوض الإسلاميّ[5]، المعرفيّ والعمرانيّ. وقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي (532 ـ 589 هـ/1138 ـ 1193م) في دمشق المدارس والكليّات، وذكر أحد الزوّار الذين زاروا دمشق عام 1184م، «أنّ فيها عشرين مدرسة، ومستشفيين مجانيين، وعدداً كبيراً من الخانقاهات»[6]، ومن هذه المدارس: العادليّة الصغرى والعادليّة الكبرى، والبارادئيّة والناصريّة والقلجيّة

(1) عن/عاقل، د.نبيه: م س، ص84. ولم يذكر اسم المصدر الذي أخذ منه.

(2) منيمنة، د.سارة حسن: «**مورفولوجية مدينة دمشق**». ص241.
والسلاجقة: أمراء تركمانيّون (1037 ـ 1300م)، جدّهم سلجوق. كان منهم عدة فروع أهمّها: السلاجقة الكبار، أنشأهم طغرل بك وجغري بك حفيدا سلجوق. سلاجقة كرمان، أسّسهم قرّه أرسلان. سلاجقة سورية، أسّسهم تتش بن أرسلان. سلاجقة العراق وكردستان، أسّسهم مغيث الدين محمود. سلاجقة الروم في آسيا الصغرى. **المنجد في الأعلام**، ص360.

(3) عاقل، د.نبيه: «**دمشق.. من الفتح وحتى العصر العبّاسيّ – دراسة في العمران**»، ص84.

(4) لاندو، روم: الإسلام والعرب، ص111.

(5) بيضون، د.إبراهيم: **الحجاز والدولة الإسلامية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1403 هـ/1983م، ص23.

(6) عن/ لاندو، روم: **الإسلام والعرب**، ص98.
والخانقاه: هي في الأصل لفظة معرّبة عن الفارسيّة وهي البقعة التي يسكنها الصالحون ورجال الصوفيّة.

والعزيزيّة، وقد كان فيها مائة حمّام وأربعون داراً للوضوء[1].

وعندما يستولي المماليك على بلاد الشام عام 648 هـ/1250م،[2] تدخل دمشق هي وغيرها من مدن الشام تحت سيطرتهم، وتصل إلى أقصى توسّعها في عهدهم، وتُبنى القصور الفخمة فيها، ومن هذه القصور: قصر الأبلق الذي أنشأه الملك الظاهر بيبرس[3] يزداد عدد المدارس ومنها: دار الحديث، والمدرسة الخيضريّة، والجوهريّة، وتُشاد الجوامع، ومنها جامع هشام والقلعي، وجامع الأمير تنكز، وجامع الأمير يلبغا، وتتسع ضواحيها، لتصبح في عهدهم من أجمل مدن العالم نضارة، ومن أكثرها ازدهاراً[4]، ولتكون «مدينة عظيمة البناء، ذات سور شاهق، ولها سبعة أبواب: باب كيسان والباب الشرقيّ وباب توما والباب الصغير وباب الجابية وباب الفراديس والباب المسدود»[5]. وفي فترة حكم المماليك، وتحديداً في عام 658 هـ/1260 م، تتعرّض هذه المدينة للتدمير والتخريب[6]، إذ يغزوها هولاكو[7] ويخرّبها، ثم تعود للازدهار ثانية بعد انتصار المماليك على المغول في عين جالوت[8]، ثم تُدمّر مرّة أخرى في عام 699 هـ /1300 م، ثم يحرقها

(1) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص244.

(2) زيادة، د.نقولا: «الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك»، **مجلة التراث العربي**، العددان 56/55، ص50.

(3) الملك الظاهر بَيْبَرْس: (ركن الدين، 625 ـ 676 هـ/1228ـ1277م): رابع سلطان المماليك 1260 ـ 1277م، ومؤسس سلطان المماليك الحقيقي. من مماليك الملك الصالح الأيّوبي. قاد معركة المنصورة التي انتهت بأسر لويس التاسع. حارب في «عين جالوت» ضد التتّر بقيادة الملك المظفّر قطز، وحارب الصليبيين 1265 ـ 1271م، وانتزع قلاعهم الواحدة تلو الأخرى وكسر التتّر في الأناضول. توّفي في دمشق.
المنجد في الأعلام، ص156.

(4) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص44.

(5) القلقشندي: «دمشق في القرن الثامن للهجرة»، في: **درر وتحف من تراث السلف**، ص173.

(6) حلاّق، د.حسّان: **مدن وشعوب إسلامية**، 47/1.

(7) هولاكو: (نحو 614 ـ 663 هـ/1217 ـ 1265): فاتح مغولي هو مؤسّس دولة المغول في إيران 1251 ـ 1265م. حفيد جنكيز خان، قضى على الخلافة العبّاسيّة 1258م، واحتلّ سورية. عاد إلى إيران بعد موت أخيه، فهاجم المصريون جيشه في الشام وأبادوه 1260م.
المنجد في الأعلام، ص734.

(8) منيمنة، د.سارة حسن: «**مورفولوجية مدينة دمشق**»، ص244.

تيمورلنك عام 802 هـ/1400 م[1]، ويخرّب المراكز الصناعيّة الكبيرة فيها.[2]

أخذت دمشق عبر تاريخها الطويل أسماء عديدة، فالاسم القديم لدمشق هو «دمشقا»، أمّا في التسمية الآرامية فتصبح «دار ميسيق»، أي الأرض المستقيمة[3]، وتأخذ في الآرامية اسماً آخر وهو «مشق»، ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغنّاء، وأطلق السريان عليها «درمسوق»[4]. أمّا المقدسي فإنّه يشتق اسم دمشق من اسم دمشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام[5]، وفي ألواح أثرية أخرى قُرئت دمشق بـ «دومشقا أو تيماشكي»[6]. وفي التوراة تأخذ اسم: «دامّيسيك ودومّيسيك ودارميسيك»، أمّا في النصوص الأشورية فقد سميت بـ: «دمشقا أو دمشقيّ أو دمشقو»، وفي وثائق إيبلا وردت دمشق تحت اسم «دامسكي» كما يقول بيتسيناتو[7]. أمّا الفاتحون المسلمون فقد أُعجبوا بجمال دمشق، وأطلقوا عليها «شامة الدنيا»[8]، و«جلّق» لقب من ألقابها[9].

إنّ لدمشق أهميّة استراتيجية متميّزة بين مدن العالم الإسلاميّ، فهي تُعدّ

(1) حلاّق، د.حسّان: **مدن وشعوب إسلامية**، 47/1.
وتيمور لنك أو تيمور الأعرج: (736 ـ 807 هـ /1336 ـ 1405م): ملك المغول وحفيد جنكيزخان. ولد في كش الغرب من سمرقند (تركستان). اعتلى العرش بدهائه وبطشه. فتح خوارزم وفارس وسورية ومصر. خرّب بغداد 1386م، واحتلّ موسكو. دخل في صراع مع العثمانيين فانتصر عليهم في معركة أنقرة 1402م. اتخّذ سمرقند عاصمة له وجاء إليها بالعمال والفنانين والعلماء، فازدهرت على أيامه.
المنجد في الأعلام، ص200.

(2) بريجز، كريستي أرنولد؛ Briges, Christie Hrnold: **تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة**، ترجمة د.زكي محمد حسن، دار الكتاب العربي، دمشق/مكتبة السائح، طرابلس (لبنان)، الطبعة الأولى، 1984م، ص32.

(3) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص124.

(4) منيمنة، د.سارة حسن: «**مورفولوجية مدينة دمشق**»، ص231.

(5) عن/ميكيل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام**، القسم الأول والثاني، ص25. وتتّفق هذه التسمية تماماً مع تسمية ياقوت الحموي لها في **معجم البلدان**، 463/2.

(6) البهنسي، د.عفيف: «**دمشق أقدم مدينة في العالم**»، ص233.

(7) م ن، ص233.

(8) عاقل، د.نبيه: «**دمشق.. من الفتح وحتى العصر العبّاسيّ – دراسة في العمران**»، ص74. ولم يذكر اسم المرجع الذي أخذ منه.

(9) م ن، ص77.

بإجماع الجغرافيين القدماء، من بين المدن الكبرى في تاريخ الدولة الإسلاميّة[1]، وتأتي أهميتها الاستراتيجية من حيث موقعها في طرف بادية الشام، وعلى ملتقى الطرق العسكرية والتجاريّة القديمة[2]، بالإضافة إلى وجودها في المنطقة التي يرويها نهر «بردى»[3].

وعَرفت دمشق عبر مسيرتها التاريخية ازدهاراً وثراء وحركة تجاريّة نشيطة، بفضل موقعها الجغرافي الذي جعلها قادرة على أن «تتحكّم في عدد كبير من الطرق الحربيّة والتجاريّة في العالم القديم والوسيط، لأنّها باب إلى صحراء مأهولة، تقوم من ورائها مكّة واليمن وبغداد وفارس والهند، وتقع عند أفضل مخرج من الصحراء إلى البحر عبر الثلمة الواقعة فيما بين الحرمون وجبال لبنان الشرقيّة، ثم عبر البقاع وجبال لبنان الغربيّة. كما أنّها كانت صلة الوصل بين مهدي الحضارة القديمة في مصر وما بين النهرين»[4].

ولم تكن التجارة هي الحرفة الوحيدة النشطة في دمشق، والتي ساهمت في ثراء الناس ورفاهيتهم، بل شهدت المدينة حِرفاً أخرى وصناعات كثيرة في عصورها التاريخية، فعلى سبيل المثال، كانت دمشق في عهد المماليك «تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنيّة والحريريّة والزجاج والخزف والزخرفات الحديدية والكاغِد[5] والصابون والعطور وماء الزهر والشموع والأحذية. وكانت

(1) ميكيل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام**، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص345 ـ 346.
ويحدّد أندريه ميكيل الأقاليم التي تضمّ المدن الإسلامية الكبرى، استناداً إلى المصادر الجغرافية القديمة، بما يلي: إقليم المغرب: قرطبة والقيروان. إقليم الديلم: شهرستان. إقليم مصر: الفسطاط. إقليم الجبال: همدان. إقليم جزيرة العرب: مكّة وزبيد. إقليم خوزستان: الأهواز. إقليم الشام: دمشق. إقليم فارس: شيراز. إقليم العراق: بغداد. إقليم كرمان: السيرجان. إقليم أقور: الموصل. إقليم السند: المنصورة. إقليم الرحاب: أردبيل. إقليم المشرق: نيسابور وسمرقند.
ص:345 ـ 346 من جغرافية دار الإسلام، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث.

(2) حلاّق، د.حسّان: **مدن وشعوب إسلامية**، 46/1.

(3) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص124.

(4) منيمنة، د.سارة حسن: «**مورفولوجية مدينة دمشق**»، ص232.

(5) الكاغد: القُرْطاس (من الفارسية): الصحيفة التي يُكتب فيها.
المنجد في اللغة، مادة: كغد، ص689.

المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذّهب والفضّة. وكانت تُقرن بالقاهرة، وكان بعض الأوروبيين يفضّلونها على باريس وفلورنسة..»[1].

وتشير المصادر التاريخية إلى متاجر دمشق المملوكيّة العامرة بكل أصناف البضائع، حيث المصوغات الرائعة الأنيقة، والأقمشة الحريريّة مختلفة الأنواع، والكميات الكبيرة من الأقطان التي تعدُّ من أجمل ما في العالم من أقطان، من حيث نعومتها ولمعانها، والبروكار، وطسوت النحاس والأباريق التي تبدو كأنّها من الذّهب، والمزخرفة بنقوش من الأشكال والأوراق، إضافة إلى ما يُصنع من الفضّة، بشكل فنّي جماليّ متميّز، تُسرّ العين لرؤيته.[2]

ولقد شهِدت دمشق عبر تاريخها نشاطاً علمياً ومعرفيّاً كبيراً في مختلف المعارف والعلوم، فقد بقيت طوال العهد الأمويّ حتى عام 133هـ/750م مركز إشعاع علميّ ومعرفيّ للعالم العربيّ والإسلاميّ.[3]

وقد انتشرت في دمشق، في عهدها المملوكيّ، المدارس التي اختصّت بتدريس الفقه الإسلاميّ والحديث الشريف والقرآن الكريم وعلوم اللغة العربيّة، وكانت تُسمّى دور القرآن الكريم، ومن أشهرها: دار الجزريّة التي بناها قاضي الشام شمس الدين الجزري عام 834 هـ/1431م، ودار الدلاميّة التي بناها زين الدين دلامة، أحد أبرز أعيان دمشق عام 847هـ/1443م، ودار الخيضريّة التي أنشأها قطب الدين الخيضري، قاضي قضاة دمشق عام 878هـ/1473م[4]. ولم يقتصر التدريس في مدارس دمشق على العلوم النظريّة فحسب، بل شمل مختلف العلوم، كـ«الطبّ والصيدلة والفلك والكيمياء والأحياء، فكانت كلمة مدرسة تطلق على المدارس التي تهتمّ بالعلوم النظريّة في حين كانت كلمة بيمارستان تطلق على المدارس التي تهتمّ بالعلوم التطبيقيّة كالطبّ والأحياء والفلك (...) فكان البيمارستان النوري والبيمارستان

(1) زيادة، د.نقولا: «**الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك**»، ص51.

(2) م ن، ص52.

(3) حمّاد، د.محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، 126.

(4) الزوبي، ممدوح: «مدارس دمشق القديمة»، **مجلة بناة الأجيال**، نقابة المعلمين، دمشق، السنة الرابعة، العدد الخامس عشر، تموز 1995م، ص116.

القيمري»[1]. ورافق هذا النشاط المزدهر تأليف الكتب والموسوعات في مختلف ميادين المعرفة النظريّة والتطبيقيّة: في الفقه والتفسير والعقيدة والحديث والتصوّف واللغة والأدب والشعر والتاريخ والجغرافية والطبّ والعلوم والفلك والمواضيع المتفرّقة الأخرى[2]، ولا نكاد نجد «مدينة في عهد المدينة الإسلاميّة حافلة بالمدارس والمساجد بقدر ما كانت عليه مدينة دمشق، وقلّما خلت مدرسة أو مسجد من مكتبة طافحة بالكتب المتعددة في فنون مختلفة»[3].

هذا وقد حظيت دمشق في الأدبيّات والمصادر التاريخية بإعجاب المؤرّخين[4] والشعراء. وقال فيها بعض الشعراء مقطوعات شعرية كثيرة، تصف غوطتها وجمالها، وصفاء العيش فيها. يقول الشاعر أبو المطاع بن حمدان في وصف دمشق[5]:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها، فلي بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء إلاّ استخفّني إلى بردى والنيربين حَنين
وقد كان شكّي في الفراق يروعني، فكيف أكون اليوم وهو يقين؟.

ويقول الشاعر الصَّنوبريّ[6] في جمال دمشق:

صَفَتْ دُنيا دمشق لقاطنيها، فلست ترى بغير دمشق دُنيا
تفيض جداول البلّور فيها خلال حدائق يُنبتن وشيا.

ويروي ياقوت الحموي[7] أنّ عبد الله بن حَوَالة شكا إلى رسول الله (ص)

(1) م ن، ص117.
(2) زيادة، د.نقولا: «**الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك**:، ص63.
(3) تيمور، أحمد: «خزائن الكتب العربية»، في: **درر وتحف من تراث السلف الصالح**، ص201.
(4) ويصف ياقوت الحموي دمشق بالجنّة قائلاً: «وهي جنّة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة وكثرة مياه».
معجم البلدان، 463/2.
(5) عن/**معجم البلدان**، 467/2.
(6) عن/ **معجم البلدان**، 467/2.
ولمزيد من الاطلاع على ما قيل في مدح دمشق، ينظر: السابق، ص467 ـ 468.
(7) م ن، 3/314.

الفقر والقلّة، فأكدّ له الرسول (عليه الصلاة والسلام) أنّ هذا الفقر سيظلّ مخيّماً على المسلمين إلى أن يفتحوا أرض فارس وأرض الروم، وإلى أن يصبح المسلمون أجناداً ثلاثة: جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن، عندها قال ابن حَوَالة: «اختر لي يا رسول الله إن أدركني ذلك، فقال: أختار لك الشام فإنها صفوة الله في بلاده وإليها يجتبي صفوته من عباده. يا أهل الإسلام فعليكم بالشام فإنّ صفوة الله من الأرض الشام».

وتبقى دمشق، مثلها مثل بقية المدن الإسلاميّة، ذات وجه قاتم بالنسبة لبعض مواطنيها الشعراء، أو القادمين إليها، إذ لم يرَ هؤلاء فيها إلاّ كلّ نقيصة وسوء، فليست ذات مياه عذبة وغزيرة كما يقول مادحوها، بل هي عكس ذلك كما يرى أحد الشعراء وهو يذّمها[1]:

إذا فاخروا قالوا مياه غزيرة عِذاب، وللظامي سُلافٌ مورَّق
سلافٌ ولكنّ السراجين مِزجُها فشاربها منها الخرا يتنشق
وقد قال قومٌ جنّة الخلد جِلّقٌ وقد كذبوا في ذا المقال ومَخرقوا
فما هي إلاّ بلدة جاهلية بها تكسد الخيرات والفسق يَنفُقُ.

والناس في دمشق قليلو الوفاء، على حدّ تعبير الشاعر محمد رحمة الله الأيّوبي حين يقول[2]:

قالوا دمشق حوت كل المنى وزهت على البلاد، بها من كل مرغوب
فقلت: لكن بها قلَّ الوفاء فلا يُرى بها ذو وفاء غير مغلوبِ.

وها هو الشاعر الدمشقيّ فتيان الشاغوري، لا يرى في أهل حيّه إلاّ اللصوص، والمال الحرام. يقول[3]:

(1) **معجم البلدان**، 468/2.
(2) عن/ أرناؤوط، عبد اللطيف: «مراجعة كتاب: محمد المصري: الديوان الدمشقي، دار الفكر، دمشق دار الفكر المعاصر، بيروت، د. ت.» في: **مجلة التراث العربي**، العددان 56/55، ص209.
(3) عن/ أرناؤوط، عبد اللطيف: «مراجعة كتاب: محمد المصري: الديوان الدمشقي»،م ن، ص209. ، ص210.

وبيـن نُهيْـرَي الشـاغور[1] قومٌ يـرون الفخـر كونهـم لصوصـا
فكلّهـم متـى يظفـر بشـاة تحـوّل شـوحة تغتـال صوصـا
ومـا طبخـت قُدُوْرُهُـمُ حـلالاً فليتهـم بهـا طبخـوا مصوصـا[2]
ولـو أنّـا نصافـح خيِّريهـم لسَـلُّوا مـن خواتمنـا الفصوصا.

هذه هي بعض ملامح دمشق التاريخية، التي تلتقي مع بعض ملامحها الحكائية في حكايات ألف ليلة وليلة، والتي نستعرض معظمها من خلال العنوان الآتي: دمشق في ألف ليلة وليلة.

(1) أحد أحياء دمشق القديمة المعروفة.
(2) المَصُوص: ج مَصَائص: لحم يُطبخ وينقع في الخل.
المنجد في اللغة، مادة: مصّ، ص764.

دمشق في ألف ليلة وليلة

ترتحل الوحدات السرديّة إلى دمشق في عدد من الحكايات التّاريخيّة، التي تدور حوادثها في دمشق، ويعود سرد هذه الوحدات إلى زمان مرجعيّ يحدّد بفترة الخلافة الأمويّة (41 ـ 132 هـ/661 ـ 750 م)، باعتبار دمشق عاصمة مركزيّة للدّولة الإسلاميّة أيّام هذه الخلافة. وهذه الوحدات السرديّة لا تنهل من هذا الزّمان المرجعيّ فحسب، بل من أزمنة أخرى، تكون دمشق فيها، قد فقدت مركزيّتها السياسيّة، وذلك بانزياح هذه المركزيّة، وانتقالها إلى بغداد التي ستصبح هي العاصمة المركزيّة أيّام الدولة العبّاسيّة، كما أُشير إلى ذلك سابقاً[1].

أمّا الحكايات التي تجري أحداثها في دمشق، أو يتوقّف أبطالها فيها، فهي حكاية «**الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان**»[2]، فدمشق في هذه الحكاية مركز في بداية السرد، ثم تصبح بغداد هي المركز، وبعدها تنزاح دمشق لتبقى مجرد محطّات سريعة، وحكاية «**نعمة ونعم**»[3]، وتبدأ حوادثها بالكوفة، ثم تصبح دمشق مركزاً رئيساً لاستكمال الوحدات السرديّة، وفكّ عقدة الحكاية، وحكاية «**عبدالملك بن مروان والقماقم السليمانيّة**»[4]، وفيها يرتحل السرد من

(1) وذلك عند الحديث عن بغداد في الفصل الأوّل من هذه الدّراسة.
(2) **ألف ليلة وليلة**، 242/1.
(3) م ن، 2/323.
(4) م ن، 4/24.

دمشق ليصبح فضاء المدن الأسطوريّة والتخيّليّة محوراً لهذا السرد، بعد ذلك. وحكاية «**اليهودي لملك الصين**» الداخلة ضمن حكاية» **الأحدب وملك الصين**»[1]، فمعظم حوادثها تجري في دمشق، لكنها تُرْوى أمام ملك الصين. أمّا الحكايات التي لا تبدو فيها دمشق مركزاً، أو بؤرة للحكاية، بل محطّة مؤقّتة يتوقّف السرد فيها، ثم يعود سريعاً منها، فهي: حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»[2]، وحكاية «**سيف الملوك وبديعة الجمال**»[3]، وحكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»[4]، الداخلة ضمن حكاية «**هرون الرشيد مع الصيّاد**». أمّا الحكايات التي تبدو دمشق فيها مجرد تسمية أو إشارة، ليس لها دور في بناء الأحداث، فهي: حكاية «**تودّد الجارية**»[5]، وحكاية «**علي الزيبق المصري مع دليلة المحتالة**»[6]، وحكاية «**الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي**»[7]. أمّا حكاية «**الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان**»[8]، فإنّ أحداث الحكاية تجري في دمشق، أيام الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان، لكنّ الرّاوي لا يذكر دمشق تحديداً في الحكاية، بل يذكر لفظة (بلد عبد الملك بن مروان)، بدلاً من دمشق، وكذلك تنطبق الحال هذه على حكاية «**هشام بن عبد الملك مع غلام من الأعراب**»[9]، إذ تجري الحكاية في فترة خلافة هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ/ 724 ـ 743 م)، لكنّ الرّاوي لا يذكر دمشق في جميع المقاطع السرديّة، وكأنّ ذكر هشام بن عبدالملك كافٍ لتحديد الفضاء المكانيّ الذي نشأ فيه وحكمه.

وتبدو دمشق في ألف ليلة وليلة مدينة جميلة غنّاء «ذات أشجار وأنهار وأثمار

(1) م ن، 1/144.
(2) م ن، 2/374.
(3) م ن، 4/184.
(4) م ن، 1/93.
(5) م ن، 229/3.
(6) م ن، 4/111.
(7) م ن، 4/431.
(8) م ن، 4/92.
(9) م ن، 2/404.

وأطيار كأنّها جنّة فيها من كل فاكهة»[1]، وهي الممدوحة في الشعر الذي يرويه أحد رواة الحكايات، حين يقول عنها[2]:

من بعد يومي في دمشق وليلتي حلف الزمان بمثلها لا يلغَط[3]
والطلّ في تلك الغصون كأنّه دُرٌّ يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمام ينقُط[4].

إنّ هذه الصورة المشرقة لدمشق في الليالي لا تختلف عن صورتها التاريخية، كما وردت في المصادر التي وصفت معالم هذه المدينة الجماليّة، بأشجارها وأنهارها وغوطتها. يقول ياقوت الحموي عنها[5]: «ومن خصائص دمشق التي لم أرَ في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها، فقلّ أن تمرَّ بحائط إلاّ والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يُشرب منه ويستقي الوارد والصادر (...) وبها فواكه جيدة فائقة طيبة تُحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حَرَّان».

وتذكّرنا فواكه دمشق التي قال ياقوت الحموي إنها تُحمل إلى جميع ما حولها من البلاد، بحكاية «**حمّال بغداد والبنات**» في ألف ليلة وليلة، التي تجري حوادثها في زمن الخليفة هرون الرشيد، فخادمة البنات الثلاث نزلت إلى سوق بغداد، واشترت

(1) م ن، 1/145.
ويصف الراوي مدينة دمشق في موضع آخر بأنها مدينة تفيض طيباً وجمالاً، فها هو أحد المماليك سافر من خراسان حتى «وصل إلى مدينة دمشق فوجدها مدينة طيّبة أمينة ذات أشجار وأنهار وثمار وأطيار تسبّح الواحد القهّار الذي خلق الليل والنهار».
م ن، 4/181.

(2) م ن، 1/114.

(3) يلغط: يصوّت. **المنجد في اللغة**، مادة: لَغَطَ، ص725.

(4) وهذه الصورة الطيّبة الآمنة، ذات الأشجار والغدران التي ذكرها رواة الليالي تشبه إلى حد بعيد ما قيل في هذه المدينة، في الأدبيات التاريخية، نثراً وشعراً.
لمزيد من الاطلاع يُنظر: **معجم البلدان**، 2/467 ـ 468.

(5) **ألف ليلة وليلة**، 465/2.

تفاحاً شاميّاً[1]، وطلبت من الحمّال أن يحمله إلى دار البنات، بأحد أحياء بغداد.

وفي دمشق ألف ليلة وليلة، توجد المطاعم الجميلة التي يثبت أصحابها قدراتهم المتميّزة في طهي أشهى أنواع الطعام، فها هو عجيب بن حسن بدر الدين يقول[2] لجدته: «رأينا في المدينة [دمشق] طبّاخاً طبخ حبّ رمّان ولكنّ رائحته ينفتح لها القلب، وأمّا طعامه فإنها تشتهيه نفس المتخوم، وأمّا طعامكِ بالنسبة إليه فإنه لا يساوي كثيراً ولا قليلاً».

إنّ الصورة الجماليّة لدمشق في الليالي، بأنهارها وجداولها وحدائقها الغنّاء، تغيب إذا ما تحدّث الرّواة عن تجّار دمشق، فدمشق في الليالي بلاد الربح الفاحش، والتلاعب بالأسعار. فها هو أحد التجّار الموصليين يزور دمشق مع أعمامه، ويقول إنّه باع بضاعته «فربح الدرهم خمسة دراهم»، وفرح بالربح[3]، وهاهو أحد شخوص التجار يقول[4]: «وسافرت (...) إلى الشام، فربحت المثل مثلين».

لقد عرفت الولايات الإسلاميّة في الدولتين الأمويّة والعبّاسيّة توسّعاً مدهشاً في التجارة، وقد أوجد هذا التوسّع شبكة من المدن الإسلاميّة «ذات حياة مدنية بالغة التقدّم، تقطنها فئات ثريّة من التجّار، تعرف أحوال العالم، وتمتلك الذكاء والجرأة والاستقلال، وكانت مصالح هذه الجماعات (كما هي العادة في الحضارات التجاريّة الزاهرة) دنيوية في أكثرها»[5]. ولعلّ تجّار دمشق هم من أوائل تجّار الولايات الإسلاميّة جميعها ـ كما تُصوّرهم ألف ليلة وليلة ـ الذين كانت مصالحهم دنيوية بالدرجة الأولى، وهم أكثر التجار قدرة على استغلال ذكائهم، في استثمار الأموال، وتنشيطها وتثمينها، سواء بالغشّ أو بالاحتكار.وأسهم الدّلالون في دمشق ألف ليلة وليلة، وهم من طبقة التجّار، في الغشّ وتقليل القيمة الحقيقيّة للسلعة التي يشترونها، لأجل

(1) م ن، 1/46.
(2) م ن، 1/119.
(3) م ن، 1/146.
(4) م ن، 2/354.
(5) جيب، هاملتون: **التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى**، دون مترجم، المركز العربي للكتاب، دمشق، د.ت، ص24.

الربح الفاحش، فها هو أحد الأبطال الغرباء يدخل دمشق، وبطريقة مصادفات ألف ليلة وليلة يحصل على عقد من الجوهر، ثم يضطرّ لأن يبيعه، فيذهب إلى السوق، ويسلّمه للدلال، ويتّفق الدلال مع أحد التجّار على أن يبيعه العقد بألفي دينار، لكنّه يدّعي أمام الشاب أنّ قيمته ألف درهم فقط. يقول الشاب[1]: «فأخذت العقد الجوهر وتوجّهت به إلى السوق وناولته للدّلال، فقام لي وأجلسني بجانبه وصبر حتى عَمُرَ السوق وأخذه الدّلال ونادى عليه خفية، وأنا لا أعلم. وإذا بالعقد الثمين بلغ ثمنه ألفي دينار، فجاءني الدّلال وقال لي إنّ هذا العقد نحاس مصنوع بصنعة الإفرنج، وقد وصل ثمنه إلى ألف درهم (...) فرح واقبض الألف درهم».

إذا كان من المعروف أنّ «التمتع الفردي بالمال في الإسلام أمر مباح، شريطة أن يكون اكتسابه بكيفية شرعيّة»[2]، فإنّ كثيراً من تجار ألف ليلة وليلة جمعوا المال وتمتّعوا به وكسبوه بطرائق ملتوية. وهاهو أحد التجار يصل إلى دمشق، ويبيع بضاعته «بأقصى ثمن»[3]، وذلك لحاجة الناس في دمشق إليها من جهة، ولأنّ تجّار دمشق قد احتكروا البضائع من جهة أخرى.

ويسخر رواة الليالي من تجار دمشق، ويصوّرونهم بصورة الشاذين جنسيّاً، والعبيد لشهواتهم الجنسيّة. فها هو مقدّم شاه بندر التجّار الشامي، يعشق علي الزيبق المصري. يقول الرّاوي[4]: «ففرح المقدّم الشامي بعلي وعشقه إلى أن أقبل الليل فنزلوا وأكلوا وشربوا فجاء وقت النوم فحطّه عل جنبه وجعل نفسه نائماً وكان المقدّم قريباً منه، فقام علي من مكانه وقعد على باب صيوان التاجر، فانقلب المقدّم وأراد أن يأخذ عليّاً في حضنه فلم يجده، فقال في نفسه لعلّه واعد واحداً فأخذه ولكن أنا أولى!! وفي غير هذه الليلة أحجزه».

لقد أُتخم التجّار في ألف ليلة وليلة بالمال والثراء والجنس وأجساد الجواري،

(1) **ألف ليلة وليلة**، 147/1.

(2) حسني، د.عبد اللطيف: «ترشيد مالية الدولة السلطانية»، **مجلة الاجتهاد**، دار الاجتهاد، بيروت، السنة التاسعة، العددان 34/35، شتاء وربيع 1417هـ/1987م، ص227.

(3) **ألف ليلة وليلة**، 433/4.

(4) م ن، 4/144.

ووجدوا أنّ ما يكسر رتابة الحياة الجنسيّة، هو التجديد الدائم، فاقتنوا الجواري وبدّلوهنّ، وأقاموا علاقات جنسيّة مع الغلمان الظرفاء، الوسيمين، فعلي الزيبق المصري الذي عشقه التاجر الشامي كان: «أمرداً مليحاً [كذا]»[1].

ولم تكن دمشق في الليالي مركزاً تجاريّاً مزدهراً فحسب، بل كانت أيضاً مركزاً صناعيّاً، فها هو أحد اليهود يقول لملك الصين[2]: «إني كنت في دمشق الشام وتعلّمت منه [كذا] صنعة فعملت فيها».

ومن ملامح دمشق في الليالي، أنّ بها رجال سلطة ظلمة ومستبدّين. يقول أحد الشخوص عن شرطة دمشق التي احتجزته بتهمة سرقته عقد جوهر، وهو بريء من هذه التهمة: «ما أدري إلاّ وصاحب القاعة جاءني ومعه بعض الظلمة وكبير السوق وادّعى عليّ أني سرقت العقد، فخرجت لهم وقلت ما الخبر، فلم يمهلوني بل كتّفوني ووضعوا في رقبتي جنزيراً، وقالوا لي إنّ العقد الذي كان معك هو لصاحب دمشق ووزيرها وحاكمها»[3]. وعلى كل حال ليس رجال سلطة دمشق هم الظلمة الوحيدين بين رجالات مدن الليالي، فقراءة نصوص ألف ليلة وليلة ستضعنا أمام حكّام ظلمة كثيرين، في كل المدن العربيّة والأجنبيّة التي وردت في الليالي، سواء أكان هؤلاء الرجال مسلمين أم مسيحيين أم يهوداً، أم وثنيين، أم من الجان الذين يحكمون مدن الليالي الأسطوريّة. وفي إحدى حكايات دمشق: حكاية «**هشام بن عبد الملك مع غلام من الأعراب**»، يصوّر الراوي الخليفةَ الأمويّ هشام بن عبد الملك، بصورة المستبدّ، الذي يفرض الطاعة المطلقة على رعايا مدينته وباديتها، ومن يخرج عن حدود هذه الطاعة ولو بكلمة جريئة، أو رأي مغاير، فإنّ القتل مصيره، حتى ولو كان هذا الخارج قاصراً، لا تطبق عليه القوانين نظراً لصغر سنه، وتقول الحكاية: إنّه وبينما كان هشام بن عبد الملك يصطاد في البراري، إذ يشاهد ظبياً فيلحقه، فينفر منه، عندها يطلب من أحد الغلمان البدو، الذي كان يرعى أغنامه،

(1) **ألف ليلة وليلة**، 143/4.

(2) م ن، 1/144.

(3) ن، 1/148.

أن يلحق بالظبي ويصطاده له: «فقال له هشام: يا غلام دونك هذا الظبي فأتني به فرفع الصبي رأسه إليه وقال: يا جاهلاً بقدر الأخيار، لقد نظرت إليّ بالاستصغار وكلّمتني بالاحتقار، فكلامك كلام جبّار وفعلك فعل حمار. فقال هشام: ويلك أما تعرفني؟ فقال: قد عرّفني بك سوء أدبك، إذ بدأتني بكلامك دون سلامك»[1]. وتتمّ المخاصمة بينهما، إذ يظنّ الغلام أنّه يقيمها من باب المساواة والعدل، وانطلاقاً من الآية الكريمة التي يذكرها الراوي:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[2]. لكنّ الخليفة هشام بن عبد الملك وبنزق السلطة وصلفها يرفض هذه المخاصمة، لأنّه يعدّها منقصة بمقامه العالي، ولا سيما أنّ طرفها الآخر غلام من البدو، ويطلب من حرّاسه أن يجلبوا هذا الغلام إلى قصره بدمشق، وفي القصر لم يكترث الصبي بأبّهة القصر، و«كثرة الحجّاب والوزراء وأرباب الدولة»[3]، ولم يستطع هشام أن يكون حليماً ويكظم غيظه، فقال[4]: «يا سيّاف عليَّ برأس هذا الغلام، فإنه أكثر الكلام ولم يخش الملام. فأخذ السيّاف الغلام ونزل به إلى نطع الدّم، وسلّ سيفه على رأسه».

وليست صورة هذا الخليفة القاسي، سريع البطش في الليالي، المُحاط بالفرسان الكثر، الجبّار المحتقر لمن هم دونه سنّاً ومنزلة طبقيّة، الكلف بالصيد[5]، مغايرة كثيراً لملامحها الحقيقية كما صوّرتها الأدبيات التاريخية. يقول المسعودي عنه[6]: «وكان هشام أحوَلَ خَشِناً فظّاً غليظاً، يَجمع الأموال (...) ويستجيد الخيل، وأقام الحلْبَة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره، أربعة آلاف فرس، ولم يُعْرَفْ ذلك

(1) م ن، 2/404.

(2) مع العلم أنّ راوي الحكاية أخطأ في نقل الآية الكريمة إذ أثبتها على الشكل الآتي: «يوم تأتي كلّ نفس تجادل نفسها». والآية هي من سورة النحل ورقمها 111.
يُنظر: **ألف ليلة وليلة**، 405/2.

(3) م ن، 2/404.

(4) م ن، 2/405.

(5) لمزيد من الإطلاع تراجع الحكاية بأكملها في المجلد الثاني، ص404 ـ 405.

(6) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، 228/3.

في جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس (...) وفي أيامه عُمِل الخزُّ والقُطُفُ الخزّ[1]، فسلك الناس جميعاً في أيامه مذهبَه، ومنعوا ما في أيديهم، فقلّ الإفضال، وانقطع الرِّفْدُ، ولم يُرَ زمان أصعب من زمانه».

ويبقى موقف الرّواة في ألف ليلة وليلة من خلفاء الدولة الأمويّة في دمشق ليس واحداً، فإذا كان أحد الرّواة قد صوّر الخليفة هشام بن عبد الملك في صورة الأهوج السريع الغضب، فإنّ راوياً آخر صوّر الخليفة عمر بن عبد العزيز مثالاً للعدل في قومه وأهله، ومناوئاً حقيقياً للظلاّم من بني أميّة[2].

ومن مظاهر فساد أحد ملوك السلطة الأمويّة، عبثه بأموال الشعب، وإهدار هذه الأموال في شراء الجواري، فبدلاً من أن يكون خراج دمشق سبباً في تعمير الدولة، وتحسين أوضاع المسلمين اقتصاديّاً وإنسانيّاً، فإنه يصبح إرضاء لنزوة الملوك، ورغبتهم المسعورة في شراء الجواري بهذا الخراج. فها هو الملك عمر النعمان يرحل عن دمشق ليصبح ملكاً على بغداد، وعندما يستقرّ ببغداد تُحضر له إحدى عجائز الروم خمس جوارٍ من أجمل نساء الروم، وتطلب ثمنهنّ كل خراج دمشق، فيرضى بذلك، ويرى أنّ هذا الخراج قليل في ثمنهنّ، ولأن خزينته في بغداد لم تكن كافية لتقديم ثمن الجواري، فقد أسرع وكتب إلى ولده الملك شركان حاكم دمشق أن يسرع بإرسال الخراج، ومما جاء في الرسالة:

> **...«وقد أرسلت هذا الكتاب، فحال وصوله إليك ترسل إلينا الخراج (...) لأنه جاءنا من بلاد الروم عجوز من الصالحات وصحبتها خمس جوارٍ نهد أبكار، وقد حازوا من العلم والأدب وفنون الحكمة ما يجب على الإنسان معرفته. ويعجز عن وصف هذه العجوز ومن معها اللسان، فإنهنّ حُزْن أنواع العلم والفضيلة**

(1) الخزّ: ما نُسج من صوف وحرير أو من حرير فقط.
المنجد في اللغة، مادة:خزّ، ص177.
والقُطُف: دثار مُخْمَل. مادة: قَطَفَ، ص642.

(2) لمزيد من الاطلاع على ملامح هذا الخليفة، ينظر: **ألف ليلة وليلة**، 310/1، 311، 312.

والحكمة. فلما رأيتهنّ أحببتهنّ وقد اشتهيت أن يكنّ في قصري وملك يدي، لأنه لا يوجد لهنّ نظير عند سائر الملوك. فسألت المرأة العجوز عن ثمنهنّ، فقالت لا أبيعهنّ إلاّ بخراج دمشق وأنا والله أرى خراج دمشق قليلاً في ثمنهنّ، فإنّ الواحدة منهنّ تساوي أكثر من هذا المبلغ، فأجبتها إلى ذلك ودخلت بهنّ قصري وبقين في حوزتي، فعجّل لنا بالخراج لأجل أن تسافر المرأة إلى بلادها»[1].

وتاريخياً وبعد أن فقدت دمشق مركزيتها السياسيّة، وتراجعت مركزيتها العلمية والدينية والاقتصاديّة، وأصبحت بغداد هي صاحبة هذه المركزية، فإنه فُرِضَ على دمشق أن تقدّم خراجاً سنوياً لكل خليفة من خلفاء بني العبّاس، فعلى سبيل المثال كان خراج دمشق أيام الخليفة المأمون بن هرون الرشيد «أربعمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار»[2].

إذا كان الملك عمر النعمان ليس له سندٌ تاريخي صحيح في تاريخ خلفاء بني أميّة في دمشق، فإنّه قد يكون الصورة النديّة لبعض هؤلاء الخلفاء، ويبدو أنّه أُضيفَ إلى هذه الصورة بعض من مكوّنات التخيّل الشعبيّ، الذي عاش أصحابه الحرمان الاقتصاديّ، وعجزوا عن امتلاك ولو منزلٍ بسيط، وعاشوا الحرمان الجنسيّ في زمن صارت النساء فيه تشترى من أسواق الرقيق كأيّة سلعة استهلاكية، وهم لا يملكون ثمن شرائها، وأُضيف ـ أيضاً ـ بعض من أخبار خلفاء بني أميّة التي بدت في حقيقتها، وكأنّها نسيج من الخيال أو الأسطورة.

وتثبت المصادر التاريخية أنّ خلفاء بني أميّة في دمشق كانوا ولعين بالجواري، وكانوا يطلبونهنّ من الولايات البعيدة، ويتخذونهنّ حظايا وسراري. ويروي محمد ابن أحمد التِجاني (ت709 هـ/1309 م)، نقلاً عن أبي الفرج الأصفهاني، أنّ الخليفة

(1) **ألف ليلة وليلة**، 317/1.

(2) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، 564/2.

الأمويّ هشام بن عبد الملك كتب إلى عامله على إفريقية قائلاً[1]: «أما بعد فإنّ أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن نُصير إلى عبد الملك أراد مثله منك، وعندك من الجواري البربريات المالئات للأعين، الآخذات للقلوب ما هو معوز لنا بالشام وما والاه، فتلطّف في الانتقاء، وتوخّ أنيق الجمال، وعظم الأكفال، وسعة الصدور ولين الأجساد، ورقّة الأنامل (...) ونجالة الأعين، وسهولة الخدود، وصغر الأفواه، وحسن الثغور، وشطاط الأجسام، واعتدال القوام، ورخامة الكلام».

إذا كان بعض الرّواة يصوّرون بعض مظاهر فساد خلفاء بني أميّة في دمشق، فإنّ راوياً آخر يرى أنّ في دمشق رجال خير يكرمون الفقراء الغرباء، ويدعونهم إلى منازلهم. فعلي المصري يسافر من مصر إلى بغداد، وينزل في دمشق، ويجد رجلاً كريماً يؤويه، ويدرأ عنه وحشة الطريق والغربة. يقول الرّاوي[2]: «وسافر حتى دخل دمشق، فبينما هو ماش في شوارعها إذ رآه رجل من أهل الخير فأخذه إلى منزله فأقام عنده مدة».

وفي حكاية «**تودّد الجارية**»، تتكهن تودّد ـ التي تمثّل العلمي والمعرفيّ في بغداد ـ بأنّ مستقبل أهل الشام السياسيّ سيكون أسود، عندما يسألها المنجّم، فتقول له[3]: «الويل لأهل (...) الشام من جور السلطان»، وأنّهم معرّضون للفقر، إذ «تقلّ البركة من الزرع وتفسد الحبوب»[4]. ولا يستطيع المعرفيّ والفقهيّ في بغداد إلاّ أن يعمل على إرضاء الخليفة هرون الرشيد، فيذكر أمامه أنّ المصائب ستحلّ بأهل الشام، هذا إذا عرفنا أنّ الخليفة الرشيد كان مشحوناً ـ مثله مثل الخلفاء العبّاسيّين ـ بالبغضاء ضد عدوٍ سابق أرّقه، فرأى ضرورة التخلص منه، وهذا العدو هو النظام السياسيّ الأمويّ، فلقد أحسّ معاصرو الدولة الأمويّة من العبّاسيّين ومن الأقوام الأخرى التي تعيش في دمشق، ومن فقراء الأمويّين وبسطائهم، أنّه في بلاط هذه الدولة التي تحكمهم باسم الإسلام، صار الفساد والتمادي في طلب اللذائذ «جزءاً

(1) التِجاني، محمد بن أحمد: تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق د.جليل العطيّة، دار رياض الريّس للكتب والنشر، لندن/ليماسول، الطبعة الأولى، حزيران/يونيو، 1992م، ص176.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 212/3.

(3) م ن، 3/261.

(4) م ن، 3/261.

من حياة البلاط، برغم أنّ الإسلام يوصي بالاعتدال في كل شيء. والحقّ أنّ رؤية الخليفة [الأمويّ] يتباهى بأعماله الطائشة على مشهد من الناس ومسمع، آثار غيظ العنصر المتديّن في مجتمع كان أساس وجوده الرئيس هو الدين. بل إنّ المزاج الدنيوي الخالص الذي غلب على الأمويّين المتأخرين جعل سيل النقمة الأخير يبلغ الزّبى فانضاف إلى نهر الكراهية المندفع نحو دمشق.»[1]. ولعلّ أوج اندفاع هذا النهر صبّ في نفوس العبّاسيّين، فأعدّوا العدّة لإطاحة الدولة الأمويّة. وقد وعى فقهاء الدولة الأمويّة فساد دعوى النظام الأمويّ بدمشق، ويروى عن شقيق ابن سلَمة[2] أنّه قال: للأعمش المحدّث المشهور[3]: «يا سليمان والله ما عند هؤلاء [يقصد الخلفاء الأمويّين] ـ تقوى أهل الإسلام ولا أحلام أهل الجاهلية».

إنّ الرّاوي العبّاسيّ في حكاية «**تودّد الجارية**» يريد أن يقول ـ بشكل إيحائي، يمكن فهمه من قبل الخليفة الرشيد، ومن كل علماء بغداد، الذين اجتمعوا بحضرته أمام تودّد، باعتبارهم على درجة عالية من المعرفة ـ إنّ ما كرّسته السلطة الأمويّة من جور وتباين طبقيّ، واستئثار بأموال الشعب، ستظلّ آثاره باقية إلى مدّة بعيدة، وإنّ مظاهر الجور والفساد والقحط التي ستصيب أهل الشام، ولو بعد زمن طويل، سببها طبيعة الرؤية السياسيّة الاستبداديّة التي سنّها خلفاء بني أميّة في دمشق، إلاّ أنّ دعوى النظام السياسيّ العبّاسيّ في حقيقة الأمر، لم تكن أفضل من دعوى النظام الأمويّ، بل كرّس الخلفاء العبّاسيّون مفاهيم الاستعباد والظلم التي كرّسها خلفاء بني أميّة، وابتعدوا في آن عن الجوهر العميق لقيم الإسلام وتعاليمه، فـ «مسلكهم لم يكن يدلّ على أنّهم كانوا أقلّ انغماساً في أحوال الدنيا من أهل الدولة التي قَضوا عليها. وكان

(1) لاندو، روم: **الإسلام والعرب**، ص71 ـ 72.

(2) عن/العلوي، هادي: **في السياسة الإسلامية**، دار صحارى، بودابست، الطبعة الثانية 1991م، ص66.
وأخذ العلوي عن/الماوردي: نصيحة الملوك، مخطوطة باريس، ص14.

(3) الأعمش: (سليمان بن مهران الأسدي، 61 ـ 148هـ/681 ـ 765م): أصله من بلاد الريّ، ومنشأه ووفاته في الكوفة. كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، يروي نحو 1300 حديث، قال الذهبي: كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح. وقال السخاوي: قيل: لم يُر السلاطين والملوك والأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع شدّة حاجته وفقره.
الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، 135/3.

العبّاسيّون أبعد ما يكون البعد عن جعل دولتهم إسلاميّة، ولكنهم استخدموا الدين حتى يَخْلعوا على دولتهم تلك شيئاً من الشرعيّة ويَكْسِبوا لها شيئاً من الاحترام»[1].

وتشير حكاية «**بدور بنت محمد بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني**»[2]، إلى أنّ الذي يروي الحكاية أمام الخليفة هرون الرشيد هو نديمه علي بن منصور الخليع الدمشقيّ، ودلالة الخليع في أسماء العلم يمكن أن تشير إلى هؤلاء الذين ظلمتهم مدنهم، واستُلِبوا فيها، وعاشوا غربة، فانخلعوا عنها، إمّا بالرضى وإمّا بالإكراه، ورحلوا إلى غيرها. وواضح أنّ عليّ بن منصور ينتسب إلى دمشق (الدمشقيّ)، ولا نستبعد أن تكون دمشق قد طلبت دمه في ظلّ النظام الأمويّ، فرحل إلى بغداد ولُقِّبَ بالخليع الدمشقيّ تمييزاً عن غيره من الرجال الخلعاء الذين خلعتهم مدنهم ونفتهم، وعندما يقول علي بن منصور الخليع الدمشقيّ[3] للخليفة هرون الرشيد: «يا أمير المؤمنين أعلم أنّ لي كل سنة رسماً على محمد بن سليمان الهاشمي سلطان البصرة»، فإنّ هذا الرسم يمكن أن يؤوّل في إحدى حالاته بالمساعدة المالية التي يقدّمها سلطان البصرة رأفة بعلي بن منصور، لأنه مخلوع عن دمشق، أو ما يمكن أن نطلق عليه في حالاتنا المعاصرة بالمرتّب الذي تعطيه الدولة المُضِيفة للاجئين السياسيّين، المقيمين على أراضيها.

وفي صورة أخرى تبدو دمشق فضاءً للأمان، إذ يتعاطف الراوي معها ضد بغداد التي تعمل سلطاتها على تهجير أبنائها المشكوك فيهم، فعندما يغضب هرون الرشيد على التاجر غانم بن أيوب ـ لأنّ هذا الأخير عشق إحدى حظاياه (قوت القلوب) ـ فإنّه يهدر دمه، عندها يضطرّ غانم أن يحمل بعض تجارته وأمواله، ويفرّ إلى دمشق، إذ «حزم تجارة وذهب بها إلى دمشق»[4].

ومن ملامح دمشق في ألف ليلة وليلة، أنها مدينة تحتفي بشرب الخمرة، وهي

(1) حتي، د.فيليب: **الإسلام منهج حياة**، ص179.
(2) **ألف ليلة وليلة**، 58/3.
(3) م ن، 59/3.
(4) م ن، 1/235.

في هذا تشبه معظم مدن ألف ليلة وليلة التي شهدت إباحيّةً واحتفاءً بولائم الطعام والشراب الفاخرة، والجواري الجميلات. وقد أسهم ثراء دمشق عبر التاريخ في أن تكون مدينة متحرّرة من كثير من الضوابط الدينية والأخلاقية، فهي على سبيل المثال ـ في العهد الأمويّ ـ كانت خزانة تصبّ فيها الأموال الكثيرة من الولايات الإسلاميّة التابعة لها. يقول سعيد بن العاص[1] عامل بني أميّة على العراق: «ما السّواد إلا بستان قريش، ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه».

وقد أسهمت هذه الأموال في زيادة مظاهر الترف واللهو، والملذّات في قصور دمشق. ويذكر عن معاوية بن أبي سفيان[2] أنّه قال: «أمّا نحن فتمرّغنا فيها؛ [في الدنيا ونعيمها]. ثم كأنه ندم فقال: والله إنه لمُلْك آتانا الله إيّاه» . وطبيعي أن تنتشر الخمرة في دمشق عبر التاريخ طالما انتشرت فيها كل مظاهر الثراء والترف.

وتشير ألف ليلة وليلة إلى أنّ الخمرة كانت تُباع علناً في مطاعم دمشق[3]. ففي حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»، يذكر الرّاوي أنّ عجيباً بن حسن بدر الدين بن نور الدين دخل أحد مطاعم دمشق، ثم شرب وسكر مع خادمه: «دخلنا وأكلنا (...) حتى شبعنا وسقانا الطبّاخ شراباً وقد سكرنا»[4]. وفي حكاية «**اليهودي لملك الصين**»، الداخلة ضمن حكاية «**الأحدب وملك الصين**»، يدعو أحد الأبطال البغداديين إحدى النساء الدمشقيّات الجميلات إلى قاعته بدمشق، ويقدّم لها الشراب: «وجئت بسفرة من أطيب المأكولات والفاكهة وأكلنا ولعبنا،

(1) عن/زيدان، جرجي: **تاريخ التمدّن الإسلامي**، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص272.
ويروي ياقوت الحموي عن هشام بن أبي رُفَيَّة اللخمي أنّ صاحب (إخنا) قدم على عمرو بن العاص. وقال له: «أخبرنا بما على أحدنا من الجزية فنصبر لها، فقال عمرو، وهو مشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك بما عليك، إنما أنتم خزانة لنا، إن كُثِّر علينا كَثّرنا عليكم، وإن خُفِفَ عنا خففنا عنكم». **معجم البلدان**، 124/1. وإخنا: مدينة مصرية قرب مدينة الإسكندرية.

(2) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، (تاريخ الطبري)، 5/334.

(3) لا تزال دمشق حتى الآن من أكثر العواصم العربية الإسلامية الغاصّة بالخمور المحليّة والأجنبية المستوردة، ولا تزال مطاعمها وحاناتها تقدّم الخمور علناً، ولكل من يطلبها.

(4) **ألف ليلة وليلة**، 119/1.

وبعد اللعب شربنا حتى سكرنا»[1]، و«صرت (...) أملأ لها القدح وأشرب معها»[2].

وتنغمس معظم شخوص ألف ليلة وليلة، وباختلاف تموضعها، الطبقيّ، في تناول الخمرة، إذ لا يخلو منها قصر من قصور ألف ليلة وليلة، ولا منزل تاجر من تجّارها الأثرياء. ويرى الباحث ما يرجروس[3] «أنّ تناول الشراب يمكن أن يعكس حالة مزاجيّة تؤدّي إلى الرغبة الجامحة في نشدان حالة من النشوة». ولقد كان شخوص ألف ليلة وليلة ينشدون هذه الحال دائماً، من خلال مجالس طربهم وشرابهم، ولم تكن هذه الحال هي الغاية المطلقة من مجالس الشراب، بل كانت تخفي وراءها رغبة مسعورة لتحقيق نشوة أهمّ منها، وتُعدّ الغاية الأخيرة التي تُتَوَّج بها حفلات الشراب، وهي الوصول إلى اللذّة الجنسيّة، التي كانت تتحقق كثيراً بطريقة محرّمة وعربيديّة.

وفي الحكاية السابقة: «**اليهودي لملك الصين**»، نلاحظ أنّ حفلة الشراب ستكشف عن ملمح من ملامح نساء دمشق في الليالي، وهو ملمح المرأة العاهرة التي تخرج وتقبل دعوة الرجال، وتسكر معهم، ثم تضاجعهم، غير هيّابة من المواضعات الأخلاقية، ولا من مركز والدها السياسيّ، فالمرأة التي تقبل دعوة الشاب الثريّ البغدادي هي ابنة صاحب دمشق كما يذكر راوي الحكاية، والتي لا ترى مانعاً من أن تسكر معه حتى الصباح، وتنام عنده: «وإذا بصبيّة أقبلت عليّ وهي لابسة أفخر الملابس (...) ثم نمت معها في أطيب ليلة إلى الصباح»[4].

ويبدو أنّ رواة الليالي الذين يقرنون صورة المرأة التي تدمن الخمرة بصورة المرأة المتهالكة على طلب الملذّات الجنسيّة[5]، قد تأثّروا بالمرويّات الأسطوريّة التي

(1) م ن، 1/146.

(2) م ن، 1/147.

(3) عن/اسماعيل، د.عزت سيد: «الإدمان الكحولي ـ المشكلة المراوغة»، **مجلة العلوم الاجتماعية**، جامعة الكويت، الكويت، المجلد الثاني عشر، العدد الثالث، خريف 1984م، ص53.

(4) **ألف ليلة وليلة**، 146/1.

(5) تتجلّى هذه الصورة بشكل واضح في حكاية «وردان الجزار»، وحكاية «داء غلبة الشهوة في النساء»، إذ تتهالك المرأتان في الحكايتين على إشباع نزواتهما الجنسية بشكل بهيمي، بعد أن تتناولا كمّيات كبيرة من الخمرة. **ألف ليلة وليلة**، 84/3، 86.

سادت في عصورهم، والتي تشيع عن المرأة المتهتكة جنسيّاً، بأنها تكون من النساء المدمنات خموراً، وبشكل عام، «في حين أنّ الأمر على عكس من ذلك إذ نجد أنّ المرأة المدمنة كحولياً تشكو عادة من نقص الدافع الجنسيّ ونقص في الاهتمامات الجنسيّة على عكس ما كان شائعاً من قبل»[1]. ولا تكتفي هذه المرأة «ابنة صاحب دمشق» بأن تقدّم نفسها لهذا الشاب البغدادي الثري، بل تغريه بصبيّة أخرى أجمل منها: «ثم قالت لي: يا سيدي هل أنا مليحة؟ فقلت أي والله، فقالت هل تأذن لي أن أجيء معي بصبية أحسن مني وأصغر حتى تلعب معنا ونضحك وإياها، فإنّها سألتني أن تخرج معي وتبيت معنا»[2] وفي الليلة التالية تُحضر معها الصبية الأجمل منها ـ ونكتشف مع سياق السرد أنّ هذه الصبية هي أختها ـ ثم يقيمون مجلس الشراب، فيبدي الشاب إعجابه بالصبيَّة الجديدة، فتغار الكبيرة، لكنّها تخفي غيرتها، وتطلب منه أن ينام مع أختها. ويتوالى السرد، ويستيقظ الشاب، ويجد الأخت الصغرى مضمّخة بدمائها، بعد أن ذبحتها أختها الكبرى[3].

ولا يخفى على القارئ مدى النسيج التخيّلي للقاص الشعبيّ، الذي أوصل بطله التاجر إلى أهمّ نساء دمشق وأجملها «ابنتيّ صاحب دمشق»، ومن ثمّ دفعه لأن ينام مع الفتاتين، ودفع الأخت الكبرى لأن تقتل أختها الصغرى. ونستغرب لماذا ضحّى الرّاوي بالبنت الجميلة الصغرى؟ ولماذا جعل الكبرى تغار من أختها الصغرى، طالما أنّها رضيت أن تكون غريمة لها، وشريكة في آن. أيريد الراوي أن يقول إنّ مظاهر الترف والثراء في حياة سلطات ألف ليلة وليلة هي السبب في تعهير نساء هذه السلطات؟ أم أنّه ينقم على سلطات هذه المدن، من خلال تقديمه لنسائهنّ في صور إجرامية داعرة؟ أم أنّ تصويره لمظاهر الفساد عند نساء السلطة هو جزء من تركيبة عقلية موروثة، لا ترى في المرأة إلاّ الشرّ والمكر؟ أم يريد أن يقول إنّ المدن العربيّة الإسلاميّة، في أوج ثرائها المالي والحضاريّ، هي مدن آيلة إلى السقوط بفعل

(1) اسماعيل، د.عزت سيد: «**الإدمان الكحولي ـ المشكلة المراوغة**»، ص48 ـ 49.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 146/1 ـ 147.

(3) م ن، 1/147

هذا الثراء؟. أم يريد القول إنّ هذه المدن امتلأت بالإباحيّة الجنسيّة، وارتكبت كل أشكال المحرّمات، بفعل ظروف سياسيّة واقتصاديّة أسهمت في التحريض على انتشار هذه المحرمات؟ أم أنّ هذا الراوي الشعبيّ يعاني اضطهاداً طبقيًا حادًا يحرّم عليه النظر أو الاقتراب من نساء السلطة، فما كان منه إلاّ أن اخترق هذا الحاجز بينه وبين هاته النساء، فجعل بطله يصل إليهنّ جنسيّاً؟.

ليست هناك إجابات نهائيّة عن مثل هذه الأسئلة. إلاّ أنّه يمكن القول إنّ ألف ليلة وليلة نسيج اجتماعيّ وثقافيّ ومعرفيّ، وسياسيّ واقتصاديّ، داخل شبكة من العلاقات المدينيّة، التي نمت وسادت داخل المدينة العربيّة الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، من خلال رحلتها الحضاريّة في التاريخ الإنسانيّ، على أنّ هذا النسيج، ليس واقعيّاً صرفاً، ولا أسطورة، لا يمكن أن تتحقق، بل هو جامع لكل أطراف هذه المتناقضات. إلاّ أنّ الراوي يُرجِع عهر ابنتي صاحب دمشق في نهاية الحكاية، إلى فضاء مدينة أخرى، وهي القاهرة، التي كانت السبب في تعهير هاتين الفتاتين. يقول والد الفتاتين[1] صاحب دمشق، لعشيقهما، بعد أن يكتشف حقيقة ابنتيه مع هذا العشيق: «اعلم يا ولدي أنّ الصبيّة [الكبرى] بنتي وكنت أحجر عليها، فلما بلغت أرسلتها إلى ابن عمّها بمصر فجاءتني وقد تعلّمت العهر من أولاد مصر»[2].

ولم تكن دمشق هي المدينة الوحيدة ـ في الليالي ـ التي انتشرت فيها النساء الزواني اللواتي يطاردن الرجال، بل لقد امتلأت مدن الليالي جميعها بمثل هاته النسوة. ويبدو أنّ الأقوام والشعوب الكثيرة التي مرّت على دمشق، أسهمت في تحرّر هذه المدينة، وانتشار مظاهر الفساد فيها. فهذه المدينة ورثت قصور الحضارتين اليونانيّة والرومانيّة وعاداتهما[3]. وقد استمرّت الجنسيّات العربيّة والأجنبيّة الأخرى

(1) **ألف ليلة وليلة**، 149/1.

(2) وتستمرّ الحكاية ليتعاطف الراوي مع صاحب دمشق، ويصوّره بصورة العاقل الحكيم، الذي يعفو عن الشاب العاشق، والذي يعتبر أنّ ابنته الكبرى هي السبب في اقتياد أختها الصغرى، وهذا الشاب العاشق الغريب إلى فعل الخطيئة والقتل. ويقترح عليه أن يقيم في دمشق، ليزوّجه بابنته الأخرى الصغرى التي لم تتعلم العهر بعد. لمزيد من الإطلاع ينظر: م ن، 149/1.

(3) ضيف، د.شوقي: **العصر الإسلامي**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، 1976م، ص194.

بالتدفق إليها، عبر تاريخها الطويل، وشهدت هذه المدينة تنوّعاً سكانياً متعدد العناصر، يضم «عناصر عربيّة، وأخرى تركيّة وكرديّة وأرمنيّة، وبيزنطيّة وسوريانيّة»[1]. وهذا التنوّع السكانيّ كان «بمثابة تعبير عن تاريخ هذه المنطقة الممتدة في أغوار الزمن، كما كان في الوقت نفسه سبباً في سيولة التركيبة الاجتماعيّة»[2]. ويبدو أنّ الغزوات الكثيرة التي تعرّضت لها دمشق في تاريخها، كان لها الدور الأكبر[3] في تفشّي الكثير من الأمراض الاجتماعيّة بين طبقات مجتمع مدينة دمشق.

وإذا كان راوي الحكاية السابقة قد رأى أنّ ابنة صاحب دمشق (الكبرى) تعلّمت العهر من أولاد مصر، فإنّ هذه الرؤية ليست دقيقة، لأنّ العهر في مدن الليالي لم يكن مقصوراً على مصر وحدها، بل كان ظاهرة عامة في مدن الليالي جميعها، ومتأصّلة بقوة في البنيان الاجتماعيّ لهذه المدن، وبخاصّة في بنية السلطة، فنساء السلطة وبناتها وجواريها، ونساء التجّار الكبار في الليالي، عرفن مختلف أنواع الشذوذ والإباحيّة، والخيانة الجنسيّة لأزواجهنّ، وقد انتشر الفساد والتهتّك ومعاقرة الخمرة بين نساء دمشق وبغداد والقاهرة والإسكندرية، والمدن الأسطوريّة والتخيّليّة التي تخيّلها الرّواة، ووصفوا علاقاتها الإنسانيّة والاجتماعيّة.

وتثبت المصادر التاريخية أنّ دمشق لم تستطع أن تتخلّص من هذه الآفة الاجتماعيّة (الفساد والعهر بين الرجال والنساء) مع انتهاء الحروب الصليبية، بل

(1) قاسم، د.قاسم عبده: «بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية»، **مجلة عالم الفكر**، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1993م، ص364.

(2) م ن، ص395.

(3) وعلى سبيل المثال فرزت الحروب الصليبية في بلاد الشام أمراضاً اجتماعية، وبطبيعة الحال أصاب هذا الفرز التركيبة الاجتماعية لمدينة دمشق، ففي بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، «كانت الدعارة من أكثر المهن رواجاً وتنظيماً، وكانت الدولة تتقاضى عن هذا النشاط ضرائب محددة في عصر سلاطين المماليك؛ فقد كانت هناك «ضامنة المغابن» التي تعتبر بمثابة نقيب مسؤول عن نشاط المطربات (...) وبنات الليل، وعليها أن تؤدّي للدولة مبلغاً معيناً تتولّى جبايته من الخاضعات لإشرافها، كذلك انتشر الشذوذ الجنسي في ذلك العصر بدرجة كبيرة وخطيرة.».

يُنظر: قاسم، د.قاسم عبده: **أثر الحروب الصليبية في العالم العربي**، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة/ تونس، الطبعة الأولى 1994م، ص46.

ظلّت آثار هذه الحروب متفشيّة في دمشق، وزادت مظاهر العهر في أسواق دمشق مع دخول الغزاة الأتراك لهذه المدينة، واغتصابهم لها. وينقل الشيخ أحمد البديري الحلاّق بعض مظاهر فساد النساء التي شاهدها في دمشق في سنة 1161هـ/1748 م ـ إبان الاحتلال التركي لدمشق ـ قائلاً:[1]

«وفي تلك الأيام ازداد الفساد وظُلمت العباد وكثرت بنات الهوى في الأسواق في الليل والنهار. وممّا اتفّق في حكم أسعد باشا في هذه الأيام أنّ واحدة من بنات الهوى عشقت غلاماً من الأتراك، فمرض، فنذرت على نفسها إن عوفي من مرضه لتقرأنّ له مولداً عند الشيخ أرسلان. وبعد أيام عوفي من مرضه فجمعت شلكّات البلد وهنّ المومسات، ومشين في أسواق الشام، وهنّ حاملات الشموع والقناديل والمباخر، وهنّ يغنين ويصفّقن بالكفوف ويدققن بالدفوف، والناس وقوف صفوف تتفرّج عليهنّ، وهنّ مكشوفات الوجوه سادلات الشعور، وما ثمّ ناكر لهذا المنكر، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون: الله أكبر».

وما كانت سلطات مدينة دمشق وغيرها من سلطات مدن الليالي، قادرة على أن تمنع النساء من ممارسة العهر، سواء في السرّ أو في العلن، لأنّ سلطات هذه المدن نفسها كانت غارقة في اللهو والفساد، وارتكاب المعاصي.

ومن ملامح دمشق في الليالي أنّها مدينة تفرح بأفراح ملوكها، وتستسلم لهم استسلاماً مطلقاً: «وسمع أهل دمشق بما رزق الله الملك من الأولاد فزينّوا المدينة وأظهروا الفرح والسرور»[2]. ودمشق في هذا لا تختلف عن مدن ألف ليلة وليلة جميعها، المُجْبَرة على أن تفرح لفرح ملوكها، وتبكي لبكائهم، وتعربد لعربداتهم.

(1) الحلاّق، أحمد البديري: **حوادث دمشق اليوميّة** (1154 ـ 1175هـ/1741 ـ 1762م)، تحقيق د.أحمد عزّت عبد الكريم، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الثانية 1418هـ/1997م، ص171.

(2) **ألف ليلة وليلة** 245/1.

وإذا كان ابن حوقل[1] قد رأى أنّ سكان دمشق غليظو الطباع، وميّالون إلى التمرد على وجه الخصوص، فإنهم في ألف ليلة وليلة دمى بيد حكامهم، وأذلاّء مهانون أمام هؤلاء الحكّام[2]، ولم يكونوا وحدهم الأذلاّء أمام هؤلاء الحكّام، بل إنّ العمال المرموقين لهؤلاء الحكّام هم أذلاّء أيضاً[3].

ودمشق في ألف ليلة وليلة هي المدينة المعرفيّة التي تحتفي بالتاريخ والقصص والمأثورات الشعبيّة[4]، فالملك محمد بن سبائك ملك خراسان مولع بالقصص والحكايات، وسير المتقدمين، ومؤرِّخ لها[5] ـ باعتبارها تراثاً جمعيًّا لخلاصة التجربة الإنسانيّة ـ وقد أراد هذا الملك ذات ليلة أن يستمع إلى «حكاية مليحة وحديث غريب، لم يكن سمع مثله قط»[6]، فاستدعى أشهر تجّار مملكته، وطلب منه أن يقصّ عليه حكاية غريبة فما كان من هذا التاجر إلاّ أن أرسل مماليكه إلى أصقاع الأرض ليجلبوا هذه الحكاية، لكنّهم لم يجدوها، إلاّ أن مملوكاً كان قد اتجه إلى مدينة دمشق، التي سمع عن حكاياتها الغريبة. وفي دمشق يقول له أحد شبانها إنه مسرع لكي لا يفوته سماع الحكايات العجيبة التي يرويها شيخ دمشقيّ: «فقال له هنا شيخ فاضل يجلس كل يوم على كرسي في مثل هذا الوقت ويحكي حكايات وأخباراً وأسماراً ملاحاً لم يسمع أحد بمثلها، وأنا أجري حتى أجد لي موضعاً قريباً منه وأخاف أني لا أحصل لي موضعاً من كثرة الخلق، فقال له المملوك خذني معك»[7]. وعند هذا الشيخ يجد

(1) عن/ميكيل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام**، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص457 ـ 458.

(2) لمزيد من الإطلاع تُراجع حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، 242/1 ـ 243.

(3) كما تشير إليه حكاية «الحجّاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان»، إذ يهين الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان واليه الحجاج بن يوسف الثقفي، ويجبره على أن يمشي حافياً من معرّة النعمان إلى مدينة دمشق، كرامة لطليقته الجميلة هند بنت النعمان.
ألف ليلة وليلة، 4/93. وسأشير بالتفصيل إلى هذه الحكاية في الفصل الرابع من هذه الدراسة.

(4) وتعتبر دمشق من المدن التي شكّلت حقلاً مرجعياً ثقافياً لبعض حكايات ألف ليلة وليلة، فقد «ساهم في خلق مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة كلّ من الهند وبلاد الفرس وأرض الجزيرة وسوريا ومصر وبلاد الأتراك.».
ينظر: ديرلاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافية**، ص215.

(5) **ألف ليلة وليلة**، 178/4.

(6) م ن، 179/4.

(7) م ن، 4/181.

هذا المملوك ضالّته المنشودة، وهي حكاية «**سيف الملوك وبديعة الجمال**»، فيدوّنها ويعود بها إلى خراسان[1].

إنّ لدمشق في التاريخ جاذبية خاصة بالنسبة لرجال العلم والمعرفة الذين كانوا يهاجرون إليها، ومع أنّ بغداد ظلّت مركزاً للعلم، إلاّ أن دمشق كانت قد سبقتها[2]. وطبيعي أن يسود في الجو المعرفيّ والثقافيّ الذي شهدته دمشق قصص وحكايات غريبة، نشأت في هذا الجو، أو حملها رجال العلم الذين أحبّوا دمشق وهاجروا إليها، كتلك التي يطلبها الملك الخراساني محمد بن سبائك، أو غيرها من القصص الأخرى.

وتبدو دمشق في موضع آخر ولاية مهمّة من ولايات الدولة الإسلاميّة، فعندما يطلب الملك ضوء المكان في حكاية «**الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان**»، من الوقّاد ـ الذي أكرمه حين مرضه، وحمله من القدس إلى دمشق ـ أن يتمنّى أمنية عظيمة ليحققها له، اعترافاً بجميله نحوه، فإنّ الوقّاد يجيب: «أتمنّى سلطنة دمشق»[3].

ودمشق في موضع آخر محطّة يرتاح فيها التجّار المسافرون. يقول الرّاوي في حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»: «ولم يزالوا مسافرين في البراري والقفار حتى أشرفوا على الشام»[4].

وثمّة إشارات في حكاية «**الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين**»، إلى أحياء حقيقية من أحياء دمشق، إذ يذكر راوي الحكاية أنّ الوزير شمس الدين عندما وصل إلى دمشق، قادماً إليها من مصر، نزل «في ميدان الحصباء ونصب خيامه»[5]. مع ملاحظة أنّ ميدان الحصباء الذي ذكره الرّاوي يمكن أن يكون هو الميدان الذي يطلق

(1) م ن، 4/183.
(2) زيادة، د.نقولا: «**الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك**»، ص54.
(3) **ألف ليلة وليلة**، 79/2.
(4) م ن، 2/375.
(5) م ن، 114/1.

عليه سكان دمشق اليوم اسم «ميدان البحصة». ويذكر الراوي نفسه أنّ هذا الوزير قَدِم مرّة أخرى دمشق، «فنزل في القابون وضرب الخيام» [1]. هذا ولا يزال «حي القابون» الذي ضرب الوزير خيامه به، معروفاً حتى الآن في دمشق، وبالاسم نفسه.

إذا كان كثير من المؤرخين القدماء يرون أن دمشق هي إرَم ذات العماد[2] التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[3]، فإنّ رواة ألف ليلة وليلة ينفون هذا الرأي، إذ تبدو إرم ذات العماد ـ كما يصفونها ـ مدينة تخيّليّة من نسيج الخيال، ومشكّلة تشكيلاً سحرياً غرائبيّاً، إنّها «مدينة مبنيّة بالذّهب والفضّة عمدانها من الزبرجد والياقوت، وحصباؤها من اللؤلؤ وبنادق المسك والعنبر والزعفران»[4]. وقد بناها شدّاد بن عاد الأكبر، بعد أن أرسل إليه ملوك الأقطار الذين كانوا خاضعين له، كل ما احتاجه المعماريون من أحجار نفيسة لبنائها[5].

إنّ هذه المدينة التخيّليّة ـ إرم ذات العماد ـ تبدو حلماً للرّواة الفقراء الذين يعيشون في أحياء شعبيّة وضيعة، والطامحين إلى العيش في مدن نظيفة وجميلة، ومن دائرة أحلامهم وتخيّلاتهم لتجاوز ظروف الحياة القاسية في مدنهم شكّلوا هذه المدينة. وقد يكون لهذه المدينة القديمة فضاء جغرافيّ حقيقيّ، وربما تكون قد تشكّلت في أزمنة تاريخية حقيقية، لكنّها في الليالي ليست إلاّ وهماً وحلماً، وفضاء تخيّليّاً، تطمح الذات الفردية المستلبة إلى اللوّذ به، بعيداً عن فضاءات مدنها الشعبيّة الفقيرة المحرومة من جميع ملذّات الحياة، سواء أكانت هذه الفضاءات في القاهرة وبغداد ودمشق، أم في جميع مدن الليالي الأخرى.

(1) م ن، 1/117.
(2) الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، 155/1.
(3) سورة الفجر، آية: 6، 7، 8.
(4) **ألف ليلة وليلة**، 412/2.
(5) م ن، 413/2.

3 ـ ملحق
المدن الثانوية في ألف ليلة وليلة

لقد ركّز رواة ألف ليلة وليلة على القاهرة ودمشق باعتبارهما أهمّ مدينتين في مصر وبلاد الشّام، إلاّ أنّهم ذكروا مدناً ثانويّة أخرى كثيرة[1]، لاتشكّل تحفيزاً مهمّاً في حركة السرد، ولا تسهم في تنامي الحكاية وتعقّد أحداثها، وصولاً إلى فكّ حبكتها، لأنّ هذه المدن ليست إلاّ محطّات سريعة يرتحل إليها السرد، ثم سرعان ما يغادرها إلى المدن الرئيسة التي تبدو فضاءات مهمّة تتشكّل فيها الحكاية، ثم تتشعّب.

لقد كانت مدينة الإسكندريّة في ألف ليلة وليلة ثاني مدن مصر المحروسة بعد القاهرة، وكانت حلب ثاني مدن بلاد الشّام بعد دمشق، إلاّ أنّ حلب لا تبدو مهمّة كمدينة الإسكندريّة، لأنّها لا تتعدّى أن تكون محطّة استراحة للأبطال القادمين إلى دمشق من بغداد أو القاهرة، فها هو الوزير نور الدين يغادر القاهرة، وعندما يصل إلى حلب مروراً بالقدس، يجعل من حلب محطّة استراحة له. يقول الرّاوي[2]: «وصل إلى مدينة حلب، فنزل في بعض الخانات وأقام ثلاثة أيّام حتّى استراح». وفي حكاية «**علاء الدّين أبي الشّامات**»، تبدو حلب ـ أيضاً ـ محطّة للرّحلات التجاريّة القادمة من القاهرة: «ثم سافروا [أي التجّار] إلى أن دخلوا حلب»[3].

(1) ومن المدن الثانوية التي ذكرها الرّواة في ألف ليلة وليلة: صنعاء في بلاد اليمن، وجدّة ومكّة في شبه الجزيرة العربية، وفاس ومكناس في المغرب، والقدس وعكا وغزّة وعسقلان في فلسطين، وحماة وحمص في سورية، وغيرها من المدن الأخرى.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 96/1.

(3) م ن، 357/2.

وتشير المراجع التاريخيّة إلى أنّ حلب عبر تاريخها امتلأت بالخانات التجاريّة التي كان ينزل بها التّجّار، وهذه الخانات قد تمتّعت بأبعاد مذهلة، وكانت تقع في الوسط التجاريّ في أطراف المنطقة المركزيّة بحلب[1]. وهاهي قافلة تجاريّة ـ من قوافل ألف ليلة وليلة ـ فيها شاب بغدادي مع أعمامه، تسافر من الموصل إلى دمشق، وفي الطريق تّتخذ حلب محطّة للاستراحة: «وما زلنا مسافرين حتّى وصلنا إلى حلب، فأقمنا بها أيّاماً ثمّ سافرنا إلى أن وصلنا إلى دمشق»[2].

لقد كانت حلب محطّة في طريق السفر ضروريّة للوصول إلى دمشق أو بغداد. فالمسافر البغدادي إلى دمشق يجب أن يمرّ بحلب، والمسافر الدمشقيّ إلى بغداد يجب أن يمرّ بحلب أيضاً، والمصريّون المسافرون إلى دمشق أو بغداد يجب عليهم أن يمرّوا بحلب. وهاهو أحد السّقائين المصريين يريد السّفر إلى بغداد، باعتبارها مركزاً قادراً على منح الغرباء الدّاخلين إليه فرص عمل كثيرة، وفي طريقه إلى بغداد يمرّ بحلب: «حتى وصلت إلى حلب، وتوجّهت من حلب إلى بغداد»[3]. وعلي الزّيبق المصري ـ أيضاً ـ يسافر من مصر قاصداً بغداد مع مجموعة من التجّار المصريّين والشاميّين، فتمرّ القافلة بحلب[4].

وتاريخياً كانت حلب «محطّة هامّة للتجارة بين الهند والبندقيّة (فينيسيا) بإيطاليا وحافظت على ذلك فترات طويلة بسبب مهارة أهل حلب التجاريّة (...) وبسبب التقاء عدّة طرق تجاريّة عند حلب من أهمّها الطريق التي كانت تعرف بطريق الهند التي تنطلق من حلب إلى بغداد فالبصرة فعبدان فهرمز ثم الهند»[5].

أمّا مدينة الإسكندريّة، فهي المدينة الجميلة من مدن مصر التي تحتفي بها

(1) ريمون، أندريه: **العواصم العربية ـ عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية**، تعريب قاسم طوير، دار المجد، دمشق، الطبعة الأولى 1986م، ص47.

(2) **ألف ليلة وليلة**، 145/1.

(3) م ن، 141/4.

(4) م ن، 144/1.

(5) القيّم، علي: «تغطية محاضرة: د. شوقي شعث: حلب وتجارة الحرير، ضمن محاضرات الندوة الدولية: حلب وطريق الحرير» في: **مجلة التراث العربي**، العدد الثامن والخمسون، شعبان 1415هـ/كانون الثاني (يناير) 1995، ص159.

الليالي، وهي لا تقلّ جمالاً عن القاهرة، من حيث الرفاهية ولذّة العيش فيها، يقول أحمد الدنف[1] لعلاء الدين أبي الشّامات: «أنا أوصلك إلى الإسكندريّة فإنها مباركة وعتبتها خضراء وعيشتها هنيّة». وهي مدينة مزدهرة تجاريّاً ومالياً، وفيها سوق للصّيارفة[2]، إلاّ أنّها مدينة مليئة بالشطّار واللصوص الذين يستحيل القبض عليهم إذا ما هربوا في أزقّتها، التي تتصل بعضها ببعض، هؤلاء اللصوص الذين يتمتّعون بقدرات عالية في النصب والاحتيال، تجعلهم قادرين على سرقة رأس النّظام في المدينة، وهو الوالي نفسه، فها هو أحد اللصوص يسرق كيساً من الذهب من والي الإسكندريّة: «ومدّ يده وأخذ الكيس من بين أيادي الوالي والجندي وتأخّر إلى خلف الوالي والجندي (...) وإذا به قد جرى ورمى نفسه في بركة، فصاح الوالي على حاشيته وقال: الحقوه وانزلوا خلفه، فما نزعوا ثيابهم ونزلوا في الدرج حتى كان الشاطر مضى إلى حال سبيله، وفتّشوا عليه فلم يجدوه، وذلك أنّ أزقة الإسكندريّة تنفذ إلى بعضها. ورجع الناس ولم يحصّلوا الشّاطر»[3].

وتشير حكاية «**علاء الدين أبي الشامات**»، إلى أعمال القرصنة التي كانت تتعرّض لها السفن المصريّة ـ الخارجة من مرفأ الإسكندريّة والداخلة إليه ـ من قبل السفن الأجنبيّة. فها هي إحدى السفن الإيطاليّة، بعد أن تبحر من ميناء الإسكندريّة إلى ميناء جنوى، تصادف سفينة مصريّة، فتهجم عليها، وتنهب وتأسر رجالها المسلمين. يقول الراوي[4]: «فبينما هما في الكلام، وإذا بمركب فيها أربعون من تجّار المسلمين، فطلع القبطان [الإيطالي] بمركبه عليهم ووضع الكلاليب في مراكبهم، ونزل هو ورجاله فنهبوها وأخذوها وساروا بها إلى مدينة جنوى».

(1) **ألف ليلة وليلة**،384/2.

(2) م ن، 113/3.

(3) م ن، 114/3.

ويشير قبطان إلى إحدى السفن القادمة من مدينة جنوى إلى لصوص الإسكندرية في حكاية«علاء الدين أبي الشامات»، قائلاً لعلاء الدين: «والإسكندرية فيها لصوص فأنت تروح معي إلى مركبي وأعطي لك الثمن».

م ن، 391/2.

(4) م ن، 392/2.

ويبدو أنّ البحار عبر تاريخ الملاحة البحريّة، كانت مليئة بالقراصنة الأوروبيين والعرب، فقد «كانت القرصنة نوعاً من» الخوّة «يفرضها القوي على الضعيف كالخوّة التي كانت تفرضها القبائل العربيّة على القوافل التجاريّة التي كانت تنتقل بين الخليج ومدن سوريا الشماليّة أو بين البحر الأحمر وبلاد مصر. أو نوعاً من» الجزية «يدفعها الضعيف للقوي»[1]. وظلّت هذه القرصنة سائدة في البحار حتى أواخر القرن السابع عشر، فقد اتّخذ القراصنة الأوروبيون قاعدة من مدغشقر، واعتدوا على سفن تجاريّة عربيّة في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربيّ[2].

وأكتفي في هذا الفصل بالحديث عن هذه المدن التي مرّ ذكرها، دون بقيّة المدن الأخرى. وإذا كنت قد خصّصت للقاهرة ودمشق صفحات عديدة، فلأنّ لهاتين المدينتين الصدارة بين مدن مصر وبلاد الشام التي عرّج عليها رواة ألف ليلة وليلة، وصوّروا بعض مظاهر الحياة فيها. فهاتان المدينتان لا يضاهيهما من بين مدن ألف ليلة وليلة العربيّة والإسلاميّة إلاّ بغداد والبصرة، باعتبار الأولى مدينة مركزيّة سياسيّة ومنارة للثقافة والعلوم والحضارة أيام الدولة العبّاسيّة، وباعتبار الثانية درّة موانئ ألف ليلة وليلة، ومفتاح الدولة العبّاسيّة صوب حضارات العالم ومدنه المزدهرة وتجارته.

وأحب أن أشير إلى أني في نهاية هذا الكتاب سأثبت جميع مدن ألف ليلية وليلة الواقعيّة وبلدانها التي ورد ذكرها[3]، تسهيلاً لمن يريد البحث في مواضيع تخصّ المدينة العربيّة وغير العربيّة، كما صوّرتها حكايات ألف ليلة وليلة بعلاقاتها الاجتماعيّة والسياسيّة والتجاريّة، وفضاءاتها المكانيّة، من مرافق عامّة وأسواق تجاريّة، وقصور وحمّامات وخانات، وغير ذلك.

(1) الخوري، د.فؤاد: **القبيلة والدولة في البحرين**، ص35

(2) م ن، ص36.

(3) في طبعة مكتبة دار الحياة تحديداً. وأثبت هذه المدن والبلدان متسلسلة كما وردت في الطبعة، ومن هنا فليس من الضروري أن تأتي مدن بلاد الشام أو مدن مصر متسلسلة، بل قد تأتي مدينة أجنبية وبعدها مدينة عربية، أو مدينة من بلاد الشام، وبعدها مدينة من مصر. أي كما وردت تماماً في مواضعها.

الفصل الثالث

المدن الخيالية في ألف ليلة وليلة

أ ـ مدن السندباد البحري وجزره/ أنموذجًا للخيال العجائبي

ب ـ المدينة الخيالية الأسطورية بين الدهشة والجمال والغرابة

ج ـ المدينة الخيالية بين الطلاسم والسحر وممارسيه

د ـ حكاية حسن الصائغ البصري وبهرام المجوسي والسيدة منار السنا/ أنموذجا للعجائبي والسحري

هـ ـ بعض مظاهر الاحتيال والمكايد في مدن ألف ليلة وليلة الواقعية والخيالية

أ ـ مدن السندباد البحري وجزره/ أنموذجًا للخيال العجائبي

سبق وأن أشرت في مقدمة هذه الدراسة إلى أهمّ المدن الخيالية أو المجهولة، أو التي تغيّرت أسماؤها في خارطة التسميات الجغرافية المعاصرة، وهذه المدن الخيالية التي ذكرتها نصوص ألف ليلة وليلة، هي: مدينة النحاس، ومدينة اختيان الختن، والطيران، وجوهر تكني، وواق الواق، والطيرب، والمدن والجزر الكثيرة التي كان يصل إليها السندباد البحري، كمدينة الملك المهرجان، ومدينة القرود، وإقليم الملوك، وجزيرة السلاهطة، وتلك التي لا تأخذ اسماً، وهي معظم الجزر التي وصل إليها في رحلاته السبع، ومدينة أخرى لا اسم لها .

إن أهم المدن والجزر الخيالية المتشكلة تشكيلاً سحريًا وعجائبيًا، في عاداتها وقيمها وأعرافها، والمذكورة في حكايات السندباد البحري، هي تلك المدن التي وصل إليها السندباد البحري، من خلال أسفاره السبعة العجيبة التي تبدو هي الأخرى أكثر عجائبية من هذه المدن. وفي مقدمة هذا الفصل يبدو لي من الضروري أن نسرد بشيء من الاختصار إلى مظاهر حياة السندباد البغدادي، ومسار رحلاته التي فاقت حد الخيال والتخيل في آن. فمن هو السندباد البحري؟

السندباد البحري ابن تاجر كبير من تجار بغداد كما تروي ليالي ألف ليلة وليلة، يموت والده، ويترك له أموالاً كثيرة، فيبدأ بإنفاقها على البذخ والمأكل والمشرب

ولذائذه[1] ومن هنا تبدو له مدينة بغداد فضاء جمالياً للمتعة، ومن يملك المال في بغداد الليالي فإنه يملك كل شيء: الأصدقاء والجواري والبساتين، ولذا كانت بغداد قريبة النفس إليه، بخلاّنها وجمالها ومتعها، وسرعان ما ينتهي المال، فتبدو بغداد فضاءً قاتماً ورتيباً ومملاً، وتبدو حياة السندباد صفحاتٍ مكرورة، في فضاء مكاني فقد ألقه وإشراقه الجمالي، فكانت الرحلة السندبادية، إذ باع ما تبقى له من متاعٍ قليلٍ، وأثاثٍ بسيط، واشترى بثمنها بضاعةً، وتوجّه من بغداد إلى البصرة[2]، حاملاً بضاعته، ميمِّماً صوبَ فضاءاتِ مدن سحرية وأسطورية، وعبر رحلات سبع، يصل فيها إلى أبعد الجزر والمدن المَفعمة بعبق السحر والأسطورة، والعلاقات الإنسانية الغرائبية التي تفوق حدّ التخيّل. يعيش مغامرةً، وتوثباً طامحاً لاكتشاف المجهول، وجمع الأصداف والجواهر العجيبة، ويصل به توثبه حدّ الموت، لكنه ينجو بطريقة هي الأخرى غرائبية، في السفرة الأولى يتعلق بقصعة في أعماق البحر وينجو[3]، وفي السفرة الثانية يربط نفسه برجل طائر الرخّ العملاق، لينقله إلى فضاء آمن[4]، ومرة يريد غولٌ كبير ـ في رحلته الثالثة. أن يأكله، فيتحايل عليه ورفيقاه، ويفقؤون عينيه، ويركبون قارباً يحملهم بعيداً إلى إحدى الجزر، حيث يصادفون ثعباناً ضخماً يأكل رفيقي السندباد، وينجو السندباد منه بأعجوبة سحريّة[5]، كل ذلك والرجلُ توّاق إلى الرحلة والكشف وجمع المال.

ويجمع أمتعته للسفرة الرابعة ويسافر من بغداد إلى ميناء البصرة ـ طريق سفره الدائم ـ ويركب مع رفاقه التجّار سفينةً، وفي عرض البحر تتحطم السفينة، وكالعادة ينجو السندباد بتعلقه بلوح خشب سرعان ما ينقله إلى إحدى الجزر البعيدة، ويشاهد مذهولاً كيف أن ملك الجزيرة يأكل زملاءه واحداً واحداً، بعد أن يطعمهم أهل الجزيرة طعاماً يفقدهم عقولهم، وينسون أنفسهم، ويصبح الطعام بالنسبة لهم الغاية

(1) مجهول المؤلف، **ألف ليلة وليلة**، دار مكتبة الحياة، المجلد الثالث، د. ت، ص 399.
(2) نفسه، ص 400.
(3) نفسه، ص 401.
(4) نفسه، ص 410.
(5) نفسه، ص 419 - 421.

الأولى، فيسمنون، ويُقَدّمون وجباتٍ دسمة لملك الجزيرة[1]، لكن السندباد يكتشف لعبة الملك، فيهرب ناجياً من بطشه، ويعمل ويجمع الأصداف، ويعود إلى البصرة محمّلاً بالجواهر والدرر الثمينة.

هو الرحّالة المتوثّب الذي لا تثنيه البحار ولا الأمواج، ولا الجزر الموحشة، ولا العفاريت، والناس المتوحشون - آكلو لحوم بني البشر-. وكعادته في كل مرة يعود إلى بغداد، ليعيد تشكيل الفضاء النفسي المثير والممتع، فيقامر على الحياة ويربحها، ويربح نساءها وجواريها الحسان، وينفق معظم أمواله في متعٍ جمالية مدهشة.

ويعيدُ الزمان رتابَته في بغداد، فتصبح بغداد منفى جديداً للسندباد، فيعدّ الرحيل إلى منفى آخر، يرسم صورة قَبْليةً له، إنه منفى أكثر سحراً وجاذبيةً من بغداد. وعلى مشارف الرحلة الخامسة يصبح السندباد أكثر ثراء، فيشتري هذه المرة سفينة[2]، بعد أن كان في سفراته الأربع السابقة مجرد مسافر عادي، أصبح الآن تاجراً مرموقاً ومعروفاً في بغداد كلها، إنه من كبار المُلاك والتجار. ويُبحر ورفاقه من البصرة ويصلون إلى جزيرة بعيدة، ويدهش رفاقه عندما يشاهدون بيضة الرخّ العجيبة، وبدهشة المكتشف يفكّون أسرار البيضة و يكسرونها، فيطاردهم الرخّ وأنثاه، ويرميانهم بالحجارة التي تُغرق سفينة السندباد، فيتعلق بلوح خشبي أسطوري، وينجو[3].

وفي الرحلة السادسة تتجدد فضاءات السفر، لتفتح له آفاقاً بعيدة من الثراء والنجاح، والاقتراب من السلطة بوزرائها وملوكها، إنها كشف للعالم الجديد بعلاقاته السحريّة، فبعد أن تتحطم سفينته، ووفق النسق السحري لبنية القص في ألف ليلة وليلة، ينجو ويصعد إلى جزيرة منسيّة مع بعض زملائه، وهناك يموت زملاؤه جوعاً[4]، فيصنع السندباد من خشب الجزيرة وحطام مراكبها قارباً، يحمّلُهُ بأنفس جواهر الجزيرة، ويقوده عبر نهر هائج مصطخب، سرعان ما ينقله إلى إحدى الجزر، وهناك

(1) نفسه، ص 427 - 428.
(2) نفسه، م 3، ص 437.
(3) نفسه، ص 439.
(4) نفسه، المجلد الرابع، ص 8 - 9.

يقرّبه ملك الجزيرة، ويكرّمه، عندئذ يستقر قلقه، ويغرف من لذائذ الجزيرة ومالها[1]، ثم يعود إلى البصرة محمّلاً بأغلى الجواهر النفيسة، وبالأموال الكثيرة، ويصحبُ معه إلى الخليفة هارون الرشيد هدية ثمينة، كان قد أرسلها ملك الجزيرة إليه ـ لم تذكر شهرزاد اسماً لهذا الملك ـ وفي بغداد يتربع السندباد عرش فضاء المدينة السحري، ويكرّمه الرشيد، ويقرّبه إليه، ويأمر أن تُكتب قصته وتُحفظ في خزائن الرشيد الخاصة، وكعادته ينسى الأهوال التي عايشها في رحلاته السابقة، ويشتري العبيد والجواري، ويشعل منزله رقصاً ونساء وفرحاً.

وتجيش ذكرى الفضاءات البعيدة، والمدن العابقة بالسحر والخرافة، فيحنّ إليها، وتحدّثه نفسه بالرحيل. هي النفس الخبيثة والأمّارة بالسوء ـ والعبارة لشهرزاد ـ وبالرغم من عدم حاجته إلى المال في هذه السفرة، إلاّ أن نفسيته القلقة، المتوثبة الجامحة ستدفعه للرحيل ثانية، و«لم تكن رحلاته السبع ومغامراته من أجل المكسب والحصول على المال فحسب، وإنما كانت استجابة لنزعة فطرية في نفسه إلى المغامرة وركوب الأخطار و محاولة إثبات ذاته وإضفاء معنى على وجوده من خلال ارتياد المجهول والمغامرة، ومن ثم فقد انطلق يجوب البحار والجزر والبلاد خلال رحلاته السبع، وكان يصادف في كل رحلة من الأخطار والأهوال ما كان حريّاً أن يصرفه عن التفكير في تكرار مثل هذه المغامرة، ولكن نزعته المغامرة الغلاّبة كانت تنتصر دائماً على عوامل التردد»[2].

ويعود يبهت فضاء بغداد الجمالي من جديد، فيجيش القلق السندبادي مغامرةً، وتوقاً إلى فضاءات بعيدة حالمة أسطورية، ويشدّ الرحال وتقذفه الريح الهوجاء إلى آخر بلاد الدنيا، حيث الأهوال والحيتان والبحار الهائجة، ثم يستقرّ قلقه عند شيخ جليل في مدينة عظيمة، يحتضنه، ويرعاه ويزوّجه ابنته الجميلة[3]. هي رحلته السابعة هذه أغزر رحلاته خبرةً ومعرفة، بعادات الشعوب وأحوالها الغريبة الأسطورية،

(1) نفسه، ص 12.

(2) د. علي عشري زايد، **الرحلة الثامنة للسندباد**، دار ثابت، القاهرة، الطبعة الأولى، 1984 م، ص 27.

(3) **ألف ليلة وليلة**، م 4، ص 20.

وأعمق كشفاً لاستبطانات النفس البشرية وتوثبها، ويمكن أن نصفها بحق، أنها رحلة أنثروبولوجية، إذ يسجّل فيها السندباد خلاصة خبرته ومشاهداته العجيبة بعد أن يكتشف الأحوال الغريبة لسكان هذه المدينة، فالناس تنبت لهم أجنحة ويطيرون في كل شهر، والأفاعي تبتلع الرجال، ويتحول الناس فيها إلى مردة وسحرة وشياطين[1]، ويمتدّ فضاء هذه الرحلة زمانياً ليصبح سبعة وعشرين عاماً[2]، وهي أطول رحلاته، وخلال هذه الأعوام الطويلة تغيب بغداد، وتصبح المدينة الجديدة معادلاً لها، إذ يجمع فيها السندباد أموالاً كثيرة، وهي ثروة والد زوجته الذي مات. و يهدأ قلقه سبعًا وعشرين سنة، ويصبح غنياً جداً، وتخاف زوجته عليه من شرور المدينة وسوء أهلها، وتطلب منه أن يعود بها إلى مدينة بغداد، ويعود، ليشكّل فضاء سحرياً آخر في بغداد، بأن يجمع أصدقاءه، ويشتري الجواري والغلمان، ويشعل حفلات الرقص والشراب، ويسرد لبغداد وسكانها مغامراته الأسطورية، إلى أن يأتي هادم اللذات ومفرّق الجماعات، كما ترى شهرزاد.

(1) نفسه، ص 21.

(2) نفسه، ص 23.

ب ـ المدينة الخيالية الأسطورية بين الدهشة والجمال والغرابة

تنوس حكايات ألف ليلة وليلة ما بين الواقعي والتخيلي والحلمي، والأسطوري الخرافي، وعندما تنهل من مكونات الواقع فإنها تكشف عن طباع الجماعات البشريّة، وما يعتمل في هذه الطباع من خبث ولؤم، وخير ونبل، وهي تتعرض لأعماق التركيبة الذهنية للذات العربية، بمعظم حالاتها وتجلياتها، ورحلتها الحضارية والمعرفيّة، ويرى فريدريش فون ديرلاين أنّه «كلّما توغّل الإنسان في حكايات ألف ليلة وليلة ازداد إحساسًا بأنفاس الروح العربي. فالطبيعة البشريّة كلها تأسرنا حينئذ إلى درجة أننا نستسلم راغبين إليها وحدها عن طواعية، ونفضّل ألّا نشعر بغيرها (...) ولقد كان العرب أصدقاء للحكايات الخرافية أكثر منهم مبتكرين لها، فلم يكونوا خالقين لها على طريقة الهنود، ولكنهم في مقابل هذا مستقبلين لها بطريقة نادرة، ولقد جعلت منهم موهبتهم في الملاحظة والتصوير رواة للحكايات الخرافيّة لا مثيل لهم، وذلك بمجرد أن تقع موضوعات الحكايات في حوزتهم، وطبيعي أن يخضع تصويرهم لمقدرة الملوك والوزراء والبهاء والغنى والقصور والعروش والمعارك الحربيّة وجمال النساء والأعياد والولائم، طبيعي أن يخضع لوصف معيّن»[1].

(1) فردريش فون ديرلاين: **الحكاية الخرافية ـ نشأتها. مناهج دراستها. فنيتها**، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، الطبعة الأولى 2016م، ص : 245 ـ 264 .

إن حكايات ألف ليلة وليلة تعدّ رحلة سوسيولوجية وأنثروبولوجيّة في المدن الحقيقية والخيالية التي ذكرتها الليالي، فنحن أمام عادات الشعوب وتقاليدها وأزيائها وفولكلورها، وأفراحها واحتفالاتها الطقوسية وأحزانها ومآتهما، وعادات تجارها، وأسواقها المدهشة الغرائبية، الحافلة بكل ما هو تخيلي وواقعي.

ومن يقرأ حكايات ألف ليلة وليلة بتركيز وإمعان، سيرى أن بنيتها تعمل على أن تستجمع المعقول واللامعقول، والواقعي والمتخيل. وعلى الرغم من تناقض هذه الثنائيات وتباعدها فإن الحكاية الواحدة تجمع بين هذين النقيضين. وقد أدرك رواة ألف ليلة وليلة أنّ النفس البشرية تميل إلى الخارق والغرائبي وتألف به، لأن هذا الخارق الغرائبي يسمو عن الواقع ويتجاوزه، ليشكل عالمًا حلميًا بديلاً منه، تتحقق فيه الطموحات والتطلعات الشخصيّة، لمجمل الأبطال الفاعلين في حركة السرد الحكائي، نحو المجد والجاه والسلطة، واكتناز الأموال والتفاخر بها. فعلى سبيل المثال إذا كان الراوي في حكاية (جودر ابن التاجر عمر) قد وضع شخصيته في الواقع المصري الفقير جدا، المليئ بالمآسي والمجاعات، فإنه بعد توالي السرد الحكائي شكل له فضاء مكانيًا آخر بديلاً، حتى ينتقل إليه ليحقق ما تصبو إليه ذاته الباحثة دائمًا عن واقع أكثر إنسانية وأكثر ثراء روحيًا وماديًا، إذ نقله إلى واقع مدينة مكناس، الخيالي، على الرغم من أن مكناس مدينة واقعية، وهناك في فضاء مدينة مكناس المغربية، تشكلت ثنائية الواقع والخيال السحري، لتحقق للبطل انتقالاً خرافيًا من عالم الفقر والفواجع إلى عالم السلطة والثراء، من أوسع أبوابهما، فحصل على كنز الشمردل المغربي، والخاتم السحري الذي يستحضر خادمه كل ما لذ وطاب إن دُعِك من يد مالكه، ثم عاد إلى مصر ليكمل مسيرة حياته في البذخ والأبهة واتخاذ الحظايا البهيات اللواتي، لا يحضرن أبدًا إلا بحضور المال الكثير. تقول الحكاية: «فدعك الخاتم فإذا بالخادم يقول لبيك فقال أمرتك أن تأتيني بأربعين جارية بيضاوات ملاحًا، وأربعين جارية سوداوات، وأربعين مملوكًا وأربعين عبدًا، فقال له: لك ذلك وذهب مع أربعين من أعوانه إلى بلاد الهند والسند والعجم وصار كلّما رأوا بنتًا جميلة يخطفونها أو غلاما يخطفونه وأنفذ أربعين عونًا آخر فجاءوا بجوار

سود ظريفات وأربعين جاءوا بعبيد وحضر الجميع إلى دار جودر فملأوها (...) فقال يارعد، هات لكل شخص حلة من أفخر الملبوس، قال حاضر وقال هات حلة تلبسها أمي وحلة ألبسها أنا فأتى بالجميع وألبس الجواري وقال لهن هذه سيدتكم فقبلوا يدها ولاتخالفوها واخدموها بيضًا وسودًا وألبس المماليك وقبلوا يد جودر وألبس أخويه وصار جودر كناية عن ملك وأخواه مثل الوزراء وكان بيته واسعًا فأسكن أخويه وجواريه في جهة وسكن هو وأمه في القصر وصار كل منهم في محله مثل السلطان»[1].

يشكّل رواة ألف ليلة وليلة ـ وفق رؤية تخيليّة ـ مدنًا سحرية، تبدو غاية في الدهشة والجمال والتخطيط والروعة، فمدينة النحاس الخيالية التي يرسل الخليفة عبد الملك بن مروان الأمير موسى بن نصير لجلب قماقمها النحاسيّة السليمانية هي مدينة عظيمة: «لم تر العيون أعظم منها وقصورها عالية، وقبابها زاهية ودورها عامرات، وأشجارها مثمرات، وأنهارها يانعات»[2].

أمّا المدينة التي يصل إليها الملك بدر باسم، وهو في طريق عودته إلى مدينته (خراسان) هي مدينة مسحورة: «بيضاء مثل الحمامة الشديدة البياض وهي مبنية في الجزيرة التي على ساحل البحر، وهي عالية الأركان مليحة البنيان رفيعة الحيطان والبحر يضرب في سورها»[3]، وملكتها (لاب) هي ساحرة كافرة تسحر شباب الجزيرة، وتحولهم إلى حيوانات. أمّا المدن التي يصل إليها السندباد البحري في رحلاته، وعلى أشرعة قواربه المحطّمة تبدو مدنًا موشاة بالسحر والعظمة. يقول السندباد: «ولم يزل الفلك منحدرًا مع الماء الجاري (...) إلى أن رسا بي إلى جانب

(1) **ألف ليلة وليلة**، م4، ص: 82 ـ 83.و أحب أن أشير، ومن باب أمانة البحث العلمي ودقته، أني أنقل النصوص المقتبسة كما وردت في الليالي تمامًا، مع العلم أن هذه النصوص تحتاج في كثير من الأحيان إلى علامات الترقيم الضرورية، غير أن مدوّن الحكايات أبقى هذه النصوص ناقصة ومن دون تدوين جميع علامات الترقيم كاملة، ولذا وجب التنويه.

(2) **ألف ليلة وليلة**، طبعة المكتبة الشعبية للطباعة والنشر، بيروت/لبنان، دون تاريخ، م 3، ص 160.

(3) نفسه، ص 218.

مدينة عظيمة المنظر مليحة البناء فيها خلق كثيرون»[1]. وإذا سألنا راوي الحكاية: هل تذكر اسمًا لهذه المدينة العظيمة مليحة البنيان، فإنه سيجيب على لسان بطله السندباد عندما يسأله الخليفة هارون الرشيد عن هذه المدينة الأسطورية التي رأى فيها العجاب: «والله يا أمير المؤمنين لا أعرف للمدينة التي هي منها اسمًا ولا طريقًا، ولكن لما غرقت السفينة التي كنت فيها طلعت على جزيرة وصنعت لي فلكًا ونزلت فيه في نهر كان في وسط تلك الجزيرة»[2].

ومن خلال هذه الفقرة يبدو واضحًا أن الراوي قرأ كثيرًا في أخبار المدن، وغرائبيتها، ونسج من خياله صورة لمدينة لم يشاهدها، بل شكلها تشكيلاً تخيلاً وحلميًا، حتى يدفع قارئه إلى مزيد من الدهشة والإغراق في الخيال، غير أن هذا الخيال لم يسعفه أن يضع اسمًا لهذه المدينة، عندها أكد أنه لا يعرف اسمًا لها.

وفي السفرة السندبادية السابعة، وهي الأخيرة، يذكر الراوي أن السندباد وصل إلى الصين، ولأنه لا يعرف أسماء مدن الصين، فقد شكل مدينة خيالية، وأطلق عليها اسم وادي الملوك، وافترض أن قبر نبي الله سليمان بن داود، موجود في هذه المدينة، وحتى يضفي الراوي هالة أسطورة خيالية على سفرات السندباد، دفعه لأن يصل إلى أقصى الدنيا، الصين، وهناك في الصين بدأ يتخيل مدنًا لم يرها، بل ربما سمع بها، ونسي أسماءها فشكل أسماء جديدة لها، من نسج خياله. يقول السندباد: «إن هذه الأرض تسمى إقليم الملوك، وفيها قبر سيدنا سليمان بن داود عليه السلام، وفيها حيّات عظيمة الخلقة هائلة المنظر»[3].

وإذا رجعنا إلى خارطة العالم المعاصر، وجدنا أن منطقة (وادي الملوك) موجودة بمدينة الأقصر المصرية، وفيها من الغرابة والسحر والأسرار الشيء الكثير، تشبه إلى حد بعيد غرابة وادي الملوك في الصين، وفي هذه المنطقة «ولدت حكايات كثيرة حول أسرار اللعنة التي ظهرت حكاياتها جلية مع اكتشاف مقبرة الملك «توت

(1) نفسه، ص 148.

(2) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م4، ص 13.

(3) نفسه، م4، ص 15.

عنخ آمون»، حيث يقول المؤرخون إن 40 ممن شاركوا في اكتشاف المقبرة عام 1922 ماتوا جميعاً بأسباب تافهة، بمن فيهم ممول رحلة الاكتشاف اللورد كارنارفون الذي توفي بسبب لدغة بعوضة في فندق «كونتيننتال» بوسط القاهرة»[1].

ولا ينسى راوي حكايات السندباد أن يستحضر خياله البعيد، ويضفي على سفرته السابعة مزيدًا من الصور الخيالية العجائبية، والحوادث الخارقة، فهو يقول وقبل وصوله إلى إقليم وادي الملوك : «وسمعنا صرخة عظيمة مثل الرعد القاصف فارتعبنا منها، وصرنا كالأموات، وأيقنا بالهلاك في ذلك الوقت، وإذا بحوت قد أقبل على المركب كالجبل العالي ففزعنا منه، وقد بكينا على أنفسنا بكاء شديدًا، وتجهزنا للموت وصرنا ننظر إلى ذلك الحوت ونتعجب من خلقته الهائلة، وإذا بحوت ثان قد أقبل علينا، فما رأينا أعظم خلقة منه ولا أكبر، فعند ذلك ودّعنا بعضنا بعضًا ونحن نبكي على أرواحنا، وإذا بحوت ثالث قد أقبل وهو أكبر من الاثنين اللذين جاءنا قبله، وصرنا لا نعي ولا نعقل، وقد اندهشت عقولنا من الخوف والفزع. ثم إن هذه الحيتان الثلاثة صارت تدور حول المركب وقد أهوى الحوت الثالث ليبتلع المركب بكل ما فيه وإذا بريح عظيم قد ثار فقامت السفينة ونزلت على شعب عظيم فانكسرت وتفرّقت جميع الألواح، وغرفت جميع الحمول والتجار والركاب في البحر»[2].

إن هذه الحيتان التي تخيلها الرواي والقادرة على ابتلاع المراكب بكل من فيها في سفرة السندباد السابعة، ليست بأغرب من ذلك التل من الزبرجد في وسط بحيرة عظيمة من بحار مدن اليونان القديمة، لا يذكر الراوي أي اسم لها، وليست بأغرب من تلك الحيّات التي شاهدها بطل حكاية (الحكيم دانيال وولده حاسب كريم الدين)، في ذلك التل الواقع وسط هذه البحيرة، تقول الحكاية : «بلغني أيها

(1) داليا عاصم: «وادي الملوك ... رحلة في عالم الأساطير المصرية القديمة»، **جريدة الشرق الأوسط**، تصدر عن/ المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق، لندن، الثلاثاء 1 رجب 1438 هـ/ 28 مارس، 2017م، ملحق سفر وسياحة.

(2) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م 4، ص 15 ـ 16.

الملك السعيد أنّ حاسبًا كريم الدين لما وصل إلى التلّ وجده من الزبرجد الأخضر وعليه تخت منصوب من الذهب مرصّع بأنواع الجواهر، وحول ذلك التخت كراسي منصوبة بعضها من الذهب وبعضها من الفضة، وبعضها من الزمرد الأخضر فلما أتى إلى تلك الكراسي تنهد ثم عدّها فرآها اثني عشر ألف كرسي. فطلع على ذلك التخت المنصوب في وسط تلك الكراسي وقعد عليه، وصار يتعجّب من تلك البحيرة وتلك الكراسي المنصوبة. ولم يزل متعجبًا حتى غلبه النوم. فنام ساعة.

وإذا به يسمع نفخًا وصفيرًا وهرجًا عظيمًا. ففتح عينيه وقعد، فرأى على الكراسي حيّات عظيمة طول كل منها مائة ذراع. فحصل له من ذلك فرح عظيم ونشف ريقه من شدّة خوفه ويئس من الحياة، وخاف خوفًا عظيمًا، ورأى عين كل حيّة تتوقد مثل الجمر وهي فوق الكراسي. والتفت إلى البحيرة فرأى فيها حيات صغيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى. وبعد ساعة أقبلت عليه حيّة عظيمة مثل البغل وعلى ظهر تلك الحيّة طبق من الذهب، وفي وسط ذلك الطبق حيّة تضيء مثل البلور، وجهها وجه إنسان وهي تتكلم بلسان فصيح»[1].

وحتى تصبغ شهرزاد وجه هذه المدينة الخيالية، بكل ما هو غرائبي، لجأت إلى طاقات عالية من الخيال، بدت طاقات خارقة، كشفت عن أحداث خارقة، وأتت بأعداد حسابية أكثر غرائبية من هذه الأحداث، وكل ذلك تمّ في فضاءات وأمكنة يحتاج العقل إلى قوة تخيلية حتى يشكلها، ولا ندري ما هو السبب الذي جعل الراوي يذكر أن عدد الكراسي هو اثنا عشر كرسيًا، وأن عدد الحيات لا يعلمها إلا الله، إلا إذا سلمنا أن المغزى من ذلك هو الإمعان في خيال حكائي مدهش وغرائبي وقادر على شد المتلقي وأسره ضمن فضاءات من الدهشة الأسطورية التي تحقق له حالة من التخيل الجمالي لتحفيز نزعته صوب الحصول على الملكية التي لا حدود لها، والحلم بتحقيقها، ومن ثم العمل على هذا التحقيق، وأن لم يكن حقيقيًا، فليكن على مستوى التخيل الحالم المثير والبهي، فشهرزاد «تحرص على أن تُدرج حكاياتها ضمن مقولة الخارق، إذ لا مناص من أن تكون الحكاية «عجيبة وغريبة»، وإلا فإنها

(1) نفسه، م 3، ص 291.

غير جديرة بأن تُروى. يجب أن يتحقق المستمع أنه ينجز ذهنيًا المسافة التي يقطعها البطل من العالم المألوف إلى العالم الغريب. يحدث هذا الاستعداد الخاص منذ اللحظة التي يتمّ فيها تقديم الحكاية باعتبارها مدهشة ومذهلة. وأخيرًا تخلق شهرزاد إحساسًا من الانتظار القلق، إذ أن نهاية الحكاية لا تتطابق مع نهاية الليلة، وهكذا على الملك أن يترقب، كلّ فجر، استكمال الشمس لمسيرتها اليوميّة، وما أن تنتهي الحكاية حتى تبدأ أخرى جديدة بوصفها أكثر جمالاً وعجائبية من سابقتها»[1].

يجمح خيال الرواة في كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، ليشكلوا سردًا حكائيًا مضادا لوعي العقل الإنساني، ولمنطق العقل المعرفي، ويدفعهم هذا الجموح للسفر صوب مدن تخيليّة موشحة بكل ما هو سحري وخرافي، ففي حكاية موسومة بـــ: (حكاية عبد الملك بن مروان وموسى بن نصير والقماقم السليمانية في مدينة النحاس)، يحكي الوزير طالب بن سهل حكاية عن أخبار سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، وعما أعطاه الله من الملك والحكم، ويذكر له مدينة النحاس التي كان يسجن فيها المردة والشياطين الخارجين عن أوامره في قماقم من النحاس، عندها يستغرب الخليفة، ويرغب في إحضار هذه القماقم له من مدينة النحاس إلى دمشق مقر حكمه، فيوعز إلى أخيه عبد العزيز بن مروان، حتى يكلف، بدوره، الأمير موسى بن نصير، ويأمره بالذهاب إلى هذه المدينة الخيالية، بصحبة طالب بن سهل، وذلك أملاً في استحضار أحد القماقم السليمانية السحرية، ولأجل إنجاز هذه المهمة الصعبة جدًا يستحضر الأمير موسى بن نصير معهم الشيخ الصوفي المغربي عبد الصمد بن عبد القدوس، وهو أحد العارفين في فك شفرة النقوش الصخرية، واللغات القديمة، وعندما يصلون إلى مدينة النحاس التي تضم القماقم السليمانية الخيالية، يكتشفون قبرًا طويلاً هائل المنظر، وعليه لوح من الحديد الصيني، وقد كتب عليه حكم ومواعظ، فيطلب الأمير موسى من الشيخ العارف أن يفكّ شفرة الحكم المنقوشة على هذا اللوح الذي يغطي قبر كوش بن شداد بن عاد الأكبر،

(1) د. عبد الفتاح كيليطو: **العين والإبرة (دراسة في ألف ليلة وليلة)**، ترجمة مصطفى النحال، نشر الفنك للترجمة العربية، الدار البيضاء/ المغرب، الطبعة الأولى 1996م، ص 16 ـ 17.

وينقلها لهم. تقول هذه الحكم : «أمّا بعد أيها الواصل إلى هذا المكان اعتبر بما ترى من حوادث الزمان وطوارق الحدثان، بالدنيا وزينتها وزورها وبهتانها وغرورها وزخرفها، فإنها ملاّقة مكارة غدارة، أمورها مستعارة تأخذ المعار من المستعير، فهي كأضغاث النائم وحلم الحالم، كأنها سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء يزخرفها الشيطان للإنسان إلى الممات، فهذه صفات الدنيا فلا تثق بها ولا تمل إليها فإنها تخون من استند إليها وعول في أموره عليها، لا تقع في حبالها ولا تتعلق بأذيالها، فإني ملكت أربعة آلاف حصان أحمر، وتزوجت ألف بنت من بنات الملوك نواهد أبكار كأنهن الأقمار، ورزقت ألف ولد كأنهن الليوث والعوابس، وعشت من العمر ألف سنة منعم البال والأسرار، وجمعت من الأموال ما يعجز عنه ملوك الأقطار، وكان ظني أن النعيم يدوم بلا زوال، فلم أشعر حتى نزل بنا هادم اللذات ومفرّق الجماعات، وموحش المنازل ومخرب الدور العامرات، وإن سألت عن اسمي فإني كوش بن شداد بن عاد الأكبر»[1].

إن اللامعقول والخيالي وغير المنطقي في القص عائد إلى خبرة الراوي، وتنوع ثقافته وقراءاته في الكثير من المصادر والحقول المرجعية المتعلقة بالسحر والجان والشيطان، ومن هذه الخلفية القرائية المتعددة استطاع أن يشكل في الليالي الخوارق العجائبية، وأدوات هذه الخوارق كالبساط الطائر المسحور، والسمكة الجزيرة في حكايات السندباد، وطائر الرخ الأسطوري الذي يزق أفراخه بالأفيال، والحية البغلة التي تحمل على ظهرها طبقًا من الذهب، ولعل أهم الحكايات في ألف ليلة وليلة التي تبتعد عن منطق العقل، وتغرقه في دوامة من التخيل الغرائبي الخادع، هي: حكاية دليلة المحتالة وابنتها زينب النصّابة، وحكاية أبي محمد الكسلان مع قرده الذي كان السبب في ثرائه الأسطوري، وهذه الحكايات التي بين أيدينا (حكاية عبدالملك بن مروان وموسى بن نصير والقماقم السليمانية في مدينة النحاس).

إن المتأمل في تركيب الوحدة السردية السابقة من حكاية(عبد الملك بن

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م4، ص 30 ـ 31. ونلاحظ أن الراوي ذكر: (رزقت ألف ولد كأنهن الليوث)، وكان من المفروض أن يقول: (رزقت ألف ولد كأنهم الليوث).

مروان)، على مستوى التشكيل اللغوي، والرؤيوي الذي يدعو إلى الزهد في ملذات الحياة الفانية، وفي مسار الحدث التاريخي الذي يرويه راوي الحكاية، سيلاحظ التداخل الواضح بين بنية النص القرآني الكريم وبين بنية اللغة الواصفة، وسيلاحظ أن راوي الحكاية على قدر كبير بمعرفة التركيب البلاغي من وصف وسجع وتشبيه، فعندما يقول : (كأنها سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء)، فإن هذه الجملة تتناص تناصا واضحا (intertextuality) مع الآية القرآنية الكريمة : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة النور، آية 39).

وعندما يذكر الراوي أن (كوش بن شداد عاد الأكبر)، تزوج ألف بنت ورزق ألف ولد كأنهم الليوث الفوارس، فإنه يستند إلى بعض المرويات التاريخية التي قرأها في مدوناتها القديمة عن حياة قوم عاد الأولى، الذين ملكوا الأرض بعد النبي نوح عليه السلام، والذين ذكرهم القرآن الكريم في الآيتين الكريمتين: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (سورة النجم، آية: 50)، و: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (سورة فصلت، آية: 15)، وتذكر هذه المرويات أن قوم عاد كانوا «في هيآت النخل طولاً، وكانوا في اتصل الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر، وكانت نفوسهم قوية، وأكبادهم غليظة، ولم يكن في الأرض أمة هي أشدّ بطشًا وأكثر آثارًا وأقوى عقولاً وأكثر أحلامًا من قوم عاد، ولم يكن الهلك يعرض في أجسامهم، لقوة آثار الطبيعة فيها، وما أوتوه من الزيادة في تمام وكمال الهيئة»[1].

و لعلّ الراوي شكّل صورة كوش بن شداد بمواصفاتها وأبهتها، وسطوتها في الوحدة السردية السابقة، تأسيسًا على مرجعيات تاريخية ذكرت أباه شداد بن عاد، وجدّه (عاد الأكبر)، إذ ورث هذه المواصفات والسلوكيات الخارقة عن أبيه وجده،

(1) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق عبد الأمير مهنا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، الجزء الثاني، ص 42.

فجده (عاد الأكبر) كان له «من صلبه أربعة آلاف ولد، وأنه تزوج ألف امرأة (...) وعاش ألف سنة ومائتي سنة ثم مات»[1].

ولندقق جيدًا في عدد الأرقام الواردة، فمن صلب جده (4000) ولد، وهو يملك (4000) حصان أحمر، والجد (عاد الأكبر) تزوج ألف امرأة، وكذلك الحفيد كوش هو الآخر تزوج (ألف امرأة)، ومن هنا فلا عجب أن يكون راوي الحكاية أتى بهذه الأعداد الخيالية الروائية، اعتمادًا على أعداد تاريخية سمع عنها، أو قرأها في مصادرها الأصلية. ولا يغيب عن ذهن القارئ الكريم أن هذه الأرقام التي ذكرتها هذه المرويات التاريخية مبالغ فيها، وتبدو هي الأخرى أشد غرابة وأبعد خيالاً من مرويات ألف ليلة وليلة .

وبالعودة إلى الحكاية السابقة نقرأ ما يقول كوش عن نفسه: «وقد كان لي جيش ألف عنان، أهل جلاد، برماح وأزراد، وسيوف شداد، فأمرتهم أن يلبسوا الدروع السابغات، ويتقلدوا السيوف الباترات، ويقتلوا الرماج الهائلات، ويركبوا الخيول الصافنات (...)، وألف جب في كل جب ألف قنطار من الذهب الأحمر، وفيها أصناف الدر والجواهر، ومثلها من الفضة والذخائر التي يعجز عنها ملوك الأرض»[2].

وتذكر المصادر التاريخية أن قوم عاد كانوا حقًا أشداء وأقوياء قوة كبيرة، وأثرياء ثراء فاحشًا، ولا ندري مدى صدق هذه المصادر، ويمكن القول: على الرغم من وجود بعض الصدق في جزء من هذه المرويات، يظل قسم كبير منها غير قابل للتصديق، بل فيها كثير من التحريف والمبالغة مثل كثير من المدونات التاريخية في العصرين الأموي والعباسي. ويروي مصدر من هذه المصادر أن أحد ملوك عاد: «بنى صرحًا عظيمًا فبلغ ارتفاعه في الجو تسعمائة ذراع، ثمّ هندم أعلاه بأغرب بنيان، وبنى فيه مجالس على أساطين غريبة، وكان عرض كل حائط من حيطانه الأربع ألف ذراع وما بين ذلك من الطبقات جعلها كلها مخازن وملأ جميعها من المال والطعام

(1) نفسه، ص 43.

(2) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م 4، ص 30.

والشراب وجميع الآلات وكل ما يخاف أن يحتاج إليه يومًا من الدهر بما يقوم به هو وأهله مدّة طويلة، وجعله مجلسه أعلاه وأمر الناس أن يعبدوه»[1].

وإذا كان المؤرخ والموسوعي والأديب ابن النديم قد حكم على ألف ليلة وليلة بالغث البارد، قائلاً: «وقد رأيته بتمامه دفعات، وهو بالحقيقة كتاب غثّ بارد الحديث»[2]، فربما يكون هذا الحكم عائدًا إلى الأفق التخيلي الفسيح الذي يمتاز به رواة ألف ليلة وليلة، وإلى مدى قدرتهم على أسطرة المكان والزمان، وقدرة الخارق الخرافي على تجاوز المعقول ومنطق العقل والدخول إلى أعماق عوالم سحرية خرافية موغلة في القدم والغرابة.

غير أنه يمكن القول إن حكم ابن النديم على ألف ليلة وليلة هو حكم قاس يبتعد عن المعرفة العميقة المتعلقة بفن القص وأغراضه، وأبعاده. وهو حكم سريع أطلقه صاحبه من دون أن يتعمق جيدًا في فهم نصوص هذا الكتاب، وبنيتها، وارتباطها بثقافة الشعوب والحضارات التي أنتجتها. وإذا كان النقاد القدماء «عازفين عن(ألف ليلة وليلة) لمجاوزتها حدّ المعقول ـ ودعنا ممّا يخدش فيها الحياء وهو قليل ـ فلن يكون غلوًا ولا انحرافًا أن نضعها الوضع المناسب في أدبنا الحديث»[3].

إذا اعتبرنا أن ما يخدش الحياء في حكايات ألف ليلة وليلة هو مجمل الموتيفات الجنسية المحفزة في الحكايات، والإشارات الكثيرة إلى طبيعة العلاقة الإيروسية بين رجال الليالي ونسائها، فإن هذه الموتيفات ليست قليلة، بل هي كثيرة جدًا، و«لقد وعت شهرزاد طبيعة المجتمع الذكوري الذي يضع أول اهتماماته قضايا الجسد والجنس، والذي هرمه الاجتماعي في الليالي شهريار ـ السلطة ـ فعمدت إلى تطعيم السرد بخطاب لغوي مثير من ناحية الوصف، وشحنته بالعبارات ذات

(1) بو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، أخبـار **الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة 1416 هـ/1996م، ص 108.

(2) أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم (ت 385 هـ): **الفهرست**، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له الدكتور يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص : 475.

(3) د. أحمد كمال زكي: «عن ألف ليلة وليلة»، **مجلة فصول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة/مصر، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، شتاء 1994م، ص 22.

الايحاءات الجنسية القريبة أو البعيدة»[1]. ومن منحى آخر لا يمكن أن نعدّ تشكيل موتيفات الجنس في الليالي مما يخدش الحياء، بل هي تشكل أبعادًا إشارية دالة يمكننا من خلالها أن نفهم كثيرًا من أوضاع المدن الواقعية والخيالية، السياسية والاجتماعية والإنسانية. ولقد ألّف العديد من فقهائنا وشيوخنا الأجلاء الكثير من كتب الجنس،و تحدثوا عن الجانب الجنساني في مجتمعاتهم بتفصيل ومعرفة علمية دقيقة بـأهمية الجنس والحب، فعلى سبيل المثال من يقرأ كتاب (الروض العاطر في نزهة الخاطر)[2]، وكتاب (رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه)[3]، وغيره من المدونات الجنسية الأخرى سيكتشف أن الحديث عن الجنس ومظاهره وفوائده ليس عيبًا ولا مخلاً برجولة الرجل، ولا بأنوثة المرأة طالما يحتل هذا الجانب حيزًا مهمًا في النفس الإنسانية، وطالما تحدثت الكتب السماوية عن تشريعات الأنكحة وسننها، وقوانينها.

وهاهو الإمام الغزالي يوكّد أهمية الحب وفوائده، ويرى أنّ لذته لا تعادلها لذّة أخرى لو دامت، ومن فائدة هذه اللذّة في الدنيا الرغبة في أن تظلّ دائمة في الجنّة، وبالتالي فإنّها المفتاح الباعث على عبادة الله عزّ وجل، والمحفّز له. يقول: «وإنّ في هذه اللذة التي لا توازيها لذّة لو دامت، لتنبيها على اللذّات الموعودة في الجنان، إذ الترغيب في لذّة لا تعرف لا ينفع، فلو رُغِّب العنين في لذّة الجماع، أو الصبي في لذّة الملك لم ينفع الترغيب فيه، فإحدى فوائد هذه اللذة في الدنيا الرغبة في دوامها في الجنّة، ليكون ذلك باعثًا على عبادة الله عزّ وجلّ (...) فانظر إلى حكمة الله تعالى، ثمّ رحمته كيف جعل شهوة واحدة حياتين: حياة ظاهرة، وحياة باطنة، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله، والحياة الباطنة هي الحياة الأخروية،

(1) محمد عبد الرحمن يونس: ال**جنس والسلطة في ألف ليلة وليلة**، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1998م، ص 15.

(2) محمد بن أبي بكر النفزاوي: **الروض العاطر في نزهة الخاطر**، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، آب/أغسطس 1990م.

(3) أحمد بن سليمان بن كمال باشا: **رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.

فإنّ في هذه اللذّة الناقصة بسرعة الانصرام تحرّك الرغبة الكاملة بلذّة الدوام، فتحثّ على العبادة الموصلة»[1].

ولاتكتمل جماليات هذه المدن والجزر الخيالية الخرافية، وفق التركيب السردي العجائبي، إلا بوجود القصور الغاصّة بالجواري، والفضاءات المشبعة بسحر الموسيقا وآلات الطرب، هذه الأجواء المشبعة بدلالات نفسية واجتماعية تتعلق ببنية السلوك الجنساني، لدى الرجال والنساء، على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فمن يمتلك القصور لا بدّ وأن يمتلك المال والجواري والحدائق والبساتين، ويشعل الأماسي طربًا وموسيقا، وهو في النهاية الحاكم الفعلي والآمر، والمتحكم في اقتصاد المدينة، لأنّ «أساس السيطرة والهيمنة في بنية الدولة هي القوة المالكة (...). إن الذي يملك هو وحده الذي يحكم ويتحكم في التحليل الأخير»[2]. وبتضخم نزعة التملك والهيمنة والسطوة تتشكل الأجواء السحريّة، ويشكل السرد من خلالها أجواء المباهج الغرائبية التي تصل حدّ الخيال، بل تتجاوزه أحيانًا، ففي إحدى الحكايات يريد السلطان أن يبعد ابنه الوحيد، الذي يفوق أهل زمانه وسائر أقرانه حكمة وعلمًا وأدبا، بوصفه ابنًا للسلطة، كما ترى شهرزاد، عن شرّ محدق به كما يرى المنجمون، فما كان من والده السلطان إلاّ وأن أرسل«جارية من خواصه وكانت أحسن الجواري، فسلم إليها الولد وقال لها خذي سيدك إلى القصر واجعليه عندك ولا ينزل من القصر إلاّ بعد سبعة أيام تمضي، فأخذته الجارية من يده وأجلسته في ذلك القصر، وكان في القصر أربعون حجرة في كل حجرة عشر جوار، وكل جارية معها آلة من آلات الطرب إذا ضربت واحدة منهن يرقص من نغمتها ذلك القصر، وحواليه نهر جار»[3].

وفي المدن الخيالية والعجائبية تتشكل علاقات الحب والزواج بطريقة خيالية هي الأخرى، إذ تتزوج النساء الرجال الوسيمين بطريقة الحيلة والمكر،

(1) محمد بن أحمد التجاني: **تحفة العروس ومتعة النفوس**، تحقيق جليل العطية، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن/قبرص، الطبعة الأولى حزيران/ يونيو، 1992م، ص 52.

(2) د. محمود أمين العالم، **مجلة دراسات يمنية**، مركز الدرسات والبحوث اليمني، صنعاء/اليمن، العدد 36، العام 1989م، ص 17.

(3) **ألف ليلة وليلة**، نسخة المكتبة الشعبية، م 3، ص 171.

زواجًا غرائبيًا، ففي قصة (عزيز وعزيزة) المتفرعة من حكاية (تاج الملوك ودنيا بنت الملك شهرمان)، وبينما كان عزيز، بطل الحكاية، الشاب الوسيم يجول في مدينة (لا يذكر الراوي اسمًا)، يدفعه فضوله لدخول أحد الأزقة، فتشاهده سيدة عجوز، وتعجب بجماله، وتقوده مستخدمة تقنيات حيل النساء المعقدة والمحبوكة بطريقة غرائبية، إلى منزلها الذي يبدو منسوجًا بطريقة جمالية وخيالية، وهناك تكون بانتظارهما ابنتها الصبية التي تريد عزيز زوجًا لها، شاء أم أبى. تقول الحكاية: «فلما رأتني الصبية من داخل الباب بالدهليز، أقبلت علي ثم دخلت والعجوز قدامها والشمعة موقدة معها حتى قطعت سبع دهاليز، وبعد ذلك دخلت بي إلى قاعة كبيرة بأربعة دواوين، ثم خلتني، فرأيت بناء القاعة كلها رخام من أبهى المرمر، وجميع فرشها من حرير وديباج، وكذلك المخدات والمراكب، وهناك دكتان من النحاس الأصفر، وسرير من الذهب الأحمر، مرصع بالدر والجوهر (...) ثم أقبلت علي وضمتني إلى صدرها ثمّ قالت لي: يا عزيز أي الحالتين أحبّ إليك الموت أم الحياة؟ فقلت لها: الحياة. قالت: إذا كانت الحياة أحب إليك فتزوج بي. فقلت: أنا أكره أن أتزوج بمثلك»[1].

ويضطرّ عزيز مكرهًا، ويقبل أن يتزوج هذه الصبية، ويبدو زواجه بها هو الآخر لا يخلو من خيال مدهش، فبعد أن يتزوجها يطلب منها أن تسمح له بالخروج، لكنها تخاف من أن لا يعود، فترفض وتسجنه سنة كاملة في منزلها : «ثم نمنا إلى الصباح وأردت أن أخرج، وإذا هي أقبلت ضاحكة وقالت: هل تحسب أن دخول الحمام مثل خروجه؟ (...) فما أنت إلا زوجي بالكتاب والسنة، وإن كنت سكران فأفق لعقلك، إن هذه الدار التي أنت فيها ما تفتح إلا في كل سنة يومًا، قم إلى الباب الكبير وانظره.

فقمت إلى الباب الكبير فوجدته مغلقًا مسمّرًا، فعدت وأعلمتها بأنه مغلق مسمر، فقالت لي: يا عزيز إن عندنا من الدقيق والحبوب والفواكه والرمان والسكر واللحم والغنم والدجاج وغير ذلك، ما يكفينا أعوامًا عديدة، ولا يفتح بابنا من هذه الليلة إلا بعد سنة. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقالت: وأي شيء يضرك وأنت

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م 2، ص 36.

تعرف صنعة الديك التي أخبرتك بها، ثم ضحكت، فضحكت أنا وطاوعتها فيما قالت. ومكثت عندها وأنا أعمل صنعة الديك، آكل وأشرب (...) حتى مرّ علينا عام كامل: اثنا عشر شهرًا»[1].

ويظهر البعد التخيلي في مدن الخيال في حكايات ألف ليلة وليلة، وذلك من خلال مقدار المسافة في ما بينها، وها هو جانشاه، أحد سكان البلاد الخيالية، يحدد المسافة بين بلاده وبين قلعة (جوهر تكني): «وكنا نقيم ببلادنا سنة وبقلعة جوهر تكني سنة،و لا نسير إلا ونحن جالسين فوق التخت والأعوان (أعوان الجن والعفاريت) تحمله وتطير به بين السماء والأرض، فقال له بلوقيا: يا أخي جانشاه ما كان طول المسافة بين تلك القلعة وبين بلادكم؟ فرد عليه جانشاه وقال له: كنا نقطع في كل يوم مسافة ثلاثين شهرًا، وكنا نصل إلى القلعة في عشرة أيام»[2].

ونجد هذا البعد التخيلي، في تلك المسافة ما بين مدينة النحاس، وبين الولاية التي يعمل موسى بن نصير واليًا عليها (القيروان بتونس). يقول الشيخ عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودي لموسى بن نصير: «إن هذه الطريق وعرة (...) قليلة المسالك، فقال له الأمير: كم مسيرة مسافتها؟ فقال مسيرة سنتين ذهابًا ومثلها مجيئًا»[3].

وتظهر قوة خيال الرواة، من خلال وصفهم للمدن والجزر البحرية الخيالية، هذه المدن السحرية الغاصة بالأعاجيب المستعصية على التخيّل، والمتشكلة من خلال قراءات الرواة عن عالم البحار وأساطيرها وأعاجيبها، وها هو الراوي يصف إحدى هذه المدن التي وصلها الأمير الأسعد، وتحكمها امرأة قوية: «ووصلوا إلى مدينة مبنية على شاطئ البحر، ولها قلعة بشبابيك تطلّ على البحر، والحاكم على تلك المدينة امرأة يقال لها الملكة مرجانة»،[4] والعجيب أن جميع جنود هذه الملكة هم من النساء.

(1) نفسه، ص 38.
(2) نفسه، م3، ص 379.
(3) نفسه، م4، ص 27.
(4) نفسه، م 2، ص 317.

وتبدو الجزر البحرية في حكايات الليالي أنموذجًا جماليًا وسحريًا مدهشًا وفريدًا، وكأنها جنان الأرض، ولا يعادل سحريتها وعجائبيتها إلا الرجال الذين يقصدونها، ويمتازون بقدرات سحرية خارقة، تجعلهم يمشون على سطح ماء بحارها العظيمة، ومن دون أن يصيبهم الغرق. تقول الحكاية: «أن بلوقيا لمّا فارق جانشاه سار ليالي وأيامًا حتى وصل إلى بحر عظيم، ثم أنه دهن قدميه من الماء الذي معه ومشى على وجه الماء حتى وصل إلى جزيرة ذات أشجار وأنهار كأنها الجنة، فرأى شجرة عظيمة ورقها مثل قلوع المراكب، فقرب من تلك الشجرة فرأى تحتها سماطًا ممدودًا وفيه جميع الألوان الفاخرة من الطعام، ورأى على تلك الشجرة طيرًا عظيمًا من اللؤلؤ والزمرد الأخضر، ورجلاه من الفضة ومنقاره من الياقوت الأحمر وريشه من نفيس المعادن، وهو يسبح الله سبحانه وتعالى ويصلي على محمد صلى الله عليه وسلم»[1].

وحتى تكتمل اللوحة السحرية لهذه الجزيرة كان لا بدّ لراوي الحكاية من أن يضفي عليها تشكيلة لونية زخرفية تعزز من قدرة التخيلي، وتجعله يوغل في الغرابة والدهشة، فأحضر أصناف الطعام الملوّنة، ولم ينس لونًا من ألوانها، ثم أضاف إليها موتيفات لونية أخرى أسهمت في وضع اللمسات الجمالية الأخيرة على هذه الجزيرة، وهي ألوان الطائر الخيالي الذي لا يعرف الراوي اسمًا له، فاكتفى بوصفه أنه طائر عظيم، محاط بهالة سحرية لونية من الأبيض والأخضر والأحمر.

وأمام جمال هذه الجزر ودهشة العجائبي فيها، رأى الرواة أنه يجب أن تكون ملاذًا للأحلام التخيلية الجامحة البعيدة، فأغرقوها بالمال والجواهر واليواقيت، وأنه يجب عليهم أن يكافئوا أبطالهم الخرافيين الذين يخرقون المألوف ويستطيعون الوصول إليها بمزيد من المكافآت، وأولها الحصول على كنوز من الأموال التي لا تفنى، وثانيها النساء الجميلات اللواتي لم تجد بهن مدنهم الحقيقية. يقول السندباد عن إحدى الجزر التي وصل إليها في سفرته السادسة: «طلع الركاب الذين نجوا على ذلك الجبل، ثمّ إلى الجزيرة وانتشروا فيها، وقد ذهلت عقولهم من ذلك وصاروا

(1) نفسه، م 3، ص 381.

مثل المجانين من كثرة ما رأوا في الجزيرة من الأمتعة والأموال على ساحل البحر. وقد رأيت في وسط تلك العين شيئًا كثيرًا من أصناف الجواهر والمعادن واليواقيت واللآلئ الكبار والملوكيّة، وهي مثل الحصى في مجاري الماء في تلك الغيطان، وجميع أرض تلك العين تبرق من كثرة ما فيها من المعادن وغيرها. ورأينا كثيرًا في تلك الجزيرة من أعلى أنواع العود الصيني والعود القماري»[1].

ومن يقرأ كل حكايات ألف ليلة وليلة سيكتشف أن رواة الليالي لا يمتازون بخيال خارق، يستحضرون من خلاله كل ما هو غرائبي في بنية المدن الخيالية، وتركيبتها الاجتماعية والطبقية والعمرانية فحسب، بل إن لديهم معرفة كبيرة بتشكيل الخيال العلمي الذي يبشر بعلوم الطيران والفضاء والفلك. وسيتساءل هذا القارئ: هل كان رواة الليالي، قديمًا، يتخيلون أن مستقبلاً سيأتي، تحلّق فيه الطائرات في السماء، وتجوب المراكب الفضائية سماء هذا العالم الواقعي من برّه إلى بحره؟

وها هو راوي حكاية (الحكماء أصحاب الطاووس والبوق والفرس)، يسعفه خياله البعيد في تشكيل فرس من عاج وأبنوس تطير عاليًا، وبسرعات مختلفة، وتحط في أي مكان تشاء، وهي عندما تهبط الأرض، تبدو كأنها مركبة فضائية تنزل بسهولة ويسر. يقول في هذه الحكاية عن فرسه: «فقام ابن الملك وركب الفرس وحرك رجليه فلم تتحرك من مكانها، فقال: يا حكيم الزمان أين الذي ادّعيته من سرعة سيرها؟ فعند ذلك جاء الحكيم إلى ابن الملك وأراه لولب الصعود، وقال له: افرك هذا اللولب، ففركه ابن الملك، وإذا بالفرس قد تحركت وطارت بابن الملك إلى عنان السماء. ولم يزل طائرًا به حتى غاب عن الأعين. فعند ذلك احتار ابن الملك في أمره وندم على ركوبه الفرس، ثم قال: إن الحكيم قد عمل حيلة على هلاكي فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.ثم إنه جعل يتأمل في جميع أعضاء الفرس، فبينما هو يتأمّل فيها إذ وقع نظره على شيء مثل رأس الديك على كتف الفرس الأيمن، وكذلك الأيسر. فقال ابن الملك: ما أرى غير هذين الزرين. ففرك الزر الذي على الكتف الأيمن فازدادت به الفرس طيرانًا طالعة إلى الجو، فتركه ثمّ نظر إلى الكتف الأيسر

(1) نفسه، م 4، ص 7 ـ 8.

فرأى ذلك الزر ففركه فتناقصت حركات الفرس من الصعود إلى الهبوط، ولم تزل هابطة به إلى الأرض قليلاً قليلاً، وهو محترس على نفسه»[1].

لقد أسهمت قوة المخيلة العلمية لدى الرواة في تصوير ابن الملك، وكأنه قبطان طائرة أو مركبة فضائية، وعلى درجة عالية من مهارة قيادة مركبته وتوجيه خط سيرها توجيهًا دقيقًا، وكيف يشاء وأنّى يشاء، ومن دون أن يخطئ في بوصلة المواقع والمدن التي يقصدها. يقول الراوي: «ثم إن ابن الملك ركب فرسه وأردفها خلفه [أي ابنة ملك مدينة صنعاء] وأوثقها بالرباط خوفًا عليها وسار بها. ولم يزل في الهواء حتى وصل إلى مدينة أبيه، فاشتد فرحه، ثم أراد أن يظهر للصبية محل سلطانه وملك أبيه (...) فأنزلها في بعض البساتين التي يتفرّج فيها والده وأدخلها في المقصورة المعدة لأبيه»[2].

والسؤال الذي يمكن أن يطرحه متلقي هذه الحكاية: بماذا كان هذا الراوي سيبدع، ويتخيّل لو أنه عاش عصرنا الحاضر، عصر التقنيات والمعارف العلمية المذهلة، وحرب النجوم وغزو الفضاء، وتقدم البرمجيات الحديثة هذا التقدم المذهل؟. ويبدو أن خيال هذا الراوي العلمي، لو أنه عاش في العصر الحالي، سيبدع مدنًا جديدة معلقة في الفضاء، وطائرات ومراكب فضائية عملاقة وأكثر تعقيدًا مما هي عليه الآن في زماننا الراهن.

وها هي قوة التخيل عند بعض الرواة، ترى أنه يمكن للإنسان إذا ما صنع ثيابًا خاصة من الريش، أن يصبح أسرع من أي طائرة في العالم يمكن أن تفوق سرعة الصوت، فالسيدة شمسة في حكاية (حاسب كريم الدين وملكة الحيات)، تلبس ثوبها العجائبي، ويصعد فوق ظهرها البطل جانشاه، وتقطع مسافة تقول إنها تحتاج إلى ثلاثين شهرًا، غير أنها تقطعها بطاقاتها السحرية، في فترة زمنية قصيرة جدًا، من الصباح إلى الظهيرة. يقول الراوي: «ثم قامت شمسة وأمرت جانشاه أن يركب على ظهرها، فقال جانشاه: سمعًا وطاعة.

ثم ركب جانشاه على ظهرها وطارت به من وقتها وساعتها، ولم تزل طائرة من

(1) نفسه، م3، ص 88 ـ 89.

(2) نفسه، ص 99 ـ 100.

الصبح إلى وقت الظهر، فبينما هما سائران إذ نظرا الإمارات التي أخبرهما بها الشيخ نصر. فلما رأت شمسة تلك الإمارات نزلت من أعلى الجو إلى مرج فسيح ذي زرع مليح فيه غزلان رائعة وعيون نابعة وأثمار يانعة وأنهار واسعة، فلما نزلت في ذلك المرج نزل جانشاه من فوق ظهرها وقبّلها بين عينيها، فقالت: يا حبيبي وقرة عيني أتدري ما المسافة التي سرناها؟ قال: لا، قالت: مسافة ثلاثين شهرًا، فقال لها جانشاه: الحمد لله على السلامة»[1].

إن هذا الطيران السريع باستخدام الموتيفات السحريّة (فرس أبنوس، ثوب من الريش، طائر ضخم يستطيع حمل بني البشر فوق ظهره)، يبدو بالنسبة للمروي لهم في ألف ليلة وليلة نوعًا من المعجزات الضاربة في السحر والخيال الجامح، فبعد أن ينتهي سرد الحكاية نجد المتلقين غارقين في الدهشة، عندها تزيد شهرزاد في تعزيز حس الدهشة والمعجزات الخرافية لتبدأ برواية حكاية جديدة قائلة: «وما هذا بأعجب مما جرى للحمّال»[2]. وعند ذلك يحث المتلقون الرواة لأن يرووا مزيدا من المعجزات الخيالية: «وماذا جرى للحمّال يا شهرزاد»[3].

وتستمر الحكايات، ويظلّ المروي لهم مأخوذين تحت سطوة تأثير المعجزات والخيال، وعاجزين عن فهم أسرار السرد الخفيّة، وكيفية تشكّل معجزاته الخياليّة، «فالمعجزة هي كل ما عجز العقل البدائي أو العادي عن تعليله، فإذا درست الظاهرة التي يظنّها الناس معجزة أو خارقة، فإنّه يمكن ـ في أغلب الأحيان ـ تفسيرها على أساس من دراسة وبحث وعلم. وعندما تُفسَر ويدرك سرها، تنتفي في الحال معجزاتها، ولهذا يقولون: إذ بزغ نور العقل ولّى زمن المعجزات»[4].

(1) نفسه، ص 349 ـ 350.
(2) نفسه، م1، ص 46.
(3) نفسه، ص 46.
(4) د. عبد المحسن صالح: **الإنسان الحائر بين العلم والخرافة**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 235، يوليو 1998م، ص 10.

ج ـ المدينة الخيالية بين الطلاسم والسحر وممارسيه

أحب أن أشير في البداية إلى أن السحر وطلاسمه وأدواته وممارسيه يشكّلون بنى مهمة جدًا من بنى ألف ليلة وليلة، على مستوى الحوار، وتداخل الحكايات وتشعبها، وعلاقات الحب والزواج، ومجمل العلاقات الاجتماعية بين الشخوص الحكائية الكثيرة في ألف ليلة وليلة، وهي تهيمن كثيرًا على فضاءات ألف ليلة وليلة الزمانية والمكانية. ومن هنا فإنّ وجود هذه الظاهرة في الغالبية العظمى من حكايات الليالي تجعل المدن الواقعية والمدن الخيالية تلتقي في عاداتها وأعرافها، وفي بنيات النصب والاحتيال التي يمارسها الرجال والنساء معًا، سكان هذه المدن، ونتيجة لذلك يبدو تقسيم مدن ألف ليلة وليلة إلى واقعية وإلى تخيلية ليس دقيقًا تمامًا، لأنه لا يمكن الفصل بين الواقع والمتخيّل في علاقات مدن ألف ليلة.

وإذا كان رواة ألف ليلة وليلة يضفون على المدن الواقعيّة مزيدًا من الخيال، بحيث لا يفرّقها عن المدن الخيالية إلا من خلال معرفة أسمائها التاريخية الحقيقية، فإن ذلك يعود إلى البنية الذهنية المعرفية لهؤلاء الرواة التي تنمو وتتشكّل من الواقع والخيال، ومن مجمل الخبرات المتنوّعة والممتدة إلى حقول المعرفة الإنسانية الواسعة، وبخاصة تلك الحقول التي تنهل من الكهانة، والميثولوجيا والخرافات وعادات الشعوب، وبنية الميتافيزيقيا التي تؤمن بها.

إن سحرية القص في الليالي تفترض مدنًا وقصورًا مسحورة، وطلاسم وشعوذات، وإيمانًا مطلقًا بميتافيزيقيا سحرية غيبية، يستحضرها الساحر متى شاء،

أو خاتم (شبيك لبيك)، وسيفًا سحريًا، أو سلسلة ذهبية قادرة على تغيير مجرى التاريخ وإحداث شرخ في سيرورته، وأحداثه. وتتجلى هذه السحرية الغرائبية في حكاية (جودر ابن التاجر عمر وأخويه مع التاجر المغربي)، فقصر المغربي في مدينة فاس موشى بالسحر والعجائبية كما حياة المغربي نفسه، وبغلته المسحورة، والكنز السحري (كنز الشمردل) في فاس العابقة بالسحر والخرافة.

يركب المغربي بغلته المسحورة، ويحمل جودر وراءه، ويطيران من مصر إلى فاس، وفي فاس يكتشف جودر عالمًا جديدًا لا علاقة له بتاريخه وزمانه وعالمه في مصر. ومن خصائص السرد في ألف ليلة وليلة أنه يركز في معظم ارتحالاته السردية على التباين الطبقي في المدن الخيالية والواقعية التي يصل إليها، ويبدو هذا التباين مذهلاً: أحياء ومدن تغرق بالذهب والعاج والزمرد والأبنوس واللازورد، وأحياء ومدن أخرى تغرق في الطين والذباب والمهن الوضيعة، وسكانها يستدينون ثمن قوت يومهم، كما في حالة جودر في مصر، إذ ظل يستدين ثمن طعامه ثلاثة أيام، كما تذكر شهرزاد، وأولئك الذين يشيدون جنان الأرض، ويقيمون يوتوبيا المال والجواري وحفلات الرقص، وأسواق الذهب، وتفتح لهم كنوز المال السحرية كما هي حال المغري. تصف شهرزاد جودر والتاجر المغربي عندما يصلان إلى فاس: «وفي اليوم الخامس وصلا إلى فاس ومكناس ودخلا المدينة، فلما دخلا صار كل من قابل المغربي يسلم عليه، ويقبّل يده، ومازالا كذلك حتى وصل إلى باب فطرقه وإذا بالباب قد فتح وظهرت منه بنت كأنها القمر، فقال لها يا رحمة يا بنتي افتحي لنا القصر قالت على الرأس والعين يا أبي ودخلت تهز أعطافها فطار عقل جودر، وقال ما هذه إلا بنت ملك، ثم إن البنت فتحت القصر فأخذ الخرج من فوق البغلة وقال لها انصرفي بارك الله فيك وإذا بالأرض قد انشقّت ونزلت البغلة ورجعت الأرض كما كانت فقال جودر يا ستار الحمد لله الذي نجانا من فوق ظهرها، ثم إن المغربي قال لا تعجب يا جودر فإني قلت لك إن البغلة عفريت ولكن اطلع بنا إلى القصر، فلما دخل ذلك القصر اندهش جودر من كثرة الفرش الفاخرة وممّا رأى من التحف وتعاليق الجواهر والمعادن، فلما جلس أمر البنت وقال يا رحمة

هات البقجة الفلانية وأقبلت ببقجة وضعتها بين يدي أبيها ففتحها وأخرج منها حلّة تساوي ألف دينار وقال له البس يا جودر مرحبا بك، فلبس الحلة وصار كناية عن ملك من ملوك العرب»[1].

إننا لا نغالي إذا قلنا إن بعض أحياء مدن المغرب، ومنها المدن الكبرى فاس ومكناس والرباط والدار البيضاء ومراكش، وطنجة وتطوان لا تزال حتى الآن مغلّفة بحالة سحرية من التمائم والأحراز والشعوذات والخرافات والغيبيات والضرائح، والأساطير، ومنها أسطورتا (عائشة البرية)، و(عائشة البحرية)، ولا يزال بسطاء الشعب، وحتى كثير من مثقفيه والمتعلمين فيه يؤمنون بهذه الحالات ويمارسونها في حياتهم اليومية، وهي منتشرة، وبشكل علني، في أحياء المغرب، وقد لمستها وعاينتها بنفسي حين إقامتي في المغرب. وقد «عرف عن المغرب بأنه من بين أكثر الدول الإسلامية ممارسة للسحر والشعوذة وأعمال الروحانيات، كما عرفت منطقة سوس بأنها مملكة الفقهاء والشيوخ الروحانيين (...) ويشهد تاريخ المغرب وشمال إفريقيا على أن الملوك الأولين، المنتسبين إلى العائلات الحاكمة في المغرب، ذوي الأصول الأمازيغية المتحدرين من سوس كالمرابطين والموحدين، كانوا يمارسون السحر والشعوذة ويشجعونها. وتتحدث كتب التاريخ عن ازدهار أسواق السحر والسحرة في عصورهم، بل إن ملوك المرابطين كانوا يستشيرون المنجمين، قبل عبورهم إلى الأندلس. وتعدّ منطقة سوس عبر التاريخ، مستقرًّا لأولياء الله الصالحين وموطنًا للضرائح والزوايا والمدارس العتيقة، ومجمعًا لمختلف الطرق والمذاهب الصوفية، ومنطقة تعج بالسحرة يعيشون في جبة الفقهاء، حتى إن أغلب المغاربة يعتبرون فقهاء سوس سحرة ومشعوذين»[2].

تشير الحكاية السابقة إلى حال (جودر) الغارق في بؤسه عندما كان في

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م3، ص 226.

(2) محمد إبراهيمي: «سوس... ملوك استخراج الكنوز»، **جريدة الصباح**، يومية مغربية مستقلة شاملة، الدار البيضاء/المغرب، عدد 4 ديسمبر، كانون الأول 2017م. نسخة إلكترونية على الرابط التالي: https://assabah.ma/269503.html.

بلاده مصر، وإلى حال التاجر المغربي الغارق في النعيم وأبهة العيش ورفاهيته في مدينته المغربية فاس. ويمكن القول إن مدن ألف ليلة وليلة هي مدن التباين الطبقي بامتياز، إذ يتجلّى هذا التباين في كل مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبوصف هذه المدن مدنا للتملك والامتيازات الطبقية فإن الحكايات والأسماء، وأخبار الأدب والتاريخ، وقصص الأمم المهمة، وذات العبر الأخلاقية والمعرفية هي مقصورة أيضًا على طبقة من دون أخرى، فهاهو الشيخ الدمشقي الذي يحكي حكاية (سمر الملوك وبديعة الجمال) يشترط على مملوك التاجر حسن، ألا يحكي هذه الحكاية أبدًا إلا لخاصة الناس، وعلية القوم، يقول له : «اعلم يا ولدي أن أول شرط هو أنك لا تقول هذه القصة على قارعة الطريق، ولا عند النساء والجواري، ولا عند العبيد والسفهاء، ولا عند الصبيان، إنّما تقرؤها عند الأمراء والملوك والوزراء وأهل المعرفة من المفسرين وغيرهم، فقبل المملوك الشروط وقبّل يد الشيخ»[1].

وعندما يسمع الملك هذه القصة من التاجر حسن، فإنه هو الآخر يستدعي، فقط، أفراد الطبقة العليا، من ذوي المعرفة والسلطة والنفوذ، في مملكته إلى مجلسه ليستمعوا لها، لأنهم من الخواص تحديدًا، بعيدًا عن الطبقات الدونية من فقراء الشعب ومهمّشيه البسطاء. تقول الحكاية : «فلما سمع الملك كلام التاجر حسن أمر في وقته وساعته بأن يحضر كل أمير عاقل، وكل عالم فاضل، وكل فطن وأديب وشاعر ولبيب، وجلس التاجر حسن وقرأ هذه السيرة عند الملك»[2].

وقلّما تخلو مدينة من مدن ألف ليلة وليلة من أنواع السحر وطرقه العجيبة كافة، فالسحر بالنسبة لسكان هذه المدن وسيلة للتملك، والتقرب من السلطة، والانتقام من الأعداء أو الحصول على النساء، أو استحضار المال والثراء. ويبقى أهم نوع من أنواعه: سحر النساء للرجال وإخضاعهم لرغباتهن. وإذا كانت المدن اليهودية والمجوسية والمسيحية اعتمدت السحر وتفننت في إتقانه وممارسته، فإن المدن

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م4، ص 183.

(2) نفسه، م 4، ص 184.

الإسلامية هي الأخرى تعلمته بمهارة وأتقنته، واستخدمته شرائحها كافة، وبطبيعة الحال تتفاوت درجات هذا السحر ومدى تأثيره من مدينة إلى مدينة، ومن طبقة اجتماعية أو سياسية إلى أخرى.

هذا وقد عرفت كل المدن العربية قديمًا السحر والشعوذة، ولا تزال مظاهر السحر، والذين يقومون به موجودة حتى الآن في كثير من مدن العالم المسيحي واليهودي والإسلامي المعاصرة. وبهذا الصدد يدوّن عبد الرحمن بن خلدون بعض ما شاهده وسمعه من ضروب السحر السائد في المدن التي زارها وعاش فيها، وفي أوساط الأقوام الذين التقاهم، ويقول : «وشاهدنا أيضًا من المنتحلين للسحر وعلمه من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سرّه فإذا هو مقطوع متخرّق، ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبجع، فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض، وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتًا وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاه. ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء. وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة»[1].

دونت نص ابن خلدون السحري والعجائبي هذا بغض النظر عن مصداقيته أو عدم هذه المصداقية، وذلك ليكون إشارة سريعة إلى بعض فنون السحر كما ذكرتها كثير من المدونات التاريخية والحكائية، هذه الفنون التي تلتقي في كثير من قسماتها مع تلك التي سجلها الرواة في حكايات ألف ليلة وليلة.

وإذا كانت معارف السحر هذه قد انتشرت قديمًا عند أهل بابل من السريانيين والكلدانيين، وعند أهل مصر من الأقباط وغيرهم[2]، فإنه يمكننا أن نعدّ بغداد الواقعية في ألف ليلة وليلة هي مدينة السحر الأولى بين المدن الواقعية والمدن الخيالية كما تؤكد حكايات ألف ليلة وليلة، بوصف هذه المدينة ملتقى للأقوام والشعوب

(1) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، طبع ونشر لجنة البيان العربي، بيروت/لبنان، الطبعة الأولى، 1960م، الجزء الثالث، ص 1118 ـ 1119.

(2) نفسه، ص 1113.

والحضارات القديمة، والتيارات الثقافية، والعقائدية القادمة من أبعد أصقاع الأرض إليها، هذه المدينة التي تصفها شهرزاد بأنها منارة مشعة جاذبة الباحثين عن الشهرة والمال والجمال: جمال الطبيعة والجواري، وجمال الأسواق التجارية، وروح المغامرة والثراء السريع.

وعلى مستوى السرد والقص فإن بغداد تشكل فضاء قصصيًا ممتدًا ونابضًا ومتشعبًا في الحكايات، وهو أكثر فضاءات ألف ليلة وليلة اتساعا وخصوبة معرفية وثقافية وسحرية، ففيها السندباد البحري وحكاياته الخارقة، وفيها الخلافة العباسية وقصورها، وجواريها الحبشيات والروميات والهنديات والفارسيات والسريانيات وغيرهن كثير جدًا. وكل من يأتي إلى هذه المدينة زائرًا أو مقيمًا يحمل معه ثقافته ومعتقداته، وطقوسه السحرية، وفنون احتياله، وتأتي شهرازد لتفاعل هذه المعتقدات والثقافات والطقوس السحرية داخل الحكايات المتنامية والمتشعبة والمتشابكة في آن، لتصبح بغداد بؤرة القص المركزيّة في الحكايات.

إذا كانت المدينة هي الصورة المثلى للإنسان، بوصفها فضاء للحلّ والترحال والفرح والحزن والأمل، ولأنها «كالإنسان تمامًا له وجه قد يكون محببًا أو مكروهًا ولها شخصية كشخصيته فهي قريبة إلى القلب أو بعيدة عنه. بعض المدن كثيرة الاحتشام وبعضها كالغواني لا تستسلم إلا بعد لقاءات طويلة، وبعضها تستسلم فورًا وبدون تحفظ، منهن ملكات ومنهن بورجوازيات صغيرات ومنهن سهلات بسيطات»[1]، فإن شهرزاد تقدّم مدينة بغداد إلى شهريار على أنها الحلم، بعيد المنال، الذي يستحيل تحقيقه، لأنها «محلّ الخلافة وفيها شطار كثيرون وتنبت فيها الشطارة كما ينبت البقل في الأرض»[2]، ولأنّ «فيها نساء تلعب على الرجال»[3]. ويستغرب علي الجمل صديق علي الزيبق كيف أن امرأة جميلة في بغداد (زينب النصابة) هزمت علي الزيبق سيد فنون السحر والحيلة، وانتصرت عليه قائلاً: «بحق الاسم الأعظم أن

(1) محمد سليم طبارة: **مجلة الفكر العربي**، معهد الإنماء العربي، بيروت/لبنان، العدد الثلاثون، ديسمبر/كانون الأول، 1982م، ص 144.

(2) **ألف ليلة وليلة**، طبعة المكتبة الشعبية، م3، ص 280.

(3) نفسه، ص 282.

تخبرني كيف تكون رئيس فتيان مصر وتغريك صبية؟ فصعب عليه وندم»[1].

يتشكّل السحر في مدن ألف ليلة وليلة على عدة أشكال وطرق ومواصفات، ويمكننا أن نوجزها بشكل تقريبي وفق النماذج الرئيسة التالية:

1 ـ السحر المراد به الشر والانتقام وإلحاق الضرر بالشخوص الحكائية كتحويلهم إلى طيور وقردة وبهائم، أو تعطيل طاقاتهم العقلية والجسدية، وغالبًا ما تقوم به الجواري والكهنة والشخصيات اليهودية والمجوسية والهندية، وبعض الشخصيات المرموقة كالملوك وزوجاتهم وبناتهم، وفي أحيان أخرى تمارسه النساء الزانيات على أزواجهن حقدًا عليهم، وتأديبًا لهم لأنهم يضبطونهن متلبسات بجريمة الزنا.

2 ـ سحر النساء للرجال، وبالتالي الحصول على مزيد من الحريات في حركاتهنّ وخروجهن ولقائهنّ بعشاقهن، وتقوم به زوجات الرجال المهمين جدًا، وأثرياء التجار، والنساء العاديات أيضًا من الطبقات الوسطى في المجتمع.

3 ـ سحر المردة والعفاريت من الجان، ودور هؤلاء في خطف النساء والرجال إلى قلاع خيالية بعيدة جدًا.

4 ـ السحر المكرّس للسرقة والنهب، أو لردع السارق عن السرقة، ثمّ تأديبه وتحويله إلى حيوان.

5 ـ السحر الذي يمارسه الشيوخ المؤمنون بالله سبحانه وتعالى، الذين يستمدون طاقاتهم السحريّة من مخاطبتهم الملائكة دفاعًا عن مظلوم أو مسحور، وتخليصًا لهذا المظلوم من هيئته الحيوانية إلى هيئته الإنسانية البشرية.

6 ـ سحر المردة والجان المؤمنين، وهم أتباع النبي سليمان، عليه السلام، ويستخدمون طاقاتهم السحريّة للدفاع عن الشخصيات المؤمنة، وإبطال سحر الكفار والمردة والجان الكفّار.

(1) نفسه، ص 282.

إذا كان السحر بوصفه علمًا «بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشريّة بها على التأثيرات في عالم العناصر إمّا بغير معين أو بمعين من الأمور السماويّة، والأول هو السحر، والثاني هو الطلسمات»[1]، فإنّ هذه الاستعدادات ملأت مدن الليالي الواقعية والخيالية، لأن شهرزاد تقدم أبطالاً عارفين ومثقفين ومطّلعين على أنماط متعددة من الفلسفات الهندية والفارسية والإسلامية، ولديهم اهتمامات ومعارف بعلم الفلك والروحاني والكيمياء، وعلم السيمياء، وسيدهش المتتبع لحكايات الليالي من معرفة هؤلاء الأبطال بهذه العلوم المتطورة[2].

وأشير هنا إلى بعض النصوص من الحكايات التي بدورها تحيل إلى نماذج مختارة من أشكال السحر وطرقه ومواصفاته التي ذكرتها سابقًا.

من النموذج الأول (السحر المراد به الشرّ)، وفي حكاية (التاجر والجنيّ والشيوخ الثلاثة) يروي الشيخ الأول للعفريت حكايته مع زوجته الساحرة، التي تحولت بفعل السحر إلى غزالة، وقبل أن تتحوّل قامت بالانتقام من ولده وسحرته وحولته إلى عجل، ثم حوّلت زوجته (ضرتها) إلى بقرة. تقول الحكاية: «قال الشيخ الأول: اعلم أيها العفريت أن هذه الغزالة بنت عمي، كنت قد تزوجتها وهي صغيرة السن، وأقمت معها نحو ثلاثين سنة فلم أرزق منها بولد فأخذت لي سرية فرزقت منها بولد ذكر كأنه البدر، فكبر شيئًا فشيئًا إلى أن صار ابن خمس عشرة سنة، فطرأت لي سفرة إلى بعض المدائن فسافرت بمتجر عظيم. وكانت بنت عمي هذه الغزالة تعلّمت السحر والكهانة م صغرها فسحرت ذلك الولد عجلاً وسحرت الجارية أمه بقرة وسلمتها إلى الراعي»[3].

ومن هذا النموذج أيضًا ما أشارت إليه حكاية (الشيخ الثالث) المتفرعة من حكاية (التاجر والجني والشيوخ الثلاثة)، ففي هذه الحكاية تسحر الزوجة الخائنة زوجها لأنه

(1) عبد الرحمن بن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، الجزء الثالث، ص 1113.

(2) ترد كلمة (السيمياء) غير مرة في الليالي، فعلى سبيل المثال ترد في المجلد الثالث، ص 101، وص 103 وغيرها. طبعة المكتبة الشعبية.

(3) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م1، ص 18.

ضبطها وهي تخونه في فراشه مع أحد العبيد السود، ثمّ في ما بعد تساعد مصادفات ألف ليلة وليلة السحرية هذا الزوج لينتقم منها وتُسحَر انتقاما منها لأفعالها الشريرة، ومن ثمّ تتحول إلى بغلة. تقول الحكاية: «فقال الشيخ: أيها السلطان ورئيس الجان إن هذه البغلة كانت زوجتي، سافرت وغبت عنها سنة كاملة ثم قضيت سفري وجئت إليها في الليل فرأيت عبدًا أسود راقدًا معها في الفراش، وهما في كلام وغنج وضحك وتقبيل فلمّا رأتني عجلت وقامت إلى كوز فيه ماء فتكلمت عليه ثم رشتني وقالت: اخرج من هذه الصورة إلى صورة كلب، فصرت في الحال كلبًا، فطردتني من البيت، فخرجت من الباب ولم أزل سائرًا حتى وصلت إلى دكان جزّار، فتقدمت وصرت آكل من العظام، فلما رآني صاحب الدكان أخذني ودخل بي بيته فلما رأتني بنت الجزار غطّت وجهها مني وقالت أتجيء لنا برجل وتدخل علينا به؟ فقال أبوها أين الرجل؟ قالت إن هذا الكلب سحرته امرأة وأنا أقدر على تخليصه، فلما سمع أبوها كلامها قال: عليك يا ابنتي خلصيه، فأخذت كوزًا فيه ماء وتكلّمت عليه ورشّت عليّ منه قليلاً وقالت: اخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى فصرت إلى صورتي الأولى»[1].

وتشير حكايات ألف ليلة وليلة في كثير من وحداتها السردية إشارات كثيرة إلى صور العبيد القبيحة، وأدوارهم في إفساد بنية الفضاءات التي يعيشون ويحلّون فيها، ويرتحلون إليها. وهذه الإشارات محكومة برؤية إيديولوجية معادية للعبيد، وكأن رواة ألف ليلة وليلة يريدون أن يبثّوا هذه الرؤية، ويعمموها على نساء مجتمعاتهم ورجالها، داعين لهم إلى الحذر من العبيد الذين لا ذمم ولا ضمائر ولا رادع لهم يردعهم عن ارتكاب الموبقات والجرائم الأخلاقية وعلى رأسها الاعتداءات الجنسية على نساء مجتمعاتهم من الحرائر والإماء والجواري. وقد تكون هذه الرؤية مستمدة من الأدبيات القديمة والكلاسيكيات التاريخية التي قدمت العبيد في أبشع الصور، وأشدّها قتامة ولؤمًا. وممّا جاء في هذه الأدبيات: «وقيل إن العبد إذا شبع فسق، وإن جاع سرق، وكان جدي لأمي يقول شرّ المال تربية العبد، والمولدون منهم الأم من الزنوج وأردأ، لأنّ المولد لا يعرف له أبًا، وربما يعرف الزنجي أبويه. ويقال في المولد

(1) نفسه، ص 22.

بغل لأنه مجنس، والبغل تكون أمه فرسًا، وأبوه حمارًا، وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قلّ أن يكون فيه خير، وإن كان فذاك نادر لا حكم له»[1].

ومن النموذج الثاني: (سحر النساء للرجال، وبالتالي الحصول على مزيد من الحريات في حركاتهنّ وخروجهن ولقائهنّ بعشاقهن)، نقرأ في حكاية (الشاب مع الملك) المتفرعة من حكاية (الصياد والعفريت)، أن الشاب (لا يذكر الراوي اسمًا له) ابن الملك محمود يتزوج ابنة عمه، ويحبّها حبا عميقا ملآ روحه وفؤاده، لكنها تتعرف إلى أحد العبيد السود، فتميل إليه وتعشقه، وتنتظر، كلّما هبط الليل، لتضع مخدّرًا في كأس شراب زوجها الذي اعتاد أن يشربه يوميًا قبل نومه، وعندما يأخذ البنج مفعوله في جسد هذا الزوج الوفي، تلبس أفخر ثيابها، وتخرج إلى عشيقها، وتبقى معه إلى الفجر، وعندما تعود تبخّر أنف زوجها فيستيقظ من نومه. وذات ليلة يروغ عن كأس الشراب المخدّر، ويتظاهر بالنوم، فتخرج المرأة إلى عشيقها العبد، ويتبعها الزوج ليضبطها مع هذا العشيق، فيأخذ سيفه، ويضرب عنق العبد، لكنه لم يمت. وتتوالى الأحداث، ويحاول الشاب الانتقام من زوجته، لكنها تسرع وتوظّف طاقاتها السحرية، وتسحره، وتحوّل نصفه إلى حجر، وتُبقي نصفه الآخر بشرًا. تقول الحكاية: «وأردت أن أضربها، فرفعت يدي في الهواء فقامت وقد علمت أني أنا الذي جرحت العبد، قامت على قدميها وتكلمت بكلام لا أفهمه، وقالت جعل الله بسحري نصفك حجرًا ونصفك الآخر بشرًا، فصرت كما ترى وبقيت لا أقوم ولا أقعد ولا أنا ميت ولا أنا حي، فلما صرت هكذا سحرت المدينة وما فيها من الأسواق والغيطان، وكانت مدينتنا أربعة أصناف مسلمين ونصارى ويهودًا ومجوسًا، فسحرتهم سمكًا فالأبيض مسلمون والأحمر مجوس والأزرق نصارى والأصفر يهود، وسحرت الجزائر الأربع أربع جبال وأحاطتها بالبركة، ثمّ إنها كل يوم تعذّبني وتضربني بسوط من الجلد مائة ضربة حتى يسيل الدم، ثمّ تلبسني من تحت هذه الثياب ثوبا من الشعر على نصفي الفوقاني»[2].

(1) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي(ت 850 هـ): **المستطرف في كل فن مستظرف**، إشراف المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت/لبنان، طبعة 1989م، المجلد الثاني، ص 80.

(2) **ألف ليلة وليلة**،طبعة دار مكتبة الحياة، م1، ص 24 ـــ 43.

ومن النموذج الثالث: (سحر المردة والعفاريت من الجان، ودور هؤلاء في خطف النساء والرجال إلى قلاع خيالية بعيدة جدًا)، وفي حكاية (الصعلوك الثاني) المتفرعة من حكاية (حمال بغداد والبنات الثلاث)، يروي هذا الصعلوك كيف تمّ سحره وتحويله إلى قرد بفعل عفريت ساحر. تقول الحكاية: «وتضرعت إليه غاية التضرع [أي تضرع الصعلوك إلى العفريت] وبقيت بين يديه، وقلت له أنا مظلوم، فقال لي لا تطل عليّ الكلام أمّا القتل فلا تخف منه وأمّا العفو عنك فلا تطمع فيه وأمّا سحرك فلا بدّ منه، ثمّ شقّ الأرض وطار بي إلى الجو حتى نظرت إلى الدنيا تحتي كأنّها قصعة ماء، ثمّ حطّني على جبل وأخذ قليلاً من التراب وهمهم عليه وتكلم ورشّني، وقال اخرج من هذه الصورة إلى صورة قرد، فمن ذلك الوقت صرت قردًا ابن مائة سنة، فلما رأيت نفسي في هذه الصورة القبيحة بكيت على روحي وصبرت على جور الزمان وانحدرت من أعلى الجبل إلى أسفله، وسافرت مدة شهر ثمّ ذهبت إلى شاطئ البحر المالح»[1].

ومن النموذج الرابع: (السحر المكرّس للسرقة والنهب، أو لردع السارق عن السرقة، ثمّ تأديبه وتحويله إلى حيوان)، أراد علي الزيبق المصري في حكاية (علي الزيبق وأحمد الدنف والخليفة الرشيد) أن يسرق بذلة فاخرة لصاحبها عزرا اليهودي حتّى يقدّمها لعشيقته زينب النصّابة، غير أن اليهودي (عزرا) كان أكثر حرصًا إذ أسرع وسحره، وحوّله إلى حمار. تقول الحكاية: «فأخذ اليهودي طاسة وملأها ماء وعزم عليها وقال اخرج من الهيئة البشريّة إلى هيئة حمار، ثمّ ضرب عليه سورًا وصار اليهودي يسكر إلى الصباح فقال له أنا أركبك وأريح البغلة، ثمّ إن اليهودي وضع البدلة والصينية والقصبة والسلاسل في خشخانة، ثمّ طلع وعزم عليه فتبعه وحطّ على ظهره سرجًا وركب عليه واختفى القصر عن الأعين وسار وهو راكبه إلى أن نزل على دكانه، وأفرغ كيس الذهب والكيس الفضّة في المنقد قدّامه، وأمّا علي فإنه مربوط في هيئة حمار ولكنه يسمع ويعقل ولا يقدر أن يتكلّم»[2].

(1) نفسه، ص 66.

(2) نفسه، م 4، ص 167.

ومن النموذج الخامس: (السحر الذي يمارسه الشيوخ المؤمنون بالله سبحانه وتعالى، الذين يستمدون طاقاتهم السحريّة من مخاطبتهم الملائكة دفاعًا عن مظلوم أو مسحور). تقول الحكاية إن إحدى الملكات الساحرات الفاجرات في إحدى المدن الخيالية (الملكة لاب) ولعة باصطياد شباب مدينتها الوسيمين، وعندما تقضي وطرها الجنسي منهم، تسحرهم وتحولهم إلى حمير وبغال، إلاّ أن الشيخ الفاضل المؤمن عبد الله يؤكد لـ(بدر باسم)، بعد خوفه من أن تسحره، أنه سيقف معه ويخلصه من شرها وسحرها. يقول الشيخ عبد الله: «ما عليك باس منها ما دمت أراعيك أنا فلا تخف، فإني رجل مسلم واسمي عبد الله وما في زماني أسحر مني، ولكني لا أستعمل السحر إلاّ عند اضطراري إليه، وكثيرًا ما أبطل سحر هذه الملعونة وأخلّص الناس منها ولا أبالي بها لأنها ليس لها عليّ سبيل بل هي تخاف مني خوفًا شديدًا»[1].

ويفي الشيخ عبد الله بوعده لبدر باسم، في ما بعد، عندما تسحره الملكة «لاب» وتحوّله إلى طائر قبيح المنظر بعد أن كان عشيقًا لها، وبعد أن ارتوت منه عاطفيًا وجنسانيًا، ويعيده إلى آدميته مستعينًا بوسائله السحرية المعقدة، وبوسائل السيدة (جلنار البحرية) أم بدر باسم.

وأمّا النموذج السادس: (سحر المردة والجان المؤمنين، وهم أتباع النبي سليمان، عليه السلام، ويستخدمون طاقاتهم السحريّة للدفاع عن الشخصيات المؤمنة، وإبطال سحر الكفار والمردة والجان الكفّار). فإنّه يظهر في حكاية و(أبو محمد الكسلان مع الخليفة الرشيد)، إذ يتحول قرد أبي محمد الكسلان إلى جني كافر، ويخطف زوجته الجميلة ويطير بها إلى مدينة النحاس، ويسجنها هناك، لكن الله سبحانه وتعالى يسخّر لأبي محمد عفاريت من الجان المؤمنين يحررونها من الخطف ويعيدونها إليه، وذلك بعد امتلاك أبي محمد الكسلان للأداة السحرية (طلسم في عمود على هيئة صورة عقاب) هذا الطلسم الذي يستحضر الجان المؤمنين عندما تفك رموزه

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة المكتبة الشعبيّة، م3، ص 323 ـــ 324.

السحرية من خلال النار والمسك. يصف أبو محمد عملية تحرير زوجته بعد أن ترشده إلى كيفية فك هذه الرموز: «فقلت : أي شيء يكون ذلك الطلسم؟ قالت: هو صورة عقاب وعليه كتابة لا أعرفها، فخذه بين يديك وخذ مجمرة من نار، وارم فيها شيئًا من المسك فيطلع دخان يجذب العفاريت [المؤمنين]، فإذا فعلت ذلك فإنهم يحضرون بين يديك كلهم، ولا يغيب منهم واحد، ويمتثلون لأمرك ومهما أمرتهم فإنهم يفعلونه، فقم وافعل ذلك على بركة الله تعالى. فقلت لها : سمعًا وطاعة.

ثم قمت وذهبت إلى ذلك العمود وفعلت جميع ما أمرتني به، فجاءت العفاريت، وحضرت بين يدي، وقالت: لبيك يا سيدي فمهما أمرتنا به فعلناه. فقلت لهم: قيدوا المارد الذي جاء بهذه الصبية من مكانها. فقالوا سمعًا وطاعة. ثم ذهبوا إلى ذلك المارد وقيدوه وشدّوا وثاقه»[1].

وحتى تبدو معالم السحري والعجائبي في مدن ألف ليلة وليلة وجزرها الخيالية، أكثر وضوحًا أقوم بتلخيص إحدى الحكايات السحرية العجائبية، وهي حكاية (حسن الصائغ البصري وبهرام المجوسي والسيدة منار السنا)، مركزاً فيها على أهم سمات هذا السحري، ومسار تشكلاته.

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م3، ص 22.

د ـ حكاية حسن الصائغ البصري وبهرام المجوسي والسيدة منار السنا/ أنموذجًا للعجائبي والسحري

تُعَدّ هذه الحكاية من أطول حكايات ألف ليلة وليلة[1]، ومن أكثرها تشابكًا وتعقدًا في الأحداث وارتحال السرد، من مدينة البصرة الواقعية إلى مدن وجزر خيالية بعيدة جدًا، غارقة في السحر العجائبي، الذي سيجعل القارئ يقف مشدوهًا ومأخوذًا بكل قدراته على التخييل واستحضار عوالم الجان والعفاريت والنساء السحريات وكأنهن حوريات الجنة اللواتي عجزت المدن الواقعية عن إنجابهن، فما كان من المدن والجزر الخيالية إلا أنجبتهن وقدمتهن للأبطال الخارقين، والشجعان والمغامرين حدّ الجنون وسعار الوهج الشبقي، وفقدان الروح طلبًا للتملك الخرافي. وهذا ملخص لهذه الحكاية.

يتعرّف حسن البصري الشاب الصائغ الفقير في مدينة البصرة العراقية إلى مجوسي كافر تصفه شهرزاد بأنه خبيث ماكر، ويتقن فنون السحر، ويغريه هذا المجوسي حسنًا حتى يذهب معه ليعلّمه صناعة الكيمياء، والحصول على مسحوق سحري يحوّل النحاس إلى ذهب ثمين. ويُخدَع حسن البصري بسهولة طمعًا في الوصول إلى أبواب المجد والثراء بالحصول على الذهب الكثير. ويسافران معًا على متن مركب بحري تحفّه المخاطر والأهوال، ويتعرّض في رحلته إلى مصائب كثيرة،

(1) تمتد الحكاية من الصفحة 245 إلى 370، من المجلد الرابع، طبعة دار مكتبة الحياة.

إذ يعذبه المجوسي ويجلده ويهينه، وعندما يصلان البرّ، يأخذه المجوسي إلى جبل عال جدًا، تسميه شهرزاد بـ(جبل السحاب)، ويسخّره المجوسي حتى يحضر له الأحجار الكريمة من أعلى هذا الجبل، ويمتثل حسن لذلك، وينجح المجوسي في الحصول على أنفس الأحجار وأعلاها قيمة، وبعد ارتحال السرد وتشعبه، وتداخل أحداث جديدة وسحرية في متنه، يطول شرحها، يكتشف حسن البصري قصرًا جميلاً قريبًا من سفح الجبل، فيقصده، ويتعرف فيه ببنات ملوك الجان العارفات بالسحر وفنونه، ويتخذ الصغرى أختًا وفية له. وبعد أن يجد عندها، وفي قصرها الفسيح البهي، جماليات العيش والبهجة والانشراح يشاهد جنيّة جميلة جدًا كانت تأتي ومعها وصيفاتها الساحرات إلى بحيرة القصر، ثم ينزعن ثيابهن السحرية من الريش، ويسبحن حتى المساء، وفي المساء يرتدين ثيابهن ويطرن إلى مدينتهن البعيدة جدًا، فيعشق حسن هذه الجنية الجميلة عشقًا يكاد يزهق روحه وجسده، فيخطط مع أخته الجنية الصغرى في القصر، ويكيد لهذه الجنية حيلة يستطيع من خلالها أن يسرق ثوبها الريش، فتضطر جبرًا عنها أن تبقى في القصر، فيبدي لها حبه العميق وتساعده في ذلك أخته الجنية الصغرى وأخواتها الست المقيمات معها، ويتزوجها، ويستأذن أخواته الجنيات ليعود إلى بغداد ويصطحب زوجته. وفي بغداد تنجب له زوجته ولدين جميلين. وبمصادفات ألف ليلة وليلة السحرية تدخل الزوجة الجميلة أحد الحمامات في بغداد حاملة ولديها الجميلين، وتشاهدها الجواري والحرائر في الحمام، فيتهتكن في وصف جمالها وسحرها وجاذبيتها. هي الجميلة المتلألئة جسدًا شهيًا، المتألقة جمالاً باهرًا لا يوجد مثيل له في بغداد. وبسريان خبر جمالها في بغداد، وانتشاره السريع يصل إلى قصر السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد، عندها تصرّ السيدة زبيدة على مشاهدة هذا الجمال العجائبي، فترسل إلى والدة زوجها (أم حسن البصري) طلبًا لحضور زوج ابنها حالاً إلى قصرها، فتخاف الأم من سطوة زبيدة، وتضطر مكرهة أن تقبل وترسل زوج ابنها إلى القصر.

وفي قصر زبيدة تقف الجنية بأبهتها وجمالها، وبكامل أناقتها مع ولديها، وتذهل زبيدة بهذا الجمال العجائبي، الذي حبا الله به هذه المرأة الجنية التي يكشف

لنا السرد الحكائي عن اسمها في آخر الحكاية (منار السنا). وتتواد السيدتان تبجيلاً واحترامًا، وتستثمر منار السنا هذا التودد بحبك حيلة تساعدها على اختطاف ولديها والرجوع إلى بلادها، وتطلب من زبيدة أن تتدخل لدى أم حسن البصري حتى ترجع لها ثوبها من الريش السحري، بعد أن كان قد أخفاه عنها زوجها في مكان سري وأمين، حتى لا تأخذه وتطير به هاربة، غير أنه أخبر أمه بمكان هذا الثوب وأوصاها أن تكون حريصة عليه كحرصها على روحها.

وترسل زبيدة من يطلب العجوز حتى تحضر وبصحبتها ثوب الريش، غير أن العجوز أكدت أن ولدها حسنًا مسافر، وأنكرت معرفتها بالثوب ومكانه. وبسطوة السيدة زبيدة وتهديدها لأم حسن ثم ضربها اضطرت إلى تسليم الثوب اتقاء للتعذيب الجسدي الذي تمارسه زبيدة عليها.

وعندما أحضر(مسرور) خادم قصر الرشيد، وأم حسن الثوب إلى القصر، ترددت منار السنا لزبيدة وأوهمتها أنها تريد أن تريها جمال هذا الثوب وبهاءه، وأن ترقص لها رقصًا بهيًا حبًا وكرامة بها، بعد أن ترتدي ثوبها من الريش، حتى يبدو الرقص أكثر جمالاً. وتقدمه لها زبيدة، وما أن ارتدته حتى عادت إليها قواها الخارقة التي تساعدها على الطيران، وبأسرع من أي طائرة معاصرة، وعند ذلك رفرفت طائرة محتضنة ولديها . تقول الحكاية: «وقالت [أي السيدة زبيدة] هل هذا ثوبك الريش؟ فقالت نعم يا سيدتي ومدّت الصبية يدها إليه وأخذته منها وهي فرحى، ثمّ إنّ الصبية تفقدته فرأته صحيحًا كما كان عليها ولم تقع منه ريشة ففرحت وقامت من جنب السيدة زبيدة وأخذت القميص وفتحته وأخذت أولادها في حضنها واندرجت فيه وصارت طيرة بقدرة الله عزّ وجلّ؟ فتعجبت السيدة زبيدة من ذلك وكذلك كل من حضر وصار الجميع يتعجّبون من فعلها.

ثمّ إنّ الصبية تمايلت وتمشّت ورقصت ولعبت وقد شخص لها الحاضرون وتعجّبوا من فعلها، ثمّ قالت لهم بلسان فصيح يا سادتي هل هذا مليح؟ فقال لها الحاضرون: نعم يا سيدة الملاح، كل ما فعلته مليح، ثمّ قالت وهذا الذي أعمله

أحسن منه يا سادتي وفتحت أجنحتها وطارت بأولادها، وصارت فوق القبّة ووقفت على سطح القاعة فنظروا إليها بالأحداق وقالوا لها والله هذه صنعة غريبة مليحة ما رأيناها قط (...) ثمّ قالت لها السيدة زبيدة: أما تنزلين عندنا حتى نتملّى بحسنك يا سيدة الملاح؟ فسبحان من أعطاك الفصاحة والصباحة. فضحكت وقالت: يا أم حسن إنك سوف توحشينني، فإذا جاء ولدك وطالت عليه أيام الفراق واشتهى القرب والتلاق، وهزّته أرياح المحبة والاشتياق فليجئني إلى جزائر واق الواق،

يـا من خلا عن ذي الديار وسـارا نحـو الحبائـب مسـرعًا فـرّارا
أتظـن أنـي فـي نعيـم بينكـم والعيـش منكـم لـم يكن أكـدارا
لمـا اختفـى ثوبـي تيقّـن أننـي لـم أدع فيـه الواحـد القهـارا
قـد صـار يوصـي أمّـه بحفاظـه فـي مخدع وعـدا عليّ وجـار[1]ا

ثمّ حلقت طائرة هاربة بولديها إلى جزائر واق الواق.

وبعد مدّة يعود الزوج حسن البصري إلى بغداد قادمًا من زيارة أخواته الجنيات، وتخبره أمه بكل ماجرى، ويجن مفجوعًا، ويهيم على وجهه عائدًا إلى قصر أخواته الجنيات ليعلمهن بهروب زوجته، وهناك يتدبرن لها مخرجًا سحريًا، ويعرفنه إلى أحد شيوخ الجان الخبراء بفنون السحر، ويساعده هذا الشيخ، وبعد رحلة طويلة شاقّة عجائبية مليئة بالغرابة والسحر يصل إلى جزائر واق الواق بمساعدة موتيفات ووسائل سحرية يعدّها أعوان الجانّ الطيّارة، وشيوخ الجان العارفين.

وفي جزائر واق الواق ينزل جزيرة لا يسكنها إلا النساء، وكل جنودها وحاميتها من النساء، وكذلك عمال موانئها. إنها فضاء من الحريم الكبير والمغلق على ذاته في آن، والمصفّح ضد أي غريب قد يصل إليه، لكنه المنظم بإتقان ومهارة لا حدود لها، تخطيطًا ومعاشًا وتجارة وحكمًا وبناء وإدارة. وهناك يتعرف إلى عجوز ساحرة ماكرة شمطاء يطلق عليها الراوي اسم (شواهي ذات الدواهي)، بعد أن يختفي تحت إحدى الدكاك الكثيرة المزروعة على الشاطئ، وذلك بناء على نصيحة العفريت

(1) نفسه، ص 298 ـ 299.

الشيخ المتقن للحيل وللسحر (أبو الريش). وعندما تأتي العجوز صاحبة الدكة[1]، يتقدّم إليها حسن، مستعطفًا، ويلثم ثيابها وقدميها مستنجدًا بها، علّها توصله إلى زوجته منار السنا، ولأن نساء تلك الجزيرة اعتدن قتل كل رجل غريب يجترئ ويصل إلى جزيرتهن، تعطف العجوز على حسن، وتخفيه تحت دكتها. تقول الحكاية: «فلما طلع إلى البراري [أي حسن الصائغ] رأي فيه دككًا لا يعلم عددها إلاّ الله فمشى حتى وصل إلى دكّة ليس لها نظير واختفى تحتها فلمّا أقبل الليل جاء خلق كثير من النساء مثل الجراد المنتشر وهنّ ماشيات على أقدامهن وسيوفهن مشهورة في أيديهن، ولكنهن غائصات في الزرد فلما رأت النساء البضائع اشتغلن بها، ثمّ بعد ذلك جلسن لأجل الاستراحة فجلست واحدة منهن على الدكة التي تحتها حسن فأخذ حسن طرف ذيلها وحطّه فوق رأسه ورمى نفسه عليها وصار يقبّل يديها وقدميها وهو يبكي.

فقالت له يا هذا قم واقفًا قبل أن يراك أحد فيقتلك، فعند ذلك خرج حسن من تحت الدكة ونهض قائمًا على قدميه وقبّل يديها وقال لها يا سيدتي أنا في جيرتك، ثمّ بكى وقال لها ارحمي من فارق أهله وزوجته وأولاده وبادر إلى الاجتماع بهم وخاطر بروحه ومهجته فارحميني وأيقني أنك تؤجرين على ذلك بالجنّة»[2].

ثمّ يروي لها حكايته السحرية مع زوجته، وكيف وصل إلى واق الواق، وكيف التقى شيوخ الجن وأعوانه، فتحنّ عليه، وتعده بالوصول إلى زوجته، كونها قادرة على مساعدته، لأنها قائدة لإحدى فرق النساء المحاربة في الجزيرة، وتعلمه أن زوجته هي بنت (ملك الجان) في الجزيرة كلها، وتوصله العجوز إلى أخت زوجته، واسمها (نور الهدى) وهي الحاكمة على جزيرة واق الواق، وعندما تسمع نور الهدى قصته مع أختها (منار السنا) المتزوجة منه سرًا، ترسل وتطلبها من والدها، ثم تأتي بها إلى قصرها، وهناك تمارس عليها هي وزوجها حسن الصائغ البصري تعذيبًا وحشيًا،

(1) الدَّكَّةُ : مِقْعد مستطيل من حجارة أو خشب يُجْلس عليه، يوضع عادة في الحدائق ومواقف الحافلات كما يكثر وجوده في القرى، ويطلق كذلك على مقعد القارئ في المسجد، مسطبة. والجمع : دكاك. **المعجم الوسيط**.

(2) **ألف ليلة وليلة**، طبعة دار مكتبة الحياة، م4، ص 318.

عندها تحنّ عليهما العجوز (شواهي ذات الدواهي)، وتساعدهما على التحرر من قصر نور الهدى، والهروب من الجزيرة كلها، ويساعدهما عامل سحري مهم، وهو الوسيلة السحرية التي تساعد الأبطال الشجعان الخارقين على تحقيق مآربهم وانتصاراتهم العجائبية، وتنقذهم كلما أحاقت بهم الشرور والمصاعب. وتحضر هذه الوسيلة حين يشاهد حسن البصري ولدين يتخاصمان على ورثة أبيهما الساحر، وهما (طاقية) إخفاء سحرية تخفي كل من لبسها، وقضيب سحري، و«كل من ملكه يحكم سبع طوائف من الجن والجميع يخدمون ذلك القضيب فكلهم تحت أمره وحكمه وكل من ملكه وصار في يده إذا ضرب به الأرض خضعت له ملوكها، وتكون جميع الجن في خدمته، فلما سمع حسن هذا الكلام أطرق برأسه إلى الأرض ثم قال في نفسه والله إنني لمنصور بهذا القضيب وبهذه الطاقية إن شاء الله تعالى فإني أحقّ بهما منهما ففي هذه الساعة أتحيل على أخذهما منهما لأستعين على خلاصي وخلاص زوجتي وأولادي من هذه الملكة الظالمة ونسافر من هذا المكان المظلم، الذي ما لأحد من الأنس خلاص منه ولا مفرّ، ولعلّ الله ما ساقني لهذين الغلامين إلا لأستخلص منهما القضيب والطاقية»[1].

وبمنطق الحيلة التي هي أهم ثيمة theme من سمات ألف ليلة وليلة يحتال حسن البصري على الغلامين، ويأخذ الطاقية والقضيب، ويحرر بهما ولديه وزوجته المسجونين في قصر أختها،، وبمساعدة العجوز (شواهي ذات الدواهي) التي ترشده إلى مكان سجنهم، ثم يغادر جزائر واق الواق، ويعود إلى بغداد مكللاً بالظفر حاملاً زوجته وولديه والعجوز شواهي ذات الدواهي التي كان لها الفضل العظيم في فتح باب القصر (السجن) حتى يخرجا منه، وفي بغداد يحلو لهم البسط والانشراح وتفرد بغداد لهم ولأموالهم ملذاتها الأرضية. يقول الراوي: «فلما أصبح الصباح غيّر ما عليه من الثياب [أي حسن البصري] ولبس بدلة من أحسن القماش، ثمّ خرج إلى السوق وصار يشتري العبيد والجواري والقماش والشيء النفيس من الحلى والحلل والفراش والأواني الثمينة التي لا يوجد مثلها إلاّ عند الملوك ثمّ اشترى الدور

(1) نفسه، ص 349.

والبساتين والعقارات وغير ذلك وأقام هو وأولاده وزوجته ووالدته في أكل وشرب ولذّة ولم يزالوا في أرغد عيش وأهنأه حتى أتاهم هازم اللذات ومفرّق الجماعات فسبحان ذي الملك والملكوت هو الحيّ الباقي الذي لا يموت»[1].

هذا ملخص، وبتكثيف شديد، لهذه الحكاية العجائبية التي تقوم معظم أحداثها على طاقة التخيّل الإبداعية التي يمتاز بها رواة ألف ليلة وليلة، ومن خلال هذه الحكاية يستنفر هؤلاء الرواة كل ما قرؤوه عن أخبار الجن والعفاريت والسحر في الكتب التراثية التي انتشرت في عصورهم. ويبرز السرد الروائي طاقات الشخوص النسائية السحرية، وأدوارهن في بناء الأحداث، وحبك الحيل والمكايد، وتبدو العجوز (شواهي ذات الدواهي) سيدة الاحتيال في جزيرتها وبين قومها، وهي تبدو مثالاً للمرأة الشجاعة الذكيّة المحتالة التي تعرف كيف تخطط، وكيف تنجح، وكيف تتقن حبك خيوط مشاريعها، وكيف تساعد بنات جنسها بشكل سحري قلّ نظيره، وعجائبي شديد الإدهاش.

وقد آثرت أن ألخص هذه الحكاية، مشيرًا إلى أهم أحداثها حتى يتضح للقارئ الكريم إلى أي مدى تؤثر الموتيفات والوسائل السحرية في بنية الحكي، وتجعله موغلاً في العجائبية، وتجعل السرد حاملاً مزيدًا من الأحداث المتشعبة، وقادرًا على الانتقال إلى فضاء المدن الخيالية، وتجعله في الآن نفسه قادرًا على أسر القارئ المتلقي، وتجبره على أن يظل مشدوهًا مع نمو أحداث الحكاية، مدفوعًا لقراءتها كاملة، ومتعاطفًا في آن مع أبطالها الخرافيين، الفرسان في حلهم وارتحالهم، وحالات عشقهم ومغامراتهم، بل عاشقا لهذا الجمال البهي الذي لم تمنحه له فضاءات مدنه القبيحة التي يعيش فيها، وحالمًا بالوصول إليه، وراغبًا بالانعتاق من قبح مدنه، وفقرها وفواجعها، ومآسي العيش فيها.

إن فعل تشكيل التخيل عند رواة الليالي، وقدرته على رسم المدن الخيالية السحرية وخرافاتها وعاداتها، وأخلاقيات سكانها، وعلاقاتهم في ما بينهم، لا يحتكم

(1) نفسه، ص 369.

إلى منطق عقلاني، أو منطق قوانين الكون وحركته، أو نظرياته الجغرافية والعلمية حول الأرض والكواكب، وقوانين الطبيعة والبحار، وهو يتخطّى منطق العقل ويتجاوزه، بل يلغيه عندما يتحدث عن طائر الرخ، في سفرات السندباد، الذي يستطيع أن يحمل حجرًا، وكأنها الجبل الصغير، ويرمي بها على سفينة كبيرة يغرقها في الحال، أو عن بيضته التي لا تتشكل في الحكايات إلا وفقًا لعمليات التخيل السحرية، أو عن جبال سحرية كلها من الأحجار الثمينة.

ويبدو أن الوضع الاقتصادي المتدني لأبطال الرواة الفقراء، الذين ينتمون إلى طبقات شعبية محرومة من العيش الكريم ومن الثروة وسطوة التملك، حفّز شهيتهم صوب امتلاك المال، والكنوز الغاصة بالألماس والذهب والفضة، ممّا جعلهم يتخيلون كنوزا أسطورية، أو جبالا من الألماس، أو مدنًا وأسواقًا تغصّ بالذهب والفضة. ومن هنا نفهم السر الذي دفع الرواة لأن يرصدوا هذه الكنوز السحرية التي لا تفتح أبدًا، إلا بوجود أصحابها الفقراء الذين يمتلكون شفرات أبوابها ودهاليزها، مثل كنز الشمردل في فاس الذي لا تُفَكّ أرصدته السحرية إلا على يدي الصياد الفقير جودر ابن التاجر عمر، ومثل سيل الأموال المتدفقة على (أبي محمد الكسلان)، وهو أكسل أهل زمانه، وأشدهم فقرًا، والقضيب السحري الذي يُعدّ من أهم كنوز الدنيا، ويفعل المعجزات، ويخرب المدن، ويستجلب الجان الطيارة هو بيد حسن الصائغ البصري، والكنز الكبير الذي يفتح أبوابه بين يدي الرجل البسيط (معروف الإسكافي)، إذ يقفز به من طبقته الدونية (طبقة الإسكافيين) ليضعه في سدة الحكم مكللاً بالعز والمال على مدينة (اختيان الختن)، متزوجًا أجمل النساء وأكثرهن بهاء.

و هكذا فإن الرواة يدفعون أبطالهم إلى مزيد من الأحلام، سواء تحققت أم لم تتحقق، فهم يشكلون لهم مدنًا خيالية مليئة بالثراء الفاحش، ويحصنونها لهم بأسوار شاهقة تتضاءل أمامها أعظم الأسوار التاريخية والمعاصرة المعروفة، فالحدادون والنجارون، مجتمعين، في مدينة النحاس الأسطورية المليئة بالكنوز، يظلّون منهمكين شهرًا كاملاً في صنع سلم يصل من أسفل سور مدينتهم حتى أعلاه، وهكذا

تبدو المدن والجزر الخيالية في معظم حكايات ألف ليلة وليلة غاية في السحر والبهاء والثراء الخرافي، يحفّ بها مجموعة من السحرة والجان الكافرين والمؤمنين في آن، الذين يستطيعون التحكم في علاقاتها، تزاوجًا ومعاشًا وسياسة وتجارة واقتصادًا، وخيرًا وشرًا في الآن نفسه.

وأحب أن أشير في نهاية هذا الفصل إلى أنّ ثمة ملامح مشتركة كثيرة بين المدن الواقعية والمدن الخيالية في ألف ليلة وليلة، ولعل من أهمّها ملامح النصب والاحتيال، وحبك الحيل والمكايد الذكيّة المعقدة على شخوص الليالي وإخضاعهم لرغبات المحتالين الماكرين. وتتعدد مظاهر هذا الحيل، وفي العنوان التالي الموسوم بـ: (بعض مظاهر الاحتيال والمكايد في مدن ألف ليلة وليلة الواقعية والخيالية)، أتناول بعضًا من مظاهرها وطرقها كما سجلها رواة الليالي.

هـ ـ بعض مظاهر الاحتيال والمكايد في مدن ألف ليلة وليلة الواقعية والخيالية

من خلال قراءة حكايات ألف ليلة، وبخاصة تلك الحكايات التي تدور في بغداد والقاهرة ودمشق والبصرة والكوفة والإسكندرية، وهي من أهم المدن التي يدور السرد الحكائي فيها محتضنًا سكانها وعاداتهم وتقاليدهم، وأنماط تفكيرهم وحياتهم، يمكن القول إن التقاليد والموروثات في هذه المدن تكاد تكون متشابهة، وقد أسهمت بدورها في تشكيل صور مدن الليالي التي تتقارب كثيرًا في تفكير سكانها، وسلوكهم الاجتماعي العام، وقيمهم المعرفية والثقافية السائدة فيها . ومن هنا، فإن سلوك السلطة العام في مدن الهند وبلاد فارس، التي تشكلت نواة الحكايات فيها، لا يختلف كثيرًا عن ذلك السلوك في المدن العربية الآنفة الذكر، وإن اختلف فإن الاختلاف جد طفيف، ويشكل حالة خاصة، لا يقاس عليها. وتكاد تتفق مدن ألف ليلة وليلة في طرق الحيل والدسائس والمكايد، ومقوّماتها، التي يحوكها شخوص الليالي، رجالاً ونساء، وتتشابه هذه المدن أيضًا، في فضاءاتها التي تشكل عوالمها السرية والحميمة، وفي خيالها الشعبي الجامح وأساطيرها وميثيولوجياتها، وطبيعة العلاقة القائمة بين سلاطينها وبين أفراد شعوبها .

إن الموروثات الشعبية والثقافية التي ركّز عليها السرد الحكائي تحدد معالم حكايات تتناصّ مع بعضها، تناصًا جوهريًا وأساسيًا على مستوى الرؤية، ومستوى السرد والقص، ومستوى الترتيب الطبقي والاجتماعي، ومستوى علاقة الرجال بالنساء،

والسلطة بالنساء، والسلطة بالمدينة بشكل عام، وهنا يمكن القول: «إنّ التشابه بين التصوّرات أو الأساطير أو غيرها من المأثورات الشعبية حاصل دون أن تكون بينها أية صلة تاريخية تذكر، فشعوب آسيا وأفريقيا والأسكيمو والأمريكيتين عندهم تقاليد متشابهة»[1]، وكذلك الشعوب العربية والإسلامية، والهندية والفارسية، والصينية، التي هي الشرائح العقائدية والاجتماعية لمدن ألف ليلة وليلة لها تقاليد تكون متشابهة، وإن لم تكن متشابهة على المستوى الجغرافي الحقيقي، فإنها متشابهة على المستوى التخيلي والحكائي في ألف ليلة وليلة.

إن شهرزاد في حكايات ألف ليلة وليلة، لم تكن قادرة على أن تنجو من بطش شهريار لولا اعتمادها على مدى تأثير سلطة الحكاية في شهريار، والتي تشكل في الآن نفسه حيلة من حيلها لترويضه، ومن خلال الحيلة استطاعت الدخول إلى قصره بوسيط مساعد، وهو أختها ـ دنيازاد ـ التي احتالت بدورها حتى تدخل قصر شهريار، وتؤمّن لأختها طريقًا آمنًا يحميها من القتل في ليلتها الأولى مع شهريار. وفي الليلة الثانية تطلب من أختها شهرزاد أن تحكي للملك حكاية عجائبية، وتحكي شهرزاد الحكاية ثم تقطعها في مواقف مؤثرة جدًا، بحيث يظل شهريار مشدودًا ومدهوشًا وراغبًا في أن يسمع بقية الحكاية، وبالتالي تنجو شهرزاد من فعل القتل، وهذه الحيلة حاكتها مع أختها دنيازاد، وبسلطة هذه الحيلة، وحيل غيرها استطاعت شهرزاد أن تنجو من مقصلة السيّاف والجلاد في آن.

وكرد فعل على بطش سلطات مدن ألف ليلة وليلة، السياسية والاجتماعية والدينية، ونظرًا لقسوة الحياة وشظف العيش، وانتشار الفقر كظاهرة اجتماعية أصابت معظم شرائح ألف ليلة وليلة، باستثناء شريحة السلطة وأعوانها ومريديها، وطبقة التجار الكبار، نشأت الحيلة كرد فعل على مجمل بنيات الحياة الفاسدة التي غصت بها مدن ألف ليلة وليلة .

لقد كانت زوجة شهريار الأولى، التي لم يذكر الراوي اسمًا لها، تحتال عليه

(1) فريدريش فون ديرلاين: **الحكاية الخرافية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ص 34 .

كلما خرج من القصر، وتقيم طقوسها الخاصّة مع عبيدها، وكذلك زوجة أخيه (شاه زمان)، كانت تحتال لإشباع ملذاتها الجنسانية كلما غاب، وخرج للصيد.

وطالما أن منطق الحيلة هو منطق هروبي وانتهازي، وينطوي على مزيد من اللؤم والكذب، قبل أن يكون ذكاء اجتماعيًا، ووعيًا معرفيًا، كما يدّعي بعض مروجي فنون الاحتيال والمكايد، فمن الطبيعي والمعقول أن تحاك خيوط الحيلة وترتيباتها وأبعادها في فضاءات مغلقة ومظلمة وسريّة، معتمدة بذلك أساليب معادية للقيم الأخلاقية والإنسانية. وبشكل عام فإن حيل الليالي تتزامن مع الدسيسة والمكر والمكيدة والخيانة والكذب، واقتناص الفرص وانشغال المحتال عليه، في همومه ومشاكله، وتعدّ النساء في حكايات الليالي الأكثر قدرة على حبك الحيلة اعتمادًا على جماليات أجسادهن المثيرة، باختلاف تموضعهن الطبقي، فالمرأة الجميلة المثيرة قادرة على أن تحوك الحيلة بتقنيات كبيرة، سواء أكانت فقيرة أم غنية، أم من طبقة السلطة أو من طبقة العامة، وهناك حيل مهمة أخرى أسهمت في نمو السرد الحكائي في الليالي، وانتقاله من مدينة إلى أخرى ومن دولة إلى أخرى، وبالتالي إضافة وحدات حكائيّة صغرى جديدة إلى بنية الحكاية الأساسية الكبرى، وهي حيل الشطار الذين عشقوا الأسفار والمخاطر، وأتقنوا طرق الاحتيال، وتفننوا في تنويعها وتعقيدها وحبكها، بحيث يصعب على الضحية، المحتال عليها، اكتشافها، مهما كانت هذه الضحية على قدر من الذكاء. ولقد استفادت السلطة السياسية في مدن ألف ليلة وليلة من هؤلاء الشطار المحتالين، إذ قربتهم إليها، وأغدقت عليهم، ثمّ سخرتهم لخدمتها، وتنفيذ مآربها، وحمايتها من المعارضين، أو المنحرفين المارقين على وصاياها وقوانين حمايتها وأمنها، والذين لم ينضووا بعد تحت جناحها ووصايتها. ففي حكاية (أحمد الدنف مع الدليلة المحتالة وابنتها زينب النصابة)، وبعد أن يثبت علي الزيبق المصري براعته ومهاراته في حبك الحيلة، وينتصر على (زينب وأمها الدليلة) ـ أدهى نساء زمانها ـ وبعد أن يروّع بغداد في نصبه واحتياله، وتفوقه على كل نسائها ورجالها الماكرين، بمساعدة رجلين من أعوان السلطة السياسية وهما : حسن شومان وأحمد الدنف، وتشيع أخبار مقالبه وطرقه الاحتيالية، نجد أن الخليفة هرون

الرشيد يكرمه إكرامًا لا نظير له، ويقرّبه، ويطلب منه أن يجلب جميع فتيانه المحتالين من مصر، ليعيشوا في بغداد، وينعموا بخيراتها وخيرات سلطاتها. تقول الحكاية: «فقال الخليفة ياعلي هل لك صبيان فقال له أربعون صبيًا ولكنهم في مصر فقال الخليفة أرسل إليهم ليجيئوا من مصر ثم قال الخليفة يا علي هل لك قاعة قال لا، فقال حسن قد وهبت له قاعتي بما فيها ... فقال الخليفة قاعتك لك يا حسن، وأمر الخازندار أن يعطي المختص بالمعمار عشرة آلاف دينار ليبني له قاعة بأربع لواوين وأربعين مخدعًا لصبيانه، وقال الخليفة ياعلي هل بقي لك حاجة فآمر لك بقضائها فقال يا ملك الزمان أن تكون سباقًا على الدليلة المحتالة أن تزوجني بنتها زينب»[1].

ويتمّ تزويج زينب ـ التي هي أكثر بنات جنسها ـ من علي الزيبق، الذي انتصر عليها بحيلة، ودهاء أذهلاها، فأعجبت به وعشقته، ولكي يعيش حالة من البذخ والملذات الأسطورية فإنه يتزوج ثلاث نساء أخريات، وهن: بنت السقطي، والجارية، وقمر بنت اليهودي، هاته النسوة اللواتي سحرهنّ بحيله ودهائه العجيب، وهذه الزيجات ستساعده، فيما بعد، في أن يزداد مكانة لدى سلطة المركز، ويزداد ثراء ماليًا أيضًا، ومكافأة له على احتياله فإن الخليفة «رتّب له جامكية وجعل له سماطًا في الغداء، وسماطًا في العشاء، وجارية وعلوفة ومسموحًا وشرع علي المصري في الفرح حتى كمل مدة ثلاثين يومًا»[2].

وفي هذه الحكاية تتجلّى الحيلة في أعلى درجات حبكتها وإتقانها، ومكرها الذي تحوكه دليلة المحتالة، وابنتها (زينب النصابة) اللتان تؤرقان بغداد وسلطاتها، في أيام خلافة الخليفة هارون الرشيد، إذ لا تنام المدينة ليلة آمنة من شرّهما ودهائهما، إلى أن يأتي علي الزيبق، ويغلب دليلة بحيل أشد مهارة وخبثًا، وتخطيطًا وتقنية، فتستكين له، هي وابنتها زينب. ومن بعض حيل زينب النصّابة التي فاقت تصور علي الزيبق، كما يروي راوي الحكاية: «إن زينب بنت الدليلة المحتالة خرجت تشقّ في البلد فلما رآها الناس صاروا يتعشقون فيها وهي توعد

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة المطبعة الشعبية، م3، ص 298.

(2) نفسه، ص 298.

وتخلف وتسمع وتسكت وسارت من سوق إلى سوق حتى رأت عليًا المصري مقبلاً عليها فزاحمته بكتفها والتفت وقالت: الله يحي أهل النظر.. فقال لها ما أحسن شكلك لمن أنت؟ فقالت للغندور الذي مثلك، فقال لها هل أنت متزوجة أو عازبة، فقالت متزوجة، فقال لها عندي أو عندك، فقالت أنا بنت تاجر وزوجي تاجر وعمري ما خرجت إلا في هذا اليوم وما ذاك إلاّ لأني طبخت طعامًا وأردت أن آكل فما لقيت لي نفسًا ولما رأيتك وقعت محبتك في قلبي فهل يمكن أن تقصد جبر قلبي وتأكل عندي لقمة؟ فقال لها من دُعِي فليجب، فمشت وتبعها من زقاق إلى زقاق ... إلى أن وصلت إلى باب دار عليها بوّابة عالية، والضبّة مقفلة فقالت له افتح هذه الضبة فقال وأين مفتاحها، فقالت له ضاع، فقال لها كلّ من فتح ضبّة بغير مفتاح يكون مجرمًا وعلى الحاكم تأديبه، وأنا ما أعرف شيئًا حتى أفتحها بلا مفتاح، فكشفت الإزار عن وجهها فنظرها نظرة أعقبته ألف حسرة، ثم أسلبت إزارها في الضبّة، وقرأت عليها أسماء موسى ففتحتها بلا مفتاح ودخلت فتبعها... ثم إنها خلعت الإزار وقعدت معه وقال في نفسه استوف ما قدّره الله عليك ثمّ مال عليها ليأخذ قبلة من خدها فوضعت كفها على خدّها وقالت له ما صفاء إلا في الليل وأحضرت سفرة طعام ومدام فأكلا وشربا وقامت ملأت الإبريق من البئر وسكبت على يديه فغسلهما فبينما هما كذلك وإذا بها دقّت على صدرها وقالت إنّ زوجي كان عنده خاتم من ياقوت مرهون على خمسمائة دينار فلبسته فجاء واسعًا فضيقته بشمعة فلما أدليت الدلو سقط الخاتم في البئر. ولكن التفت إلى جهة الباب حتى أتعرّى وأنزل البئر لأجيء به. فقال لها عيب أن تنزلي وأنا موجود فما ينزل إلاّ أنا ثم خلع ثيابه وربط نفسه في السلبة وأدلته، وكان الماء فيه غزيرًا ثمّ قالت له إنّ السلبة قد قصرت مني، ولكن فكّ نفسك وانزل، ففكّ ونزل في الماء وغطس فيه، وغطّاه الماء ولم يصل قرار البئر. وأمّا هي فإنّها لبست إزارها وأخذت ثيابه وراحت إلى أمّها... وقالت لها قد عرّيت علياً المصري وأوقعته في بئر الأمير حسن صاحب الدار وهيهات أن يخلص»[1].

(1) نفسه، ص 281 ـ 282

آثرت أن أطيل الاقتباس حتى تتضح الحيلة، التي هي نموذج يبدو متواضعًا وبسيطا أما حيل النساء الأخرى المعقدة في مدن ألف ليلة وليلة. وقلما نجد مدينة من مدن الليالي إلا ورفعت شعار النصب والاحتيال، وأتقنه رجالها ونساؤها، ومارسوه في جميع مجالات حياتهم المعيشية والاجتماعية والسياسية، وقد عمل أبطال الليالي رجالاً ونساء على تكريس منطق الاحتيال والنصب، ودرّبوا أولادهم وجواريهم على قبول هذا المنطق والعمل به، غير أن النساء أكثر مهارة وكيدًا في حبك الحيلة ونصبها، وإضفاء مظاهر الحب والعشق عليها، مقارنة بحيل الرجال. فحيل الرجال في الليالي ـ نستثني حيل علي الزيبق المصري ـ تبدو بسيطة ومن السهل اكتشافها، وفكّ حبالها قبل نجاحها، مقارنة بحيل النساء، إذ سرعان ما تقوم هاته النسوة بكشف حيل الرجال، وحبك حيل أكثر منها مهارة ودقة مستفيدات في الوقت نفسه من نقاط الخلل في حيل الرجال من جهة، وعاملات على توظيف قدراتهن الجنسية والجمالية ودورها في التأثير في غرائز الرجال وحاجاتهم الجنسانية، من جهة أخرى، وبالتالي لا يستطيع هؤلاء الرجال مقاومة إغراءات سلطة الجسد الأنثوي، وجماله.

ومن خلال تتبع حيل النساء في الليالي ومظاهرها وطرق نصبها، نلاحظ أن معظم المحتالات هن نساء جميلات على قدر كبير من الجمال الأنثوي الطاغي والإثارة الجمالية الجنسانية، فعندما ينظر إليهن الرجل سرعان ما يدهش من «جمالهن وقدهن واعتدالهن» على حد تعبير الراوي، فوجوههن تملأ المكان عبقًا وبهاء ونورًا، وعندما يراهن الرجال سرعان ما تعقبهم الآهات والحسرات، بمفردات شهرزاد، أو وفق خطاب قهرمانات القصور، أو العجائز الماكرات اللواتي أتقن الحيل، وتزيّن بلباس الدراويش، ومشايخ الطرق الصوفيّة، واللواتي اتخذن الصلاة وكثرة التسبيح «أداة تحفيزية Motivation»[1] تحفّز الضحية المحتال عليها للإقدام، ثم بعد ذلك تقود هذه بالضحية، وبسهولة، إلى فخ المصيدة. ففي حكاية

(1) المصطلح يستخدم كثيرًا في تحليلات رواد مدرسة الشكلانيين الروس، وأكثر من يستخدمه توماشفسكي بوريس، في تحليله للحكايات والقصص، ولمزيد من الاطلاع على هذا المفهوم وأبعاده، ينظر : توماشفسكي بوريس: نظرية الأغراض، ضمن كتاب: **نظرية المنهج الشكلي**، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة د. إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط/ مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1982 م، ص 139

«نعمة ونعم» يذكر الراوي أنّه لم يكن بالكوفة «جارية أحسن من نعم ولا أظرف منها، وقد كبرت وقرأت القرآن والعلوم وعرفت أنواع اللعب والآلات وبرعت في المغنى وآلات الملاهي حتى أنّها فاقت جميع أهل عصرها»[1]. وسرعان ما يكتشفها الحجّاج بن يوسف الثقفي، ويقرر أن يحتال عليها، ويخطفها، ثم يقدّمها إلى الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق تقرّبًا منه، وضمانًا لاستمرار ولايته على الكوفة، ونفوذه السياسي والسلطوي فيها، مستغًا ما سيكون لجسد (نعم) من سلطة وسحر وتأثير في فضاء قصر الخليفة، عندها يلجأ إلى قهرمانة ماكرة لتساعده في عملية الخطف هذه. وبينما كانت (نعم) تغني لزوجها (نعمة بن الربيع بن حاتم)، وهما في أطيب عيش، «وإذا بالحجاج في دار نيابته يقول لا بدّ وأن أحتال على أخذ هذه الجارية التي اسمها نعم وأرسلها إلى أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان فإنّه لا يوجد مثلها ولا أطيب من غنائها، ثمّ استدعى بعجوز قهرمانة وقال لها امضي إلى دار ربيع واجتمعي بالجارية (نعم) وتسببي في أخذها لأنّه لا يوجد على وجه الأرض مثلها، فقبلت العجوز من الحجّاج ما قاله، ولما أصبحت لبست الصوف وحطّت في رقبتها سبحة عدد حبّاتها ألوف، ... وأخذت في يدها عكازًا وركوة يمانية وهي تقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، ولم تزل في تسبيح وابتهال وقلبها ملآن بالمكر والاحتيال حتى وصلت إلى دار نعمة بن الربيع عند صلاة الظهر»[2]. وبدهاء القهرمانة ومكرها، وتقنّعها بملابس الزهاد والصوفيين تختطف الزوجة (نعم) من دار زوجها، وتأخذها إلى دار الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم يرسلها بدوره إلى قصر الخلافة بدمشق.

ونأخذ نموذجًا آخر، وهو نموذج المرأة الشريرة المحتالة، فهو نموذج مهم في بناء الحكايات ونمو سردها، وتشعب أحداثها، وقلّما تخلو منه مدينة من مدن ألف ليلة وليلة، ففي حكاية بعنوان: «حكاية تتضمن مكر النساء وأنّ كيدهن عظيم»، تنصب

(1) **ألف ليلة وليلة**، طبعة المكتبة الشعبية، م2، ص 164.

(2) نفسه، ص 165.

الجارية فخًا لابن الملك، وتراوده عن نفسه، فيرفض، ثم تخطط له حيلة، وتذهب إلى أبيه الملك قائلة: «إنّ سيدي راودني عن نفسي وأراد قتلي فمنعته، وهربت منه وما بقيت أرجع إلى القصر أبدًا»[1].

ويظهر نموذج المرأة المحتالة الشريرة، أيضًا، في حكاية (الرجل المسفار مع زوجته الحسناء)، ودرّته التي كانت تُعلم سيدها بما يجري في غيابه، ومضمون الحكاية أن الرجل كان كثير الأسفار لانشغاله بالتجارة، وكانت زوجته ،حين سفره، تدخل إليها غلامًا وسيمًا ليواصلها جسديًا، طوال غياب زوجها التاجر، وذات مرة، وبعد رجوعه من سفره، أخبرته الدرّة بخيانة زوجته له، فقرر أن يقتل زوجته، فما كان من الزوجة المحتالة إلاّ ونصبت حيلة على زوجها، والدرّة، وأوغرت صدره ضد الدرّة، وجلعته يذبح درّته، وتتوالى القصة إلى أن يشاهد التاجر، ذات مرة، الغلام خارجا من حجرة زوجته، فيتحقق من خيانتها له، ويندم على ذبحه درّته[2].

ويظهر هذا النموذج في حكاية (المرأة إحدى بنات التجار)، التي عشقت غلامًا ظريفًا، والتي كانت تستدعيه إليها في سفرات زوجها، وبمصادفات الليالي التي تقتضيها طبيعة السرد الحكائي،حتى ينمو وصولاً إلى الذروة، يتعارك الغلام المعشوق مع رجل من المدينة، فيشكوه هذا الرجل إلى الوالي، فيسجنه الوالي تأديبًا له، فما كان من المرأة إلا وأن نصبت كمينًا للوالي والقاضي والوزير والملك، وأحد النجارين وأغرتهم بجماليات جسدها، ودعتهم إلى مواصلتها في منزلها، في ساعة واحدة، وعندما وصلوا إليها احتالت عليهم وجرّدتهم من ملابسهم، وأخفتهم في خزانة واحدة كان قد صنعها النجار حتى تتسع لهم، واستطاعت أن تأخذ أمرًا من الملك إلى الخازندار ليطلق عشيقها، ثم ذهبت إلى الخازندار، وأطلقت سراح هذا العشيق، وهربت به، تاركة رجال السلطة المرموقين مسجونين داخل الخزانة، وفي حجرة نومها، متسربلين بعريهم أمام سكان الحي الذين قدموا، وأرادوا حرق الخزانة بمن فيها[3].

(1) نفسه، المجلد الثالث، ص 172.

(2) نفسه، ص 174.

(3) لمزيد من الاطلاع تراجع الحكاية في المجلد الثالث من ص 195 إلى ص 200. طبعة المكتبة الشعبية.

وثمّة حكايات أخرى كثيرة ،تشكل الحيلة والشر والمكيدة بنيات مهمة منها، وأبطالها معظمهم من النساء، و«شيء طبيعي أن يكثر الشرّ الصادر عن المرأة في الليالي هذه الكثرة، وتعجّ به الصفحات فقد قامت هذه الحكايات على أساس من خيانة زوجة لزوجها، وتسببت في تعقيده وسفكه للدماء حتى إنّه أصبح سفّاكًا لا يروي ظمأه دماء العذارى ولا يشفي غليله تمزيقه في أبدانهن، فكأنّ شهرزاد أو بمعنى أدقّ قاص الليالي قد عمد إلى توضيح هذا الشرّ الصادر عن النسوة، وكأنّه يودّ أن يثبت للملك المطعون في شرفه أنّه ليست زوجته فقط الشريرة فهناك الكثيرات مثلها أكثر منها شرًا»[1].

ويبقى منطق الحيلة في الليالي ناتجًا من التباين الطبقي الحاد في المدينة العربية الإسلامية، وغير الإسلامية التي جرت حوادثها داخل فضاءاتها المكانيّة والزمانيّة، وداخل الشرائح الاجتماعية التي تشكّلت منها مجتمعات الليالي، وما يفرزه هذا التباين من افتقاد الشخوص إلى الأمان والطمأنينة، وإلى دخل مادي اقتصادي يؤمّن لهم عيشًا حرًا كريمًا، ولذا نشاهد، على سبيل المثال، أن كل حيل دليلة المحتالة، وترويعها لبغداد كانت بهدف أن يُعاد صرف مرتب زوجها، الذي كان مقدم بغداد سابقًا، هذا المرتب الذي توقّف بعد وفاة زوجها، «فقالت زينب لأمّها الدليلة انظري يا أمي هذا أحمد الدنف جاء من مصر مطرودًا ولعب عدّة مناصف في بغداد إلى أن تقرّب عند الخليفة وبقي مقدّم الميمنة (...) ونحن معطّلون في هذا البيت لا مقام لنا ولا حرمة وليس لنا من يسأل عنا (...) قومي واعملي حيلاً ومناصف لعلّ ذلك يجعل لنا صيتًا في بغداد وتكون لنا جامكية أبينا»[2].

لقد أسهمت سلطات مدن ألف ليلة وليلة، في تعميق الهوة بين طبقات المجتمع، وتكريس التباين الطبقي، مما جعل هذه المدن تغص بالمكايد والحيل، والاغتيالات والتجسس، والخوف، وكانت السلطة نفسها في هذه المدن تعمد إلى

(1) د. هيام علي حماد: **المرأة في ألف ليلة وليلة**، جامعة القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، طبعة سبتمبر، 1979 م، ص 72.

(2) **ألف ليلة وليلة**، م3، طبعة المكتبة الشعبية، ص 258.

تشكيل هذا الجو الموبوء بالمكايد والحيل، فقد كانت قصور هذه السلطات راعية لهذه الحيل، مخططة لها، فرجال القصر يحتالون بعضهم على بعض، ونساء القصر كذلك، ولعل هذه الحيل كانت ضامنة لأن يحتفظ رجال السلطة ونساؤها بمكانتهم الاجتماعية والسياسية، إذ كانوا ينتصرون على خصومهم السياسيين بالمكيدة والحيلة، وكانت مكانة النساء تتعزز وتقوى كلما كنّ حذرات وقادرات على ردّ الميكدة بمكيدة أقوى منها، مع ملاحظة أن معظم هذه الحيل التي تحوكها النساء والرجال تكاد تكون متشابهة في معظم مدن ألف ليلة وليلة، سواء أكانت هندية أم فارسية أم عربية إسلامية، وذلك بفعل ظروف الاستبداد والقمع والخوف التي تتشابه في هذه المدن، وهنا يمكن القول: «إنّ الظروف المناخيّة المتشابهة تنتج نفس النباتات، وكذلك تنبت حكايات متشابهة في مناطق مختلفة»[1].

إن ظروف السلطات في مدن ألف ليلة وليلة، وطبيعة تكوينها الفكري والمعرفي، وأنماط حياتها المتشابهة، عادات وأعرافًا وتقاليد، وطرقها في التحايل على طبقات المجتمع كلها، وعلى أفراد طبقتها نفسها شكّل نفوسا خائفة مشوّهة مهزومة لا تثق بأقرب المقربين إليها، على أننا نلاحظ أن الحيلة والشر والمكايد والحسد والمكر، بنى عامة، يتورط في الوقوع في لوثاتها معظم أبناء طبقات المجتمع: الأغنياء والفقراء، الرجال والنساء، باختلاف مهنهم وأعمالهم، الحكام والقادة باختلاف مناصبهم ومسؤولياتهم في هيكلية الدولة. غير أن أهم الحيل في ألف ليلة وليلة وأكثرها انتشارًا هي حيل النساء التي تهدف إلى الوصول إلى الحب وإرواء الغرائز الجنسية، والحصول على المكاسب المالية، وامتلاك قلوب الرجال تمهيدًا للوصول إلى السطوة والبطش والثراء الواسع، وإلى إزاحة نساء أخريات يزاحمنهن لنيل هذا المكاسب والاستئثار بها. وكذلك حيل الرجال لتطويع النساء والوصول إليهن وصولاً عاطفيًا، وجنسانيًا في معظمه، والقضاء على خصومهم من رجال آخرين يزاحمونهم في التجارة والسياسة والسطوة واتخاذ القرار، وامتلاك الثروة والارتقاء في سلم الحياة وشعابها الواسعة.

(1) فريديرش فون ديرلاين: **الحكاية الخرافية**، ص 35.

ملحق

جميع أسماء مدن ألف ليلة وليلة الخيالية و الواقعية كما وردت في طبعة دار مكتبة الحياة

اسم المدينة	رقم الصفحة			
	في المجلد الأول	في المجلد الثاني	في المجلد الثالث	في المجلد الرابع
سمرقند	13	-	-	-
بلاد الفرس	27/دون تحديد اسم المدينة	444	-	-
بغداد	46 ـ150 ـ 168 ـ217 ـ 222 ـ 293 ـ 317 ـ 352 ـ 407.	81 ـ 83 ـ 89 ـ 90 ـ 94 ـ 95 ـ 98 ـ 99 ـ 100 ـ 101 ـ 105 ـ 106 ـ 109 ـ 119 ـ 129 ـ 213 ـ 215 ـ 354 ـ 356 ـ 360 ـ 399 ـ 416 ـ 425 ـ 442 ـ 443.	71 ـ 125 ـ 128 ـ 160 ـ 180 ـ 196 ـ 213 ـ 229 ـ 363 ـ 396 ـ 415.	-
طبرية	50	-	-	-
جزيرة الأبنوس في الهند	62	-	-	-
البصرة	77 ـ 96 ـ 102 ـ 114 ـ 115 ـ 183.	160 ـ 197 ـ 205 ـ 443.	5 ـ 8 ـ 14 ـ 29 ـ 400 ـ 415.	6 ـ 12 ـ 97 ـ 107 ـ 245 ـ 425 ـ 436 ـ 437 ـ 440.

اسم المدينة	رقم الصفحة			
	في المجلد الأول	في المجلد الثاني	في المجلد الثالث	في المجلد الرابع
مصر	64 ـ 128 ـ 145.	128 ـ 355 ـ 357.	82 ـ 86 ـ 114 ـ 208 ـ 261 ـ 263 ـ 267.	78 ـ 188 ـ 184.
القليوبيّة	95	ـ	ـ	ـ
بلبيس	95	ـ	ـ	ـ
القدس	95 ـ 248.	79	141	ـ
حلب	96 ـ 145.	357	ـ	141 ـ 144.
دمشق/الشام	108 ـ 114 ـ 117 ـ 144 ـ 145 ـ 242 ـ 245.	118 ـ 128 ـ 129 ـ 328 ـ 354 ـ 357.	213 ـ 261.	24 ـ 143 ـ 433.
حمص	115	ـ	ـ	ـ
ماردين	115	ـ	ـ	ـ
بلاد الصين	124 ـ 242.	225 ـ 444.	ـ	14 ـ 178 ـ 201.
الموصل	145	ـ	ـ	ـ
الهند	242	97 ـ 119.	356 ـ 364.	24 ـ 39 ـ 48 ـ 178 ـ 209 ـ 379.
السند	242	159 (سندة)	ـ	39 ـ 178 ـ 379.
اليمن	242	411	71 ـ 215.	379
الحجاز	242	ـ	ـ	141 ـ 454.
الحبشة	242	ـ	ـ	ـ
السودان	242	97 ـ 444.	ـ	ـ
ديار بكر	292	ـ	ـ	ـ
قيساريّة بلاد الروم	244	ـ	102	ـ
القسطنطينية	245 ـ 373 ـ 400 ـ 401 ـ 405 ـ 407 ـ 413.	95	ـ	ـ

اسم المدينة	رقم الصفحة			
	في المجلد الأول	في المجلد الثاني	في المجلد الثالث	في المجلد الرابع
فرنسا	356	ـ	ـ	ـ
جورنة	356	ـ	ـ	ـ
بندق (البندقية)	356	ـ	ـ	ـ
جنوى	356	392	ـ	ـ
أصفهان	413	ـ	141	39
الكوفة	ـ	323 ـ 444.	ـ	ـ
إياس	ـ	385	ـ	ـ
الإسكندرية	ـ	384 ـ 391 ـ 898.	113	27
سبأ	ـ	411 ـ 415.	ـ	ـ
صنعاء	ـ	412	97	ـ
إرم ذات العماد	ـ	413	ـ	ـ
حميرَ	ـ	415	ـ	ـ
الأنبار	ـ	444	ـ	ـ
غزّة	ـ	444	ـ	ـ
عسقلان	ـ	444	ـ	ـ
دمياط	ـ	444	ـ	ـ
أسوان	ـ	444	ـ	ـ
وادي نعمان	ـ	444	ـ	ـ
خراسان	ـ	444	23 ـ 322 ـ 365.	ـ
هنّاد/بلاد الصين	ـ	ـ	20	ـ
القاهرة	ـ	ـ	114 ـ 431.	ـ
بولاق	ـ	ـ	114 ـ 212.	ـ
قوص	ـ	ـ	118	ـ
بخارى	ـ	ـ	128	ـ

اسم المدينة	رقم الصفحة			
	في المجلد الأول	في المجلد الثاني	في المجلد الثالث	في المجلد الرابع
حماة	ـ	ـ	196	ـ
الحيرة	ـ	ـ	203	ـ
طوبة	ـ	ـ	260	ـ
برمهات	ـ	ـ	260	ـ
برمودة	ـ	ـ	260	ـ
مسري	ـ	ـ	261	ـ
هاتور	ـ	ـ	261	ـ
أمشير	ـ	ـ	261	ـ
مكّة	ـ	ـ	281	ـ
بيت المقدس	ـ	ـ	296	ـ
كابل	ـ	ـ	321 ـ 405.	ـ
خوارزم	ـ	ـ	364	ـ
مدينة العجم	ـ	ـ	386	ـ
العراق	ـ	ـ	ـ	39 ـ 48.
فاس	ـ	ـ	ـ	63
مكناس	ـ	ـ	ـ	63
السويس	ـ	ـ	ـ	77
جدّة	ـ	ـ	ـ	79
عُمَان	ـ	ـ	ـ	109
بابل	ـ	ـ	ـ	168
سرنديب	ـ	ـ	ـ	213
عماريّة	ـ	ـ	ـ	219
كمين البحرين	ـ	ـ	ـ	219
عكّاء	ـ	ـ	ـ	432
واسط	ـ	ـ	ـ	437

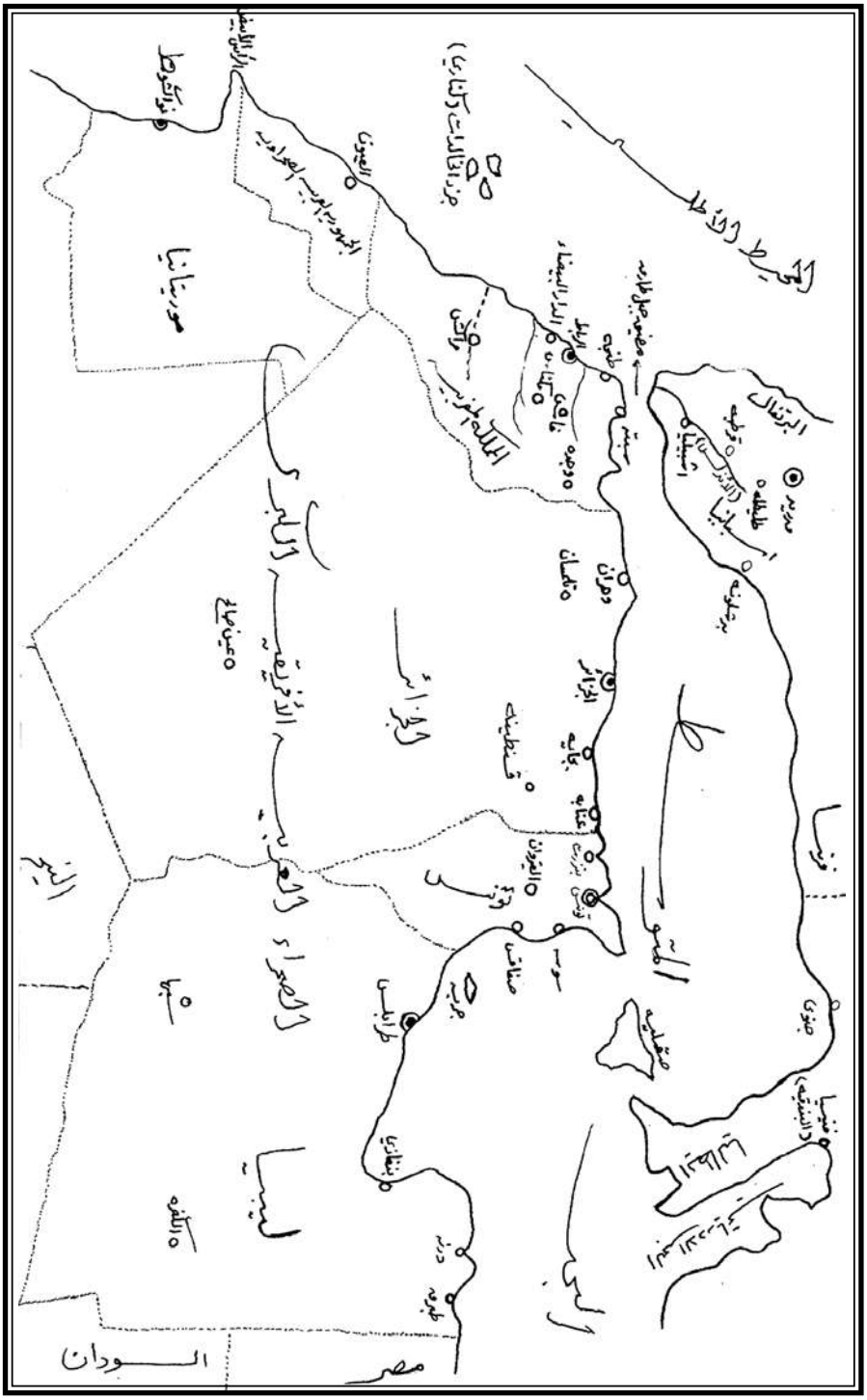
البحر الأبيض المتوسط
البرتغال
مدريد
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
سبتة
طنجة
مضيق جبل طارق
الرباط
مكناس
فاس
وجدة
الدار البيضاء
الجزائر
وهران
تلمسان
بجاية
قسنطينة
عنابة
تونس
بنزرت
القيروان
سوسة
صفاقس
جربة
طرابلس
بنغازي
درنة
طبرق
مصر
السودان
الكفرة
سبها
غدامس
غات
الأطلسي الكبير
الأطلسي الصغير
الصحراء الكبرى
الجزائر
الأغواط
عين صالح
موريتانيا
نواكشوط
الرأس الأبيض
العيون
جزر الخالدات (كناريا)
المملكة المغربية
صقلية
مالطة
صنوى
نابلي (البندقية)

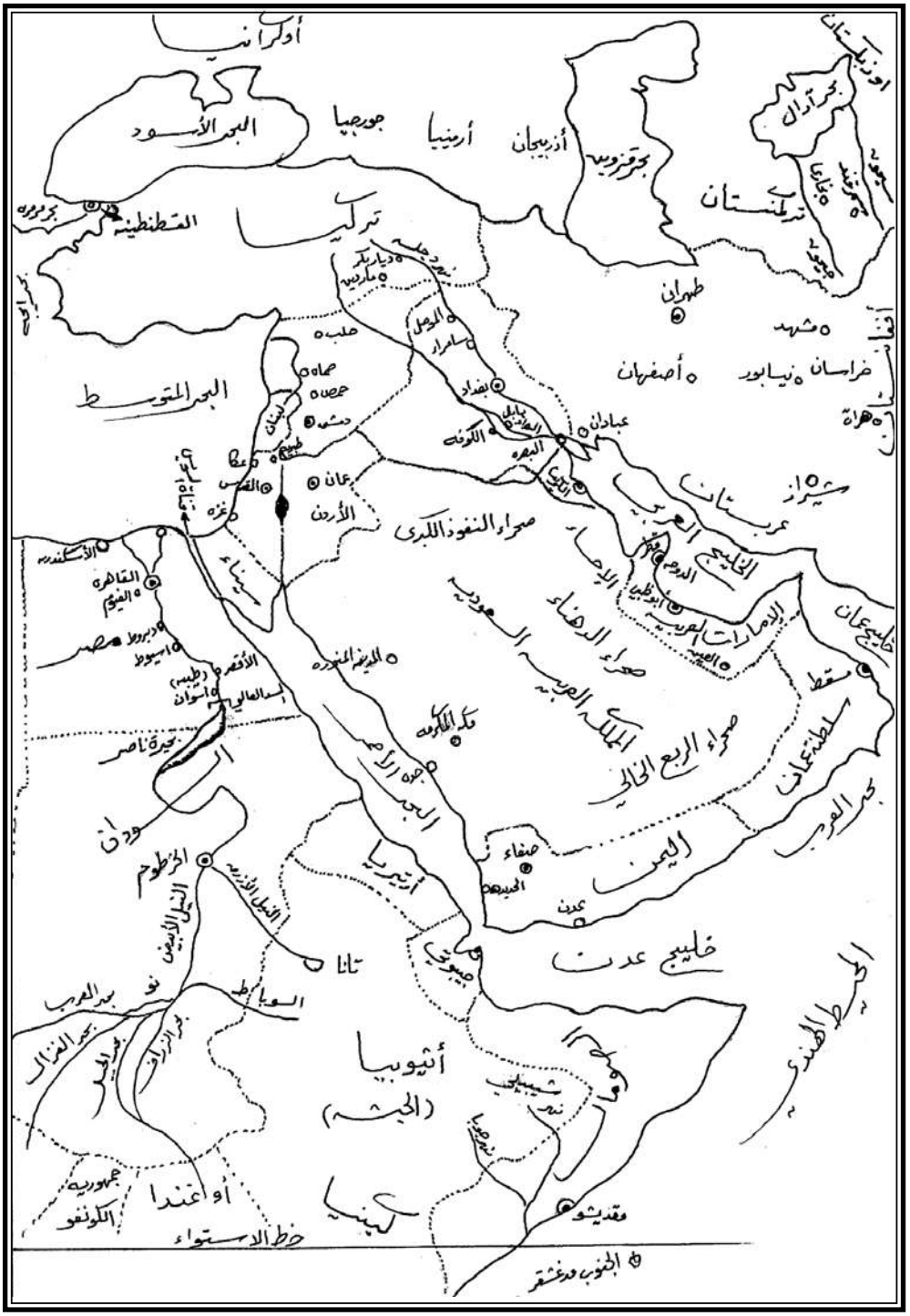
أوكرانيا
البحر الأسود
جورجيا
أرمينيا
أذربيجان
بحر قزوين
بحر آرال
تركمانستان
بخارى
سمرقند
فرغانة
طشقند
بحر مرمرة
القسطنطينية
تركيا
ديار بكر
ماردين
سنجار
الموصل
حلب
طهران
مشهد
نيسابور
أصفهان
خراسان
أفغانستان
هراة
البحر المتوسط
حماه
حمص
دمشق
لبنان
بغداد
بابل
الكوفة
عبادان
البصرة
الكويت
شيراز
عمربستان
الخليج العربي
قطر
الدوحة
أبوظبي
الإحساء
الإمارات العربية
العين
خليج عمان
مسقط
سلطنة عمان
بحر العرب
طبرية
عكا
عمان
القدس
غزة
الأردن
صحراء النفوذ الكبرى
الإسكندرية
القاهرة
الفيوم
بيروط
مصر
أسيوط
الأقصر (طيبة)
أسوان
بحيرة ناصر
المدينة المنورة
مكة المكرمة
صحراء الدهناء
المملكة العربية السعودية
صحراء الربع الخالي
جبة الأحمر
البحر الأحمر
اليمن
صنعاء
الحديدة
عدن
خليج عدن
البحيرة الكبرى
إريتريا
جيبوتي
الخرطوم
النيل الأزرق
النيل الأبيض
تانا
السودان
بحر الغزال
بحيرة البرت
أثيوبيا
(الحبشة)
الصومال
المحيط الهندي
أوغندا
جمهورية الكونغو
خط الاستواء
كينيا
مقديشو
الجنوب

الخاتمة

هذه بعض ملامح مدن ألف ليلة وليلة الواقعية والخيالية، مدن الجواري والسراري، والأموال والقصور، والعمران والثقافة والحضارة، وحمّى التملك وشهوة السيطرة والاستبداد، ومدن الفقراء والشحاذين والمهمّشين، والاستلاب، وعلية القوم وسراتهم. مدن التباين الطبقي، وطغيان الأثرياء وفجورهم.

لقد استطاع رواة ألف ليلة وليلة أن يوظّفوا خبراتهم المعرفيّة، وثقافات عصورهم ومجتمعاتهم، تاريخًا وفكرًا وفلسفات وحكمًا، وسحرًا وميثولوجيات تنتمي إلى حضارات متعددة، داخل عمل حكائي متنام وفريد، وقلّ نظيره، ويتسع ليشمل بقاع العالم الحقيقية والخيالية، من خراسان إلى الهند إلى الصين إلى صنعاء مرورًا بالبصرة وبغداد، ثم ارتحالاً إلى دمشق وحلب والقاهرة، ثم عبورًا للمتوسط وصولاً إلى مكناس وفاس، ثم انتقالاً إلى مدن وجزر خيالية موشاة بالسحر والغرابة.

وهذه الخبرات ليست فردية، وما كانت فردية، إنها رؤى معرفية تجسّد وعيًا جمعيا لمجموعة أممية عالمية من الشعوب والحضارات. لأن ساردي الحكايات لا ينتمون إلى زمان أو مكان محدد، إنهم ينتمون إلى أزمنة عديدة متعاقبة ومتزامنة، وإلى أمكنة تتسع شرقًا وغربًا، وبرًا وبحرًا، وهذه الأمكنة حاضنة بامتياز للفقهاء والسحرة والجن والشياطين، وفلاسفة الأديان والمنطق، والقاصين المبدعين، وعلماء الكلام، والشعراء، والمحتالين والمحتالات أيضًا، وللجمال الأنثوي الشبق المتوفز دائمًا كلما لاحت له الفرص، وهطلت عليه الكنوز السحرية.

وتظل ألف ليلة وليلة عملاً خالدًا على مرّ العصور والأزمنة، وقادرًا على أن يكون منبعا ثرا، وحقلاً معرفيًا لكثير من النصوص الإبداعية المعاصرة، سواء في الشعر أو القصة أو الرواية والمسرح. وعندما يتحدث الرواة في ألف ليلة وليلة عن السحر والجان والعفاريت التي تطير في السماء وتقطع مسافة السنة أو السنتين في عشرة أيام يتجلّى العقل التخيلي في أعلى طاقاته، ولا عجب بعد ذلك أن يكون هذا التخيلي هو بذرة التأمل العلمي الأولى في تشكيل الخيال العلمي. هذا الخيال الإبداعي الرائي الذي يحمل نبوءة الاكتشاف والكشف والمغامرة التي لا حدود لها.

إننا في ألف ليلة وليلة أمام رواة متميزين، علماء وعقلاء وحكماء أحيانًا، وأحيانًا أخرى مغامرين مشعوذين وسحرة، ومجانين حالمين، وأحيانًا روائيين يتقنون فن الرواية بأبعاده التخيلية والسحرية. ومن هنا لا عجب أن قسمًا كبيرًا من الروائيين العرب المعاصرين تأثروا بنصوص ألف ليلة وليلة، واستلهموا منها أجمل نصوصهم الروائية[1]. وإزاء هذا العمل القصصي والحكائي المتميز لا عجب أن يقول المستشرق الدنماركي ج. أوستروب: «فيما عدا الكتاب المقدس لا توجد سوى كتب قليلة حققت انتشارًا واسعًا وطافت العالم بأرجائه مثل مجموعة الحكايات العربية الشهيرة والتي عرفت تحت اسم (ألف ليلة وليلة) فمن جهة أولى اكتسبت أهمية مباشرة، لأنه يكاد لا يوجد في معظم البلدان المتحضرة من لم يقرأ هذا الكتاب بسرور واهتمام مرّة واحدة على الأقل في حياته ويستوح منه عددًا كبيرًا من الصور البرّاقة والتي ظلّت على الدوام عالقة في ذاكرته، ومن جهة ثانية اكتسبت أهمية غير مباشرة لأن أجيالاً متعاقبة من الأدباء كانت تنهل مادتها من هذا النبع الذي لا ينضب»[2]

ويُمكن القول في النهاية: إنّ أهمّ الملامح المشتركة لمجتمّعات مدن ألف ليلة وليلة، تتلّخص في ما يأتي:

(1) ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: نجيب محفوظ ويوسف القعيد وجمال الغيطاني والطيب صالح، وحيدر حيدر، وهاني الراهب، وغازي عبد الرحمن القصيبي، والطاهر وطّار، وآخرون.

(2) عن/ كاترينا موسن: **غوته وألف ليلة وليلة**، ترجمة د. أحمد الحمو، وزارة التعليم العالي، دمشق/سورية، الطبعة الأولى 1980م، ص 4.

1 - يُلاحظ أنّ معظم النساء في المدن التي تناولها هذا البحث، سواء كنّ من نساء السلطة أم من بقيّة الطبقات الأخرى، فاسدات، يخنّ أزواجهنّ كلّما سنحت الفرصة بذلك، ويتقنّ فنون المكيدة والحيلة بمهارة تفوق مهارة الرجال ـ نستثني من ذلك نساء مدينة البصرة العراقيّة اللواتي يتميّزن بكثير من المزايا الجماليّة من أدب وعفّة وغيرها ـ، ويُلاحظ أنّ معظم رجال مدن ألف ليلة وليلة يندفعون مسعورين وراء هاته النسوة، ويتهالكون لاقتنائهنّ سُلعاً جميلة في منازلهنّ.

2 - إنّ المرأة في مدن ألف ليلة وليلة، وبشكل عام، إذا أرادت أن تفعل شيئاً، فإنّها ستفعله شاء الرجل أم أبى. وعلى الرغم من سلطة الرجل وجبروته فإنّ المرأة كانت قادرة على تجاوز هذه السلطة والانتصار عليها، إمّا بالمكر والخديعة، وإمّا بالدسيسة والمؤامرة، وإماّ بتوظيف جسدها وافتعال الإثارة والدلال، ثمّ إظهار مفاتنها الأنثويّة، ثمّ إيقاع الرجل داخل شبكة هذه المفاتن. وتمثّل امرأة الصندوق التي خطفها الجنيّ في بداية حكايات ألف ليلة وليلة خير مثال على ذلك.

3 - يتغاضى رجال مدن ألف ليلة وليلة عن أخطاء نسائهم وجواريهم مهما كانت كبيرة، ويغفرون لهنّ: النميمة والحسد والغيرة، والمكيدة والكذب، والاحتيال والتآمر، وشرب الخمرة. ويُستثنى من ذلك حالة واحدة وهي الخيانة الجنسيّة، فالرجل الذي تخونه زوجته أو جاريته سرعان ما يفقد قدراته على ضبط نفسه، فيستلّ سيفاً ويرمي به عنقها.

4 - إنّ الغاية القصوى التي يسعى رجال ألف ليلة وليلة ونساؤها إلى الوصول إليها هي إشباع الرغبات الجنسيّة، والتمادي في إشباعها. ومن هنا فإنّ العلاقة بين الرجل والمرأة في مدن الليالي ليست علاقة إنسانيّة قوامها الحبّ الخالص الوفيّ، لأنّه يُلاحظ أنّ المرأة سرعان ما تخون زوجها إن هو عجز عن إشباع رغباتها الجنسيّة المثارة دائماً، أو إذا أغضبها، أو خانها جنسيّاً.

5 - مدن ألف ليلة وليلة مدن تجاريّة تُقدس التجارة والمال، ويعتقد سكّانها أنّ الرجل لا يدخل عالم الرجولة الحقيقيّ إلاّ بعد دخوله عالم التجارة الواسع، أيّ

عالم الربح والثراء. وهي في الوقت نفسه مدن مليئة بالعلماء والفقهاء.

6 - تبدو مدن ألف ليلة وليلة كأنّها جنان أرضيّة، ففيها البساتين الجميلة، والأنهار الغزيرة، والقصور الفارهة، ولذا فإنّ الحياة فيها، وبخاصّة حياة الطبقات الثريّة، تبدو ممتعة ومثيرة، فالنسيم العذب وجمال الطبيعة والثراء الفاحش، مظاهر أسهمت في جعل حياة الأثرياء رغيدة، وأسهمت في جعل هذه المدن قبلة للمعجبين والتجار من المدن الأخرى.

7 - نظراً لازدهار حركة التجارة ونشاطها في مدن ألف ليلة وليلة، فإنّ هذه المدن تبدو مجتمعات تجاريّة كبيرة مفتوحة بعضها على بعض، حيث لا تعقيد في معاملاتها التجاريّة، ولا رقابة على السلع والبضائع المنقولة من مدينة إلى أخرى، ولا حدود صارمة تمنع المسافرين والتجار من الدخول إليها، إلاّ أنّه ومن الملاحظ، وعلى الرغم من حريّة التنقل بين هذه المدن وكثرة الطرق التجاريّة والمعابر بينها، أنّ هذه الطرق والمعابر ليست آمنة، لأنّ اللصوص وقطّاع الطرق والبدو الأجلاف الذين يسلبون أموال التجار والمسافرين وبضائعهم ينتشرون فيها.

8 - تغصّ مدن ألف ليلة وليلة بالنساء والجواري الجميلات من الجنسيّات المتعددة، ويُلاحظ أنّ معظم هاته النساء والجواري على قدر كبير من الجمال والإثـارة الجنسيّة، ويتشابهن في أجسامهنّ الرشيقة، وإشراقة وجوههنّ واستدارتها، وضخامة أكفالهنّ، وسعة صدورهنّ، وتكوّر أثدائهنّ العاجيّة[1]، ونجالة عيونهنّ، ورقة أناملهنّ، وحمرة خدودهنّ وشفاههنّ التي تفوق المرجان والعقيق وشقائق النعمان، وطول أفخاذهنّ التي تشبه أعمدة من الدرّ. أمّا النساء القبيحات فإنّهنّ شبه غائبات عن نصوص الليالي، إلاّ إذا استثنينا العجائز

(1) تجدر الإشارة إلى أنّ هناك موضوعاً مهمّاً في **ألف ليلة وليلة** لم تتناوله الدراسات النقديّة والأكاديميّة بعد، وهو المرأة المكوّرة، أيّ المرأة الممتلئة بالكتل اللحميّة المستديرة والبارزة، وتشبه الكرة في ثدييها، وأعضائها التناسليّة، ومؤخرتها المكتنزة باللحم. فالتركيز على هذا الموضوع سيكشف المقاييس الجماليّة الجسديّة التي يفضّلها رجال الليالي.

الماكرات اللواتي يصفهنّ الرواة بأبشع الأوصاف، فهنّ شمطاوات وسحاقيّات، وعيونهنّ زرقاوات، وأسنانهنّ منخورة، وأنوفهنّ كبيرة مفلطحة، وشعرهنّ شائب، إلى غير ذلك من الأوصاف القبيحة.

9 - يبدو جميع رجال مدن ألف ليلة وليلة السلطويّين ضعافاً وصغاراً أمام شهواتهم (شهوات بطونهم وفروجهم)، فهم يتعاركون، ويدخلون الحروب طمعاً بالمرأة الجميلة، ويسافرون إلى أقصى المعمورة إذا ما سمعوا أنّ هنالك امرأة مثيرة ومغايرة لنساء مدنهم، ويُبدّدون أموال شعوبهم في شراء الجواري، وفي تقديم الهدايا والهبات لهنّ.

10 - إذا كانت المدينة العربيّة والإسلاميّة في ألف ليلة وليلة قد شهدت اهتماماً علميّاً ومعرفيّاً في مختلف المعارف، فإنّ المرأة في هذه المدن أسهمت في تحصيل كثير من المعارف والعلوم، مثلها مثل الرجل، بل ربّما فاقته في بعض الأحيان. وتُمثّل شهرزاد وتودّد الجارية خير نموذج للمرأة الذكيّة العارفة بالأدب والتاريخ والطبّ والعلوم، وثقافات الحضارات المتعاقبة والمتزامنة مع حضارتهما.

11 - على الرغم من انتشار ظاهرة الإباحيّة الجنسيّة في مدن ألف ليلة وليلة، وشدّة تهالك الرجال والنساء على ممارسة الجنس بطرق مشروعة (الزواج بالحرائر والجواري، والتسرّي بالجواري)، وغير مشروعة (الزنا واللواط والمساحقة)، فإنّ نوعاً من السريّة والكتمان كانا يحيطان بهذه الظاهرة. ومن هنا فإنّ مجتمعات ألف ليلة وليلة، بهذا الخصوص، هي مجتمعات سرّانيّة مغلقة ترتكب الفجور والدعارة سرّاً، وفي العلن تتظاهر بالتقوى والطهارة والأخلاق الفاضلة.

12 - ثمّة إيديولوجية رجوليّة معادية للنساء يبثّها بعض الرواة في حكاياتهم، ومن خلالها تُقدّم النساء الزواني والماكرات. وعلى الرغم من هذه الإيديولوجيا فإنّ بعض الرواة يُوصلون بعض النساء المتميّزات إلى كراسي الملك، ويجعلوهنّ يحكمن البلاد والعباد بذكاء ومهارة وقوّة تفوق قدرات الرجال الذكور.

13 - ليست النساء في مجتمعات مدن ألف ليلة وليلة، على الرغم من علوّ مكانتهنّ الطبقيّة والسياسيّة، إلاّ جواري جميلة تتركّز مهمّتها في الترفيه عن الرجل

السلطويّ وأولاده، فمهما كانت المرأة متفوّقة معرفيّاً وسيّدة كبيرة في قومها، فإنّ مجتمع الرجال لا يراها إلاّ جارية. وهكذا يُلاحظ أنّ الرواة، في غير حكاية، يُطلقون على المرأة الملكة أو الأميرة أو ابنة الوزير أو الوالي اسم جارية. فمنار السنا زوجة حسن الصائغ البصري وابنة ملك جزر واق الواق، ليست إلاّ جارية تحت جناح رجل صائغ، وزمرّد التي تصبح ملكة، ليست إلاّ جارية مملوكة لرجل أدنى منها وهو علي شار. والسيّدة دنيا البرمكي أخت الوزير جعفر البرمكي، على الرغم من ثرائها وسطوتها وجمالها الذي يدهش العقول، يُسمّيها الراوي بالجارية. وخديجة بنت الوزير العبّاسيّ الحسن بن سهل، وزير الخليفة المأمون وأحد كبار القادة في عصره، لا يراها والدها إلاّ جارية. وابنة صاحب دمشق وحاكمها في حكاية «**اليهودي لملك الصين**»، ليست إلاّ جارية عاهرة جميلة تصطاد الرجال الغرباء الوسيمين في أسواق دمشق. وهكذا تتناسل الجواري في مجتمعات ألف ليلة وليلة السلطويّة الرجوليّة، المجتمعات التي سلّعت المرأة، وربّتها على أن تكون جارية تتحدّد مهمتّها الأساسيّة في تحفيز طقوس اللهو، وتحفيز الرجال إلى أعلى درجات الإثارة، ثمّ تفكيك هذا التحفيز عن طريق التواصل الجنسيّ، وبالتالي إشباع الرغبة، وإحلال الطمأنينة والتصافي بين الرجل والمرأة، بمفردات بعض رواة ألف ليلة وليلة.

14 - مجتمعات مدن ألف ليلة هي مجتمعات تدمن الخمرة، لأنّ الخمرة ضروريّة جدّاً في جميع طقوس الفرح والمسرّات، والتواصلات الجنسيّة. وقد تورّط في الإدمان عليها الرجال والنساء من مختلف الطبقات الاجتماعيّة. وعموماً تتزامن طقوس الاحتفاء بالخمرة مع حفلات الغناء والموسيقى. وبشكل عامّ تكون الخمرة والموسيقى في جميع قصور مدن ألف ليلة وليلة مفتاحاً للوصول إلى أبواب أجساد الجواري وعقولهنّ، فالمرأة عندما تسكر تصبح طيّعة، وتزداد ألقاً، وتسارع في منح مُنادمها كلّ ما يشتهي منها.

والله ولي التوفيق

مصادر البحث ومراجعه

1 ـ الكتب القديمة.

2 ـ المعاجم والموسوعات.

3 ـ الكتب العربية الحديثة.

4 ـ الكتب الأجنبيّة المترجمة.

5 ـ الدراسات المنشورة في الدوريات ومقدّمات الكتب.

6 ـ الكتب الأجنبيّة.

1 ـ الكتب القديمة

1 ـ مؤلف مجهول: **ألف ليلة وليلة**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. أربعة أجزاء.

2 ـ مؤلف مجهول: **ألف ليلة وليلة**، المكتبة الشعبيّة للطباعة والنشر، بيروت، د. ت. المجلد الثاني والمجلد الثالث.

3 ـ الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد: (ت 850 هـ): **المستطرف في كل فن مستظرف**، إشراف المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت/ لبنان، طبعة 1989م، المجلد الثاني.

4 ـ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ/967م): **كتاب الأغاني**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر، القاهرة، طبعة 1390هـ/1970م. الجزء الثاني.

ـ **كتاب الأغاني**، تحقيق: علي محمد البجّاوي، طبعة 1389هـ/1970م. الجزء السابع عشر.

ـ **كتاب الأغاني**، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، طبعة 1389هـ/1970م. الجزء الثامن عشر.

ـ **كتاب الأغاني**، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، ومحمود محمد غنيم، طبعة 1393هـ/1973م. الجزء الحادي والعشرون.

5 ـ البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر بن داود (ت279هـ/892م): من كتاب **فتوح البلدان**، اختار النصوص وقدّم لها: د. شوقي أبو خليل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1997م.

6 ـ التجاني، محمد بن أحمد (ت 709هـ/1309م): **تحفة العروس ومتعة النفوس**، تحقيق: د. جليل العطيّة، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن/ليماسول، الطبعة الأولى، حزيران(يونيو)، 1992م.

7 ـ التنوخي، أبو علي المُحَسِّن بن علي (ت 384هـ/994م): من كتاب **الفرج بعد الشدّة**، اختار النصوص وقدّم لها: د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1995م. السفر الثاني.

8 ـ الحلاّق، أحمد البُدَيري (ت بعد 1175هـ/1762م): **حوادث دمشق اليوميّة** (1154 ـ 1175هـ/1741 ـ 1762م)، تحقيق: د. أحمد عزّت عبد الكريم، دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الثانية 1418هـ/1997م.

9 ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1406م): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر «مقدمّة ابن خلدون»**، تحقيق وشرح: د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرّم 1401هـ/1980م. ثلاثة أجزاء.

10 ـ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله (ت 748هـ/1348م): **كتاب الكبائر**، دون محقّق، دار الهجرة، دمشق/بيروت، الطبعة الأولى 1407هـ/1987م.

ـ **دول الإسلام**، دون محقّق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، طبعة 1995م.

11 ـ ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريح(ت 282هـ/895م): **ديوان ابن الرومي**، شرح: محمد شريف سليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت. الجزء الثاني

12 ـ ابن طباطبا، محمد بن علي (ت709هـ/1309م): **الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة**، دون محقّق، دار صادر، بيروت، د. ت.

13 ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/923م): **تاريخ الأمم والملوك «تاريخ الطبري»**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة بيروت، الطبعة الثانيّة، جمادى الثانيّة 1387هـ/ سبتمبر 1967م. الأجزاء: 1، 4، 5، 7، 8.

14 ـ ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت328هـ/940م): **العقد الفريد**، شرح كرم البستاني، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية 1981م. الأجزاء : 1، 4، 5، 6، 10.

15 ـ أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان(ت210 هـ/826م): ديوان أبي العتاهية، دار صادر للطباعة والنشر/دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، طبعة 1348 هـ/1964م.

16 ـ الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طَرخَان (ت339هـ/950م): في شرح كتاب: **الجمع بين رأيي الحكيمين**، قدّم له وعلّق عليه: د. ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، د. ت.

17 ـ **القرآن الكريم**.

18 ـ الكاشاني، المولى محسن الفيض (ت1091هـ/1680م): **تفسير القرآن الكريم «تفسير الصافي»**، مؤسسة الأعلمي بيروت، الطبعة الثانية 1402هـ/1982م. المجلد الثاني.

19 ـ ابن كمال باشا، أحمد بن سليمان : **رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.

20 ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م):

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: عبد الأمير مهنّا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى 1411هـ/1991م. الأجزاء: 2، 3، 4.

21 ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة 1416 هـ/1996م.

22 ـ ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت 385 هـ): **الفهرست**، ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له الدكتور يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون تاريخ.

23 ـ النفزاوي، محمد بن أبي بكر: **الروض العاطر في نزهة الخاطر**، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، آب/أغسطس 1990م.

24 ـ أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت196 أو197هـ/812 أو813م): ديوان أبي نواس، حققه وضبطه وشرحه:أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة 1402هـ/1982م.

2 ـ المعاجم والموسوعات.

1 ـ الزركلي، خير الدين: **الأعلام** (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، شباط (فبراير)، 1997م. الأجزاء: من الجزء الأوّل إلى الجزء الثامن.

2 ـ شترك، م؛ وآخرون: «بغداد»، **كتب دائرة المعارف الإسلاميّة**، الكتاب الخامس عشر، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني/ مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى 1984م.

3 ـ العلايلي، عبد الله؛ وآخرون: **المنجد في الأعلام**، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة 1980م.

4 ـ لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين: **الموسوعة الفلسفيّة**، بإشراف: م. روزنتال؛ ب. يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة السادسة، تشرين الأوّل 1987م.

5 ـ ماكدونالد، د. ب؛ وآخرون: «**ألف ليلة وليلة**»، كتب دائرة المعارف الإسلاميّة، الكتاب العاشر، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، دار الكتاب اللبناني/مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى 1982م.

6 ـ معلوف، لويس: **المنجد في اللغة**، منشورات اسماعيليان، طهران/دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية والعشرون، 1 كانون الثاني 1973م.

7 ـ نخبة من أساتذه الجامعات : **موسوعة بهجة المعرفة ـ مسيرة الحضارة**، بإشراف: الصادق النيهوم، ترجمة د. ماجد فخري، الشركة العامّة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس (ليبيا)، طبعة إيطاليا 1982/11/23م. المجلد الأوّل، المجموعة الثانية.

8 ـ وهبة، د. مجدي؛ المهندس، د. كامل: **معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب**، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة 1979م.

9 ـ وهبة، د. مجدي: **معجم مصطلحات الأدب**، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى 1974م.

10 ـ ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (626هـ/1228م): **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1399هـ/1979م. المجلدات : (1 ـ 2 ـ 4 ـ 5).

11 ـ يونس، د. عبد الحميد: **معجم الفلكلور**، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى 1983م.

3 ـ الكتب العربيّة الحديثة.

1 ـ أمين، د. أحمد: هرون الرشيد، **سلسلة كتاب الهلال**، دار الهلال، القاهرة، العدد الثالث، ذي القعدة 1370هـ/1951م.

2 ـ البقليّ، محمد قنديل: **الطرب في العصر المملوكي**، سلسلة المكتبة الثقافيّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، العدد 389، الطبعة الأولى 1984م.

3 ـ بيضون، د. إبراهيم: **الحجاز والدولة الإسلاميّة**، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1403هـ/1983م.

4 ـ تيمور، أحمد؛ وآخرون: **درر وتحف من تراث السلف الصالح**، اختار النصوص وعلّق عليها: محمد علي السرّاج، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى 1986م. الجزء الثاني.

5 ـ جعيط، د. هشام: **الكوفة ـ نشأة المدينة العربية الإسلاميّة**، مؤسسة الكويت للتقدّم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى 1986م.

6 ـ حريتاني، د. سليمان: **الموقف من الخمرة وظاهرة انتشار الحانات ومجالس الشراب في المجتمع العربي الإسلامي**، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 1986م.

7 ـ حسن، د. حسن إبراهيم: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الجيل، بيروت/مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، 1411هـ/1991م. ثلاثة أجزاء:

ـ الجزء الأول: الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس.

ـ الجزء الثاني: العصر العبّاسيّ الأول في الشرق ومصر والمغرب والأندلس.

ـ الجزء الرابع: العصر العبّاسي الثاني في الشرق ومصر والمغرب والأندلس.

8 ـ حلاّق، د. حسّان: **مدن وشعوب إسلاميّة**، دار الراتب الجامعيّة، بيروت، الطبعة الأولى آذار(مارس)، 1992م. الجزء الأوّل.

9 ـ حمّاد، د. محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى 1995م.

10 ـ حمّاد، د. هيام علي: **المرأة في ألف ليلة وليلة**، مكتبة نهضة الشرق/جامعة القاهرة، القاهرة، طبعة سبتمبر 1979م.

11 ـ الخازن، د. وليم: **الحضارة العبّاسيّة**، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية 1992م.

12 ـ الخوري، د. فؤاد إسحق: **القبيلة والدولة في البحرين ـ تطوّر نظام السلطة وممارستها**، معهد الإنماء العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1983م.

13 ـ زايد، د. علي عشري: **الرحلة الثامنة للسندباد**، دار ثابت، القاهرة، الطبعة الأولى، 1984 م.
14 ـ زكي، د. أحمد كمال: «عن ألف ليلة وليلة»، **مجلة فصول**، الهيئة المصرية العالمة للكتاب، القاهرة/مصر، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، شتاء 1994م.
15 ـ زيدان، جرجي: **تاريخ التمدّن الإسلامي**، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. الجزء الثاني.
16 ـ صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة 1971م.
17 ـ صالح، د. عبد المحسن : **الإنسان الحائر بين العلم والخرافة**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 235، يوليو 1998م.
18 ـ ضيف، د. شوقي: **العصر الإسلامي**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة 1976م.
19 ـ ضيف د. شوقي: **العصر العباسيّ الأوّل**، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
20 ـ طرشونة، د. محمود: **مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة**، المطابع الموحدة، تونس، الطبعة الأولى 1986م.
21 ـ الطويل، د. توفيق: **في تراثنا العربي الإسلامي**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد السابع والثمانون، الطبعة الأولى، جمادى الآخرة 1405هـ/ آذار (مارس)، 1985م.
22 ـ عبد المولى، د. محمد أحمد: **العيّارون والشطّار البغاددة في التاريخ العبّاسيّ**، طبع مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، الطبعة الثانية، د. ت.
23 ـ عثمان، د. عبد العزيز: **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم**، دار الفكر الحديث، بيروت، طبعة 1966م.
24 ـ عثمان، د. محمد عبد الستّار: **المدينة الإسلاميّة**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد 128، الطبعة الأولى، ذو الحجّة 1408م/آب (أغسطس)، 1988م.
25 ـ العشّ، د. يوسف: **تاريخ عصر الخلافة العبّاسيّة**، راجعه ونقّحه: د. محمد أبو الفرج العشّ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 1402هـ/1982م.
26 ـ العلوي، هادي: **في السياسة الإسلاميّة**، دار صحارى، بودابست، الطبعة الثانية 1991م.
27 ـ العلوي، هادي: **فصول عن المرأة**، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت، الطبعة الأولى 1996م.
28 ـ عوّاد، ميخائيل: ألف ليلة وليلة مرآة الحضارة والمجتمع في العصر العباسيّ، مديرية الفنون والثقافة الشعبيّة بوزارة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى 1962م.

29 ـ قاسم، د. قاسم عبده: **أثر الحروب الصليبيّة في العالم العربي**، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس)، الطبعة الأولى 1994م.

30 ـ الملاّح، عبد الغني: **رحلة في ألف ليلة وليلة**، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1981م.

31 ـ الملوحي، عبد المعين: **مواقف إنسانيّة في الشعر العربي**، دار الحضارة الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1992م.

32 ـ الموسوي، د. محسن جاسم: **الوقوع في دائرة السحر ـ ألف ليلة وليلة في النقد الأدبي الإنكليزي**، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، طبعة 1987م.

33 ـ الموسوي، مصطفى عبّاس: **العوامل التاريخيّة لنشأة وتطوّر المدن العربيّة الإسلاميّة**، وزارة الثقافة والإعلام/دار الرشيد، بغداد، الطبعة الأولى 1982م.

34 ـ النعيمي، عبد الرحمن محمد: **الصراع على الخليج العربي**، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت، الطبعة الثانية 1994م.

35 ـ يونس، د.محمد عبد الرحمن : **الجنس والسلطة في ألف ليلة وليلة**، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1998م.

4 ـ الكتب الأجنبيّة المترجمة.

1 ـ بروب، فلاديمير: **مورفولوجيا الحكاية الخرافية**، ترجمة وتقديم أبو بكر أحمد باقادر، وأحمد عبد الرحيم نصر، منشورات النادي الأدبي الثقافي، جدّة الطبعة الأولى 1409هـ/1989م.

2 ـ بريجز، كريستي أرنولد: **تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصويرية والعمارة**، ترجمة د. زكي محمد حسن، دار الكتاب العربي، دمشق/مكتبة السائح، طرابلس (لبنان)، الطبعة الأولى 1984م.

3 ـ بو حديبة، د. عبد الوهاب: **الإسلام والجنس**، ترجمة هالة العوري، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى 1987م.

4 ـ بوريس، توماشفسكي: نظرية الأغراض، ضمن كتاب: **نظرية المنهج الشكلي**، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة د. إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط/ مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1982 م.

5 ـ تودوروف، تزيفيتان: **مدخل إلى الأدب العجائبي**، ترجمة الصدّيق بو علام، مراجعة د. محمد برادة، دار شرقيّات، القاهرة، الطبعة العربية الأولى 1994م.

6 ـ جرابار، أوليج؛ وآخرون: **تراث الإسلام**، تصنيف جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث، ترجمة د. حسين مؤنس، ود. صدقي العمد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الثاني عشر الطبعة الثانية، رمضان 1408هـ/مايو1988م. القسم الثاني من الجزء الأول

7 ـ جيب، هاملتون: **التاريخ الإسلاميّ في العصور الوسطى**، دون ذكر المترجم،المركز العربي للكتاب، دمشق، د. ت.

8 ـ حتّي، د. فيليب: **الإسلام منهج حياة**، تعريب د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار1983م.

9 ـ ديرلاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافيّة**، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، مراجعة د. عز الدين إسماعيل، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان 1973م.

ـ ديرلاين: فردريش فون: **الحكاية الخرافية ـ نشأتها. مناهج دراستها. فنيتها**، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، الطبعة الأولى 2016م.

10 ـ ريمون، أندريه: **العواصم العربيّة ـ عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانيّة**، تعريب قاسم طوير، دار المجد، دمشق، الطبعة الأولى 1986م.

11 ـ ستيورات، ديزموند: **القاهرة**، ترجمة يحي حقي، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1987م.

12 ـ فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (الثاني)، الكتاب الثاني عشر، الطبعة الأولى 1986م.

13 ـ فيرنيه جون، Vernet, Jaun وآخرون: **تراث الإسلام**، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة د. إحسان صدقي العمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد الثاني عشر، الطبعة الثانية، مايو 1988م، الجزء الثاني.

14 ـ كيليطو، د. عبد الفتاح : **العين والإبرة (دراسة في ألف ليلة وليلة)**، ترجمة مصطفى النحال، نشر الفنك للترجمة العربية، الدار البيضاء/ المغرب، الطبعة الأولى 1996م.

15 ـ لاندو، روم: **الإسلام والعرب**، تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول 1977م.

16 ـ موسن، كاترينا : **غوته وألف ليلة وليلة**، ترجمة د. أحمد الحمو، وزارة التعليم العالي، دمشق/ سورية، الطبعة الأولى 1980م

17 ـ ميكيل، أندريه: **جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر** ـ الأعمال والأيام، ترجمة إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1995م. جزآن: الجزء الرابع: القسم الأول والثاني. والجزء الرابع: تتمة القسم الثاني والقسم الثالث.

5 ـ الدراسات المنشورة في الدوريّات، ومقدّمات الكتب.

1 ـ إبراهيمي، محمد : «سوس ... ملوك استخراج الكنوز»، **جريدة الصباح**، يومية مغربية مستقلة شاملة، الدار البيضاء/المغرب، عدد 4 ديسمبر، كانون الأول 2017م.

نسخة إلكترونية على الرابط التالي : https://assabah.ma/269503.html

2 ـ أرناؤوط، عبد اللطيف: «مراجعة كتاب: محمد المصري: الديوان الدمشقي، دار الفكر، دمشق/دار الفكر المعاصر، بيروت، د. ت.» في: **مجلة التراث العربي**، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، العددان 56/55، ذي القعدة 1414هـ، صفر 1415هـ/نيسان (أبريل)، 1994م، تموز (يوليو)، 1994م.

3 ـ إسماعيل، د. عزت سيّد: «الإدمان الكحولي ـ المشكلة المراوغة»، **مجلة العلوم الاجتماعيّة**، جامعة الكويت، الكويت، المجلد الثاني عشر، العدد الثالث، خريف 1984م.

4 ـ باقادر، د.أبو بكر: «العالم نصّ، النص عالم: حكاية جراب الكردي نموذجاً»، **مجلة علامات في النقد**، نادي جدّة الأدبي، جدّة، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، صفر 1418هـ/ حزيران (يونيه)، 1997م.

5 ـ البني، د. عدنان: «دمشق من 538 قبل الميلاد إلى آخر القرن الثالث الميلادي»، **مجلة التراث العربي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العددان 56/55.

6 ـ البهنسي، د. عفيف: «دمشق أقدم مدينة في العالم»، **مجلة التراث العربي**، العددان 56/55.

7 ـ ثورو، بيتر: «القاهرة قلب مصر المضيء»، دون ذكر المترجم، مجلة الجيل، مؤسسة الجيل للصحافة، باريس، المجلد السادس عشر، تشرين الثاني (نوفمبر)، 1995م.

8 ـ الجوراني، وداد: «حكايات ما قبل ألف ليلة وليلة»، **مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات**، دار الشروق، عمّان، العدد الثاني عشر، شتاء 1996م .

9 ـ خورشيد، فاروق: «الليالي والحضارة الإسلاميّة ـ مناقشة ورؤية»، **مجلة فصول**، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع 1994م.

10 ـ دوب، ب. هـ: «القاهرة كما رآها الرحالة الغربيون في العصر الوسيط»، ترجمة عبد الرحمن حميدة، **مجلة دراسات تاريخية**، جامعة دمشق، دمشق، السنة الخامسة عشرة، العددان 50/49، آذار، حزيران 1994م.

11 ـ الدوري، د. عبد العزيز: «المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية – نظرة تاريخية إلى بغداد»، **مجلة الأبحاث**، الجامعة الأمريكية، بيروت، العام 1978 – 1979م .

12 ـ الزوبي، ممدوح : «مدارس دمشق القديمة»، **مجلة بناة الأجيال**، نقابة المعلمين، دمشق، السنة الرابعة، العدد الخامس عشر، تموز 1995م .

13 ـ الزيات، أحمد حسن: «ألف ليلة وليلة ـ تاريخ حياتها»، ضمن: **محاضرات المجمع العلمي العربي**، دمشق، المجلد الثالث، طبعة 1954م.

14 ـ زيادة، د. خالد : «الخسيس والنفيس ـ الفئات في المدينة الإسلاميّة» مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت/الهيئة القوميّة للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، السنة الرابعة، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول (أكتوبر)/تشرين الثاني (نوفمبر)، 1982م.

15 ـ زيادة، د. نقولا: «الحياة العلميّة في بلاد الشام في أيام المماليك»، **مجلة التراث العربي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العددان 56/55.

16 ـ سرور، د. محمد جمال الدين: «الحياة الاجتماعيّة في بغداد في العصر العباسي»، **مجلة العربي**، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، العدد السابع والخمسون، أغسطس (آب)، 1963م.

17 ـ شبوح، د. ابراهيم: «الطرز المعمارية في البلاد العربيّة والتخطيط المستقبلي لها في إطار الثقافة العربية»، **مجلة الفكر**، تونس، السنة التاسعة والعشرون، العدد السابع، أفريل 1984م.

18 ـ القيِّم، علي: «تغطية محاضرة: د. شوقي شعث: حلب وتجارة الحرير، ضمن محاضرات الندوة الدولية: حلب وطريق الحرير» في: **مجلة التراث العربي**، العدد الثامن والخمسون، شعبان 1415هـ/كانون الثاني (يناير)، 1995.

19 – الصاوي، أحمد: «القاهرة مجمع أسواق الشرق»، **مجلة الشاهد**، شركة الشاهد للنشر المحدودة، ليماسول (قبرص)، السنة الخامسة، العدد السابع والخمسون، أيار (مايو)، 1990م.

20 ـ طبارة، محمد سليم : **مجلة الفكر العربي**، معهد الإنماء العربي، بيروت/لنان، العدد الثلاثون، ديسمبر/كانون الأول، 1982م.

21 ـ عاشور، د. سعيد: «الحياة الاجتماعيّة في المدينة الإسلاميّة»، **مجلة عالم الفكر**، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، أبريل، مايو، يونيو 1980م.

22 ـ عاصم، داليا : «وادي الملوك ... رحلة في عالم الأساطير المصرية القديمة»، **جريدة الشرق الأوسط**، تصدر عن/ المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق، لندن، الثلاثاء 1 رجب 1438 هـ/ 28 مارس، 2017م، ملحق سفر وسياحة.

23 ـ عاقل، د. نبيه: «دمشق... من الفتح وحتى العصر العباسي»، **مجلة التراث العربي**، العددان 56/55.

24 ـ العالم، د. محمود أمين: **مجلة دراسات يمنية**، مركز الدرسات والبحوث اليمني، صنعاء/ اليمن، العدد 36، العام 1989م.

25 ـ العلواني، نوري عبأس: «مراجعة كتاب: عبد الجبّار ناجي: دراسة في تاريخ المدن العربيّة الإسلاميّة، بغداد، طبعة 1986م»، في: مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، العدد السابع، ربيع 1410هـ/1990م.

26 ـ العلوي، هادي: «البصرة في ذاكرة الحضارة» مجلة البديل، اتحاد الكتاب والصحفيين العراقيين، دمشق، العدد العاشر، تشرين الأول 1987م.

27 ـ قاسم، د.قاسم عبده: «بعض مظاهر الحياة الاجتماعيّة في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية»، **مجلة عالم الفكر**، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1993م.

28 ـ منيمنة، د. سارة حسن: «مورفولوجية مدينة دمشق»، **مجلة الفكر العربي**، معهد الإنماء العربي، بيروت/الهيئة القوميّة للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول (أكتوبر)/تشرين الثاني(نوفمبر)، 1982م.

29 ـ الموسوي، د. محسن جاسم: «صيغ الكلام وأوجه الكتابة في ألف ليلة وليلة»، **مجلة فصول**، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع 1994م.

30 ـ نبيل، مصطفى: «بغداد العباسيّة ـ رحلة في المكان والزمان»، **مجلة العربي**، وزارة الإعلام، الكويت، العدد 241، كانون الأول(ديسمبر)، 1978م.

31 ـ نبيل، مصطفى: «يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا»، **مجلة الهلال**، دار الهلال، القاهرة، العدد الرابع، أبريل 1993م.

6 ـ مقدّمات الكتب

1 – حمدان، د.جمال: «القاهرة الكبرى ـ دراسة في جغرافية المدن»، مقدمة كتاب: القاهرة، لديزموند ستيوارت، ترجمة يحيى حقي، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1987م.

7 ـ الكتب الأجنبية

Miquel André: Sept contes des mille et une nuits, ou il n´ya pas conte innocent, Éditions Sindbad, Paris, 1981.

فهرس المحتويات

الإهـــــداء 5
بطاقة شكر **7**
المقدمـــة 9

الفصـل الأول: المدن المركزيّة في ألف ليلة وليلة (مدن العراق) 23
مدخل 25
1 ـ بغداد 29
بغداد في ألف ليلة وليلة 36
2 ـ البصرة 77
البصرة في ألف ليلة وليلة 83

الفصل الثاني: المدن شبيهة بالمركزيّة في ألف ليلة وليلة (مدن مصر وبلاد الشام) 107
مدخل 107
1 ـ القاهرة 115
القاهرة في ألف ليلة وليلة 123
2 ـ دمشق 151
دمشق في ألف ليلة وليلة 167

3 ـ ملحق : المدن الثانوية في ألف ليلة وليلة 189

الفصل الثالث: المدن الخيالية في ألف ليلة وليلة 193

أ ـ مدن السندباد البحري وجزره/ أنموذجا للخيال العجائبي 195

ب ـ المدينة الخيالية الأسطورية بين الدهشة والجمال والغرابة 200

ج ـ المدينة الخيالية بين الطلاسم والسحر وممارسيه 219

د ـ حكاية حسن الصائغ البصري وبهرام المجوسي
والسيدة منار السنا/أنموذجا للعجائبي والسحري..... 232

هـ ـ بعض مظاهر الاحتيال والمكايد
في مدن ألف ليلة وليلة الواقعية والخيالية 241

ملحق: جميع أسماء مدن ألف ليلة وليلة الخيالية والواقعية
كما وردت في طبعة دار مكتبة الحياة 251

الخاتمة 257

مصادر البحث ومراجعه 263

مؤلف الكتاب

Professor Dr. Mohammad Abdul Rahman Younes

محمد عبد الرحمن يونس، سوري الجنسيّة، درس وتخرّج في في الجامعات الآتيّة:

ـ الجامعة الجزائريّة وحصل فيها على شهادة الليسانس في اللغة العربيّة وآدابهاـ شعبة الأدب والنقد.

ـ جامعة محمد الخامس بالرباط/ المغرب، وحصل فيها على شهادة دبلوم الدراسات العليا المعمّقة. اختصاص الأدب والنقد الحديث.

ـ الجامعة اللبنانية ـ الفرع الأول في بيروت وحصل فيها على شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها . اختصاص النقد والأدب الحديث.

ـ الجامعة اللبنانية ـ الفرع الأول في بيروت وحصل فيها على شهادة دكتواره الدولة. اختصاص اللغة العربية وآدابها. الأدب والنقد

الجامعات التي عمل ويعمل بها

ـ جامعة صنعاء باليمن، جامعة آل البيت العالمية بيروت، جامعة الباحة، المملكة العربية السعودية، جامعة الدراسات الأجنبية في بكين، الصين، جامعة جين جي الوطنية في تايوان (تايبي) ـ جامعة ابن رشد في هولندا، الجامعة النمساوية العربية للعلوم والتكنولوجيا، النمسا، فينا، التعليم المدمج ـ جامعة دجلة (بغداد، العراق) ــ جامعة بلاد الشام (حلب سوريا)،

ـ أكاديمية الدراسات الجامعية العالمية . (التعليم الإلكتروني). أستاذ مشرف.

ـ يعمل الآن، نائب رئيس جامعة ابن رشد في هولندا، للشؤون العلمية التعليم الإلكتروني المفتوح.

الرتبة العلمية : أستاذ، بروفيسور: Professor

منظمات أدبية ينتمي إليها

ـ مندوب الموسوعة العربية للسرقات الأدبيّة التي كانت تصدر في الرياض عن دار المجد.(سابقا)

ـ عضو في مجلس خبراء الجمعية الدولية للباحثين والمترجمين العرب، لجنة الدراسات والبحوث.(سابقا)

ـ عضو اتحاد الكتاب العرب

ـ عضو اتحاد الصحافيين العرب

ـ عضو اتحاد منظمة كتاب بلا حدود

ـ عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب.

ـ عضو نادي الباحة الأدبي.

ـ عضو نادي القصة بتونس ـ نادي أبي القاسم الشابي بالوردية،

ـ عضو في رابطة أدباء الشام، لندن.

ـ عضو الاتحاد العربي للإعلام الإلكتروني، القاهرة.

ـ عضو المعهد العربي للبحوث والدراسات الاستراتيجية ـ عمّان/ الأدرن.
ـ عضو رابطة أدباء مصر.
ـ عضو الاتحاد العربي للجامعات العربية / مصر.
ـ عضو فخري في دار ناجي نعمان للنشر والتوزيع/ بيروت.
ـ عضو مجلس إدارة المجلس العالمي للصحافة . ورئيس شعبة الأدباء والكتاب بالمجلس.(سابقا)
ـ عضو الاتحاد الدولي للغة العربية .

عضوية المجلات العلمية الأكاديمية

1 ـ مدير تحرير مجلة النافذة الأدبية، بيروت (سابقا).
2 ـ عضو هيئة تحرير مجلة الدراسات والبحوث التربوية التي تصدرها جامعة الباحة / السعودية. (سابقا).
3 ـ مدير تحرير مجلة جامعة ابن رشد الأكاديمية المحكمة، هولندا،أمستردام. (الآن).
4 ـ عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الاستهلال الأكاديمية المحكّمة، فاس، المغرب. (الآن).
5 ـ عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية المحكمّة، فاس، المغرب. (الآن).
6 ـ عضو الهيئة الاستشارية لمجلة كلية الآداب، الأكاديمية المحكمة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب . (الآن).
7 ـ عضو الهيئة الاستشارية العلمية الدولية لمجلة الأطروحة الأكاديمية المحكمة، بغداد، العراق . (الآن).
8 ـ عضو الهيئة الاستشارية الدولية، لمجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية الأكاديمية المحكمة، الجزائر. (الآن).
9 ـ عضو الهيئة الاستشارية، ومحكّم في دورية (كان التاريخية الأكاديمية المحكمة)، القاهرة، مصر. (الآن).
10 ـ عضو محكّم للكتب الأدبية (القصة والرواية والشعر) التي يصدرها نادي الباحة الأدبي، الباحة، المملكة العربية السعودية.
11 ـ عضو محكم في المشروع الدولي، رسالة الباحث في مختبر اللغة والتواصل، جامعة أحمد زبانة، غليزان، الجزائر .
12 ـ عضو هيئة تحرير مجلة دجلة الجامعة(العلمية المحكمة)، جامعة دجلة، بغداد، العراق. (الآن).
13 ـ عضو هيئة تحرير مجلة حيفا لنا / لندن. (سابقا).
14 ـ عضو هيئة تحرير مجلة بروق الأدبية ومحكّم لما ينشر فيها / النادي الأدبي في الباحة في السعودية. (سابقا)
15 ـ عضو هيئة تحرير في مجلة عالم الغد الأكاديمية المحكمة، النمسا. (سابقا)
16 ـ عضو هيئة تحرير في مجلة واتا، المجلة الدولية للمترجمين والباحثين العرب المحكّمة، بلجيكا. (سابقا)

17 ـ عضو اللجنة العلمية لمجلة البحوث الأكاديمية الأمريكية المحكمة، سان فرانسيسكو، Journal of American Academic Research. ومحكم في القسم العربي من المجلة
18 ـ عضو الهيئة الاستشارية العلمية لمجلة جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، الجزائر.ـ
19 ـ مستشار مجلة العاصمة الأكاديمية المحكمة التي تصدر في الهند، كلية الجامعة، قسم اللغة العربية ترونتبرام، كيرالا، الهند.
20 ـ عضو محكم في جائزة الأمير عبد الرحمن كانو، البحرين، سابقا.
21 ـ عضو لجنة المداولات لجائزة ابن بطوطة للتواصل الحضاري وحوار الثقافات، فاس، المغرب.
22 ـ عضو اللجنة العلمية لجائزة مقاربات الدولية للبحث العلمي، فاس، المغرب.
23 ـ عضو اللجنة العلمية في مجلة علوم اللغة العربية وآدابها (الأكاديمية المحكمة)، جامعة الشهيد حمّة الأخر بالوادي، كلية الآداب واللغات، الجزائر.
24 ـ محرر مساعد في مجلة الآداب الأكاديمية المحكمة، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة/الجزائر.
25 ـ محرر مساعد في مجلة الفضاء المغاربي الأكاديمية المحكمة، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان/ الجزائر.
26 ـ محرر مساعد في مجلة أبوليوس الأكاديمية المحكمة، جامعة سوق أهراس/ الجزائر.
27 ـ محرر مساعد في مجلة الخطاب الأكاديمية المحكمة، جامعة مولود معمري، تيزي وزو/ الجزائر.
28 ـ محرر مساعد في مجلة الإشعاع الأكاديمية المحكمة، جامعة طاهر مولاي، سعيدة/ الجزائر.
29 ـ محرر مساعد في مجلة النص الأكاديمية المحكمة، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي/ الجزائر.
30 ـ عضو الهيئة العلمية لمشروع مشكاة المعرفة الدولي الأكاديمي المحكم، المركز الجامعي، مغنية ـ تلمسان/الجزائر
31 ـ محكم جوائز بطولة كأس العالم للمبدعين العرب، مسابقة أفضل العرب حول العالم (The Arabs Group)، قسم الأدب العربي، شعرا وقصة ورواية وأدب أطفال، ودراسات وبحوثا أكاديمية.
32 ـ عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الأهواز لدراسة علوم اللغة، فصلية دولية محكمة، الأهواز، إيران.
33 ـ محكّم في لجان الترقيات العلمية الجامعيّة
34 ـ عضو الجمعية المصرية للتنمية التكنولوجية

المقررات الدراسية التي قام بتدريسها

ـ ودرّس المواد المقررات الدراسية التالية في الجامعات العربية والأجنبية: الأدب في العصر العباسي ـ الأدب في صدر الإسلام وبني أمية ـ الأدب العربي ـ الأدب العربي الحديث ـ النقد الأدبي القديم ـ النقد الأدبي الحديث ـ الأدب الأندلسي ـ الأدب الإسلامي ـ منهج البحث العلمي ـ أدب الأطفال ـ الأدب السعودي ـ البلاغة (المعاني) ـ التحرير العربي ـ المهارات اللغوية . فن الكتابة ـ فن القراءة . مهارة كتابة البحث والمقال، النحو والصرف، المكتبة العربية، التدريب على الإنشاء، الأدب المقارن. نظرية الأدب.تاريخ الأدب العربي والنصوص الأدبية. مقرر القصة والرواية. ويشرف على رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه في شعبة الدراسات العليا.

ـ كاتب في القصة والرواية والنقد الأدبي.

ـ كتب في القصّة والرواية والنقد الأدبيّ، والدراسات والبحوث وله (240) مائتان وأربعون مقالا وبحثا أكاديميا ،وأعمالا إبداعية، ودراسات نقدية منشورة في (118) مجلة أكاديمية، وغير أكاديمية وصحيفة ودورية تصدر في البلدان التالية: سورية ـ مصر ـ الجزائر، تونس، المغرب، الأردن، السعودية، الإمارات العربية المتحدة، قطر، سلطنة عمان، لبنان، ليبيا، فلسطين، اليمن الشمالي، واليمن الجنوبي، لندن، أمريكا، كندا، أستراليا، الصين، تايوان، اليابان، الهند. هولندا، النمسا.السويد، الكويت، البحرين، قبرص، العراق. فرنسا. الهند، بلجيكا.

ـ وترجمت بعض أعماله إلى الإنكليزية واليابانية والصينية.

ـ وشارك في 13 مؤتمرا أدبيا في جامعات العالم العربي وآسيا، للنقد الأدبي والدراسات والبحوث. وأنجزت حول أعماله الإبداعية والنقدية رسائل ماجستير، وأطروحات دكتوراه في مصر وألمانيا والإمارات العربية والصين.

وقد حصل على الجوائز الأدبيّة التاليّة

1ـ جائزة مركز ابن خلدون الإنمائيّ والدكتورة سعاد الصباح في القصّة القصيرة في مدينة القاهرة عام 1991م.

2 ـ جائزة مجلة الشاهد للنقد الأدبيّ ـ قبرص ـ نيقوسيا عام 1991م.

3 ـ جائزة البتّاني للقصّة القصيرة ـ سوريا. عام 1993م.

4 ـ جائزة مركز ابن خلدون الإنمائي والدكتورة سعاد الصباح للرواية العربيّة في مدينة القاهرة عام 1993م.

5 ـ جائزة نادي أبها الأدبي للقصة القصيرة ـ السعوديّة. عام 1993م.

6 ـ جائزة نادي الطائف الأدبي للقصّة القصيرة ـ السعودية. عام 1994م.

7 ـ جائزة مركز نهر النيل الثقافي للقصة القصيرة عام 2004 ـ القاهرة.

8 ـ جائزة نجم عكاظ للقصة القصيرة لعام 2004م.

9 ـ جائزة نادي جازان الأدبي للقصة القصيرة ـ السعودية 2005م.

10 ـ تكريم الجمعية الدولية للباحثين ولمترجمين العرب عام 2006م. فرع الدراسات والبحوث

11 ـ جائزة ناجي نعمان الأدبية للنقد الأدبي للعام 2006م.

12 ـ تكريم نادي الباحة الأدبي / السعودية، للعام 2008م

13 ـ جائزة أفضل كاتب قصة للعام 2009م، من المجلس العالمي للصحافة .

14 ـ جائزة صلاح هلال للقصة القصيرة، القاهرة، 2018م.

15 ـ جائزة مسافرون للقصة القصيرة وكتابة السيناريو، القاهرة، 2018 م.

16 ـ جائزة اللوتس للتنمية الإنسانية في القصة القصيرة، القاهرة 2018م.

17 ـ جائزة الأعمال الدولية والتميز الأكاديمي، الهند، 2109م.

18 ـ شهادة الدكتوراه الفخرية، من الأكاديمية العربية الدولية، استوكهولم، السويد، 2019/3/5 م .

18 ـ درع التميز من مركز آفاق للدراسات الثقافية المغربية اليمنية، لعام 2020م، صنعاء/اليمن،/ فاس/ المغرب.

19 ـ جائزة الرابطة العالمية للإبداع والعلوم الإنسانية، تكريم أفضل 100 شخصية لعام 2020م، باريس.

20 ـ وسام الشخصيّة الأكاديمية المميزة لعام 2020م، من الأكاديمية الأمريكية الدولية للتعليم العالي والتدريب، ولاية ديلاوير.

وله الكتب المطبوعة الآتية :

1 ـ آخر تحليقة لنورس مهاجر(قصص قصيرة)، دار سعاد الصباح، القاهرة 1991م. الطبعة الثانية، دار مكتبة الأسرة، القاهرة، 1996م.

2 ـ ملكية والنورس ووهران(قصص قصيرة)، دار المنارة، سورية، 1993م

3 ـ رقص سماح على أنغام زرياب(قصص قصيرة)، دار النافذة، أثينا 1994م.

4 ـ اللوتس(قصص قصيرة)، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت 1995م.

5 ـ تأثير ألف ليلة وليلة في المسرح العربيّ الحديث والمعاصر(دراسات نقدية)، دار الكنوز الأدبية، بيروت 1995م. (بالاشتراك). مع د. منذر رديف

6 ـ ولاّدة بنت المستكفي في فاس(رواية)، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت 1997م.

7 ـ الجنس والسلطة في ألف ليلة وليلة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت / لندن 1998م.

8 ـ رحلة بكين ـ ملامح من الصين المعاصرة، دار السويدي، أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2004م.

9 ـ الاستبداد السلطوي والفساد الجنسي في ألف ليلة وليلة، الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، بيروت/ مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى 2007م.

10 ـ نساء القصر في ألف ليلة وليلة ـ الفكر والسلوك، منشورات دار مجلة مقاربات، المغرب، فاس، الطبعة الأولى 2010م.

11 ـ مقاربات في مفهوم الأسطورة شعرًا وفكرًا، (دراسات نقدية)، نادي الباحة الأدبي بالسعودية/ ومؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى عام 2011م.

12 ـ الأسطورة، مصادرها وبعض المظاهر السلبية في توظيفها، دار الألمعية للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى 2014م.

13 ـ من اللاذقية إلى بكين، الصين في ظل سياسة الإصلاح والانفتاح، دار الألمعية للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى 2014م.

14 ـ ذكريات ومواجع على ضفاف عدن، قصص قصيرة، منشورات مجلة مقاربات الأكاديمية المحكمة، فاس، المغرب، الطبعة الأولى 2016 م.

15 ـ فضاء النص الأسطوري في فضاء الخطاب الشعري العربي المعاصر ـ السندباد البحري / أنموذجًا، مؤسسة Noor Publishing، ألمانيا . الطبعة العربية الأولى أيار، مايو 2017 م.

16 ـ أسطورة شهريار وشهرزاد في الخطاب الشعري العربي المعاصر، دار إي ـ كتب للنشر والتوزيع، لندن، الطبعة العربية الأولى 2017 م .

17 ـ موسوعة الجنسانية العربية والإسلامية قديمًا وحديثًا

الكتاب الأول بحوث ودراسات نقدية عامة، مجموعة من الباحثين

إعداد وإشراف: أ. د. محمد عبد الرحمن يونس، دار إي ـ كتب للنشر والتوزيع، لندن، الطبعة العربية الأولى 2018 م .

الطبعة الثانية، دار دجلة الأكاديمية للنشر والتأليف والتوزيع والترجمة، بغداد، العراق، الطبعة الأولى 2021م.

18 ـ الفضاء الأسطوري والرمزي في الخطاب الشعري المعاصر، مؤسسة مقاربات للصناعات الثقافية، المغرب، فاس، الطبعة الأولى عام 2019 م. بالإضافة إلى العديد من الدراسات المنشورة في كتب جماعية مشتركة.

19 ـ موسوعة الجنسانية العربية قديمًا وحديثًا، الكتاب الثاني: مظاهر الحب والجنس في الرواية العربية، دار دجلة الأكاديمية للنشر والتأليف والتوزيع والترجمة، بغداد، العراق، الطبعة الأولى 2021م.

وله المخطوطات الآتية التي لم تنشر بعد :

1 ـ الفضاء المكاني في ألف ليلة وليلة.. الاستلاب والعبوديّة.. المسرات والملذات .

2 ـ آخر ما وصلنا من أخبار مراكش المعمورة (رواية) في جزءين.

3 ـ الواقع والأطروحة والإيديولوجيا في الرواية العربية المعاصرة .

4 ـ الأسطورة والتاريخ في الخطاب الشعري العربي المعاصر، دراسة نقدية تحليلية.

5 ـ دراسات نقدية في القصة العربية القصيرة.

6 ـ قراءات نقدية في الكتب العربية المعاصرة.

7 ـ المال والتجارة في حكايات ألف ليلة وليلة.

8 ـ القيم الثقافية والإنسانية في المجتمعات العربية المعاصرة .

9 ـ دراسات نقدية في الرواية المغربية المعاصرة

10 ـ خطاب الحب والجنس في الخطاب الروائي العربي المعاصر.

11 ـ دراسات نقدية في الخطاب الشعري العربي المعاصر.

12 ـ دراسات نقدية في الخطاب الروائي العربي المعاصر، نماذج مختارة، كتاب مشترك، 25 بحثًا أكاديميًا محكمًا لمجموعة أساتذة من مختلف جامعات العالم العربي، أشرف عليها وأعدها: محمد عبدالرحمن يونس

المجلات الأدبية التي نشر فيها الباحث أبحاثه ودراساته ومقالاته

ـ كتب في القصّة والرواية والنقد الأدبيّ، وله (240) مائتان وأربعون مقالاً وبحثًا أكاديميًا، وأعمال إبداعية، ودراسات نقدية منشورة في الصحف والمجلات الآتية:

ـ الفكر العربيّ ـ الطريق ـ دراسات عربيّة ـ الآداب ـ كتابات معاصرة، الحكمة. الكشكول، البلاغ، ليلى، مجلة نقطة فوق الهاء، الخيّام، الوفاق نيوز /وهي تصدر في لبنان .

ـ قصص ـ الحياة الثقافيّة ـ مجلة إنانا، مجلة أوتار ـ مجلة المسار ـــ تونس الفتاة / وهي تصدر في تونس.

ـ الثقافة العربيّة ـ / ليبيا.

ـ سطور ـ إبداع ـ الكتب وجهات نظر ـ تواصل ـ القاهرة ـ جهات ـ جريدة شاب مصر، جريدة مصر الحرة ـ مجلة إبداع الشرق ـ مجلة مصرية مجلة العرب ـ مجلة كان التاريخية الأكاديمية المحكمة، مجلة ديوان العرب، مجلة المجلة / القاهرة.

ـ اليمن الجديد ـ معين ـ 26 سبتمبر ـ الكلمة ـ الحكمة يمانية ـ الجيش اليمني ـ الثقافة الجديدة ـ الكلمة ـ الوطن ـ المعرفة ـ ملحق الثورة الثقافي ـ الجمهورية ـ غيمان ـ مجلة مركز الدراسات والبحوث اليمنية / صنعاء وعدن وتعزّ .

ـ المجلة العربيّة المحكّمة للعلوم الإنسانيّة ـ مجلة الكويت / الكويت .

ـ الجديد في عالم الكتب والمكتبات ـ النشرة ـ صحيفة الدستور ـ صحيفة العالمية ـــ مجلة تايكي / عمّان ـــ الأردن

ـ الحياة المسرحيّة ـ الموقف الأدبي ـ الأسبوع الأدبيّ ـ المعرفة ـ الآداب الأجنبيّة ـ الثقافة الجديدة ـ تشرين ـ الوحدة ـ النافذة، ثرى ـ أوغاريت ـ العاديات ـ مجلة أبابيل ـ مجلة فكر ـ مجلة ألف، مجلة الشهباء الثقافية، مجلة نقد وتنوير/ سورية.

ـ الفيصل ـ المنهل ـ العقيق ـ بيادر ـ الجزيرة ـ علامات في النقد ـ الموسوعة العربيّة لكشف السرقات الأدبيّة ـ الآطام ـ المجلة العربية ـ رؤى ـ الجزيرة ـ دارين ـ الوطن ـ صحيفة عكاظ ـ قناديل ـ مجلة بروق ـ مجلة اليمامة، مجلة القافلة / الرياض ـ جدّة ـ أبها ـ المدينة المنورة ـ حائل ـ الشرقية ـ الباحة، الظهران / المملكة العربية السعودية

ـ الشاهد/ قبرص، نيقوسيا.

ـ الناقد ـ العالم ـ التضامن ـ المسلّة ـ القصب ـ النور ـ الزمان ـ الزمان الجديد ـ الثقافية ـ الحقائق الثقافية ـ آرام ـ حيفا لنا ـ العرب الدولية، ميدل إيست أون لاين / لندن.

ـ الموسم ـ الاتجاه الآخر ـ مجلة جامعة ابن رشد الأكاديمية المحكمة / هولندة .
ـ كلمات / استرالية .
ـ الرافد ـ الخليج الثقافي ـ الشروق ـ البيان / الشارقة.
ـ بيت العرب/ بكين – الصين
ـ مجلة العلوم الإنسانية الأكاديمية المحكّمة ـ البحرين الثقافية ـ صحيفة الوقت ـ مجلة كانو الثقافية / المنامة
ـ مجلة عالم الغد/ فينّا، النمسا.
ـ مجلة الجمعية الدولية للمترجمين والباحثين العرب ـ مجلة الجسرة/ قطر
ـ دنيا الوطن ـ الصباح ـ بيادر ـ عرب 48 / فلسطين.
ـ مجلة جسور، المجلة الدولية لعلوم الترجمة واللغات. المغرب
ـ جريدة العدالة ـ جريدة المثقف ـ جريدة البصائر ـ مجلة نور الدجى ـ الناقد العراقي ـ صوت العراق، جريدة المدى، مجلة أمارجي الأدبية، مجلة أور الأدبية، مجلة جامعة دجلة الأكاديمية المحكمة / العراق.
ـ جريدة الشام، مجلة أفنان/ باريس.
ـ مجلة العربي الحر، تحت المجهر، صحيفة آخر خبر، جريدة جورنالجي / أمريكا
ـ مجلة المسار، سلطنة عمان.
ـ مجلة ميزوبوتاميا/ سويسرا.
ـ صحيفة أخبار العرب، مجلة أصوات الشمال/ كندا .
ـ صحيفة اتجاهات حرة، بلجيكا.
ـ مجلة العرب / طوكيو
ـ مجلة جامعة لاهاي للصحافة الأكاديمية المحكمة.
ـ مجلة كلّ الناس ـ مجلة فوانيس ـ مجلة مقاربات الأكاديمية المحكمة ـ مجلة الاستهلال الأكاديمية المحكمة، مجلة الموجة الثقافية، جريدة الشرق المغربية، جريدة الصباح، مجلة باحثون / المغرب.
ـ مجلة بونة الأكاديمية المحكمة ـ مجلة المجلة الثقافية، مجلة التأويل وتحليل الخطاب، مجلة الفضاء المغاربي الأكاديمية المحكمة، مجلة أبوليوس الأكاديمية المحكمة، مجلة الميادين الأكاديمية المحكمة / الجزائر.
مجلة العاصمة، أكاديمية محكمة تصدر في جامعة ترونتبرم، كيرالا، الهند
ـ مجلة كاليكوت، أكاديمية محكمة تصدر عن جامعة كاليكوت، كيرالا، الهند.
ـ مجلة جامعة جين جي الوطينة الأكاديمية المحكمة، تايوان.
ـ مجلة الدراويش، ألمانيا.

المؤتمرات الأدبية التي حضرها الدكتور محمد عبد الرحمن يونس

1 ـ مؤتمر القصة القصيرة لعام 2005 م، وزارة الثقافة، حلب.

2 ـ مؤتمر ملتقى الباحة الثقافي الثالث، الرواية السعودية، مقاربات في الشكل نادي الباحة الأدبي، الباحة، السعودية، عام 2008م.

3 ـ مؤتمر ملتقى الباحة الثقافي الرابع، الرواية السعودية، التحولات الاجتماعية في المجتمع السعودي، عام 2010م.

4 ـ مؤتمر حوار الحضارات العالمي، تايوان، تايبيه، جامعة جين جي الوطنية، عام 2014 م.

5 ـ المؤتمر العلمي الدولي الأول، لكلية دجلة الجامعة، (لسانيات تشومسكي ـ مراجعة نقدية)، بغداد/ العراق، شباط، فبراير 2018 م .

6 ـ المؤتمر العلمي الأول لكلية الحكمة ـ الجامعة الأهلية، (دور التعليم الأهلي في تطوير المجتمع)، بغداد، العراق، شهر مايو، أيار عام 2018م.

7 ـ المؤتمر العلمي السنوي، (التفاعل الدلالي في دراسة النص)، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، مارس، آذار عام 2018 م.

8 ـ المؤتمر السنوي السابع والعشرون (أثر النظريات والمناهج الغربية في الدراسات اللغوية والأدبية العربية)، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، نيسان، أبريل، عام 2019 م.

9 ـ المؤتمر الدولي الثالث حول القضايا الراهنة للغات، اللهجات، وعلم اللغة، أهواز، إيران، فبراير، شباط، 2019 م.

10 ـ المؤتمر العلمي الأول للدراسات الإنسانية والإدارية والقانونية (المعرفة.. استثمار للإنسان) جامعة دجلة، بغداد، العراق، نيسان، أبريل عام 2019 م .

11 ـ المؤتمر السنوي الدولي لمؤسسة مقاربات (الذاكرة والبناء الثقافي)، فاس، المغرب، 14، 15، 16، آذار، مارس، 2019 م.

12 ـ المؤتمر الدولي السنوي لمؤسسة مقاربات(التحولات الاجتماعية والثقافية في العالم العربي، أبحاث أكاديمية محكمة)، فاس، المغرب، 21/20، مارس 2020 م.

13 ـ الندوة الدولية حول الأدب في المغرب العربي (تونس، الجزائر، المغرب)، كلية الجامعة، ترونانتابورام، كيرالا، الهند، ديسمبر عام 2020، مدير الندوة.

14 ـ المؤتمر الدولي الافتراضي (اللغة العربية والتعليم الإلكتروني) بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية، جامعة دجلة، بغداد/العراق، 2020/12/31م.

إصدارات نادي الباحة الأدبي

م	اسم الإصدار	تاريخ طبعه	المؤلف
1	المنتدى 1	1416هـ	أسرة النادي
2	الاسلام سلم الرقي	1417هـ	أبوبكر الجزائري
3	المنتدى 2	1417هـ	أسرة النادي
4	مرحبا هيل عد السيل	1417هـ	أسرة النادي
5	التجربة الإبداعية عند محمد هاشم رشيد	1417هـ	د.محمد عفيفي
6	لمحات في إعجاز سورة الأنفال	1417هـ	د.حسن باجودة
7	صدى الأشجان	1417هـ	أ.حسن الزهراني
8	آهات مكتومة	1418هـ	محمد صبحي
9	المنتدى 3	1419هـ	أسرة النادي
10	المنتدى 4	1419هـ	أسرة النادي
11	المسرحية المنهجية	1419هـ	حسين عباس
12	عطر تهامي	1419هـ	حمزة الشريف
13	الشعر في رحاب النبوة	1419هـ	مصطفى الصياصنه
14	تراتيل حارس الكلأ المباح	1419هـ	صالح سعيد الزهراني
15	دخول الملك عبد العزيز الحجاز	1419هـ	د.محمد السلمان
16	رفعت يدي	1419هـ	محمد عصبي
17	اعرف وطنك الباحة	1419هـ	أسرة النادي
18	حوليات سوق حباشة	1420هـ	د.عبدالله أبودهش
19	المنتدى5	1420هـ	أسرة النادي
20	التحديات المعاصرة	1420هـ	د.ناصر بشية
21	النغم الحزين	1421هـ	علي النعمي
22	أسامة بن المنقذ والتراث الشعري	1421هـ	د.عبدالله الزهراني
23	وقفات على عقارب الزوال	1421هـ	أحمد الحربي
24	التوجيه والإرشاد في معاني ألفاظ القرآن الكريم	1422هـ	مسفر سعيد الزهراني
25	الوطن البعد الذي لا يقاس	1422هـ	ظافر القرني
26	التثقيف الصحي	1422هـ	د.محمد السعدي
27	المنتدى 6	1422هـ	أسرة النادي
28	المنتدى 7	1425هـ	أسرة النادي
29	بقايا حصون	1425هـ	أ.محمد زياد
30	عادات وافدة	1425هـ	د.محمد الشويعر
31	شرح كافية ذوي الإرب ج1	1426هـ	د.عبدالهادي الغامدي
32	شرح كافية ذوي الإرب ج2	1426هـ	د.عبدالهادي الغامدي

م	اسم الإصدار	تاريخ طبعه	المؤلف
33	المنتدى 8	1426هـ	أسرة النادي
34	مشكلات التنمية الاجتماعية	1426هـ	د.سعود الزهراني
35	أوجاع أنثى	1427هـ	عبدالرحمن سابي
36	الثقافة الأمنية	1427هـ	د.مسفر سعيد
37	السعلي	1427هـ	أ.علي حسين
38	ارث الدموع	1427هـ	إبراهيم الأكلبي
39	وطني ومشاعر قلب	1427هـ	صالح الهنيدي
40	الهيكل الإداري السعودي	1427هـ	د.أسعد بشية
41	جمر الأنين	1427هـ	مسفر العدواني
42	كلما وقصائد أخرى	1427هـ	يوسف العارف
43	ملتقى الرواية الأول	1427هـ	مجموعة أدباء
44	وشاية عطر	1428هـ	محمد الشدوي
45	المسائل النحوية الصرفية	1428هـ	منيرة ناصر زايد
46	ملتقى الرواية الثاني	1428هـ	مجموعة أدباء
47	تلقي شعر أبي تمام	1429هـ	منى الغامدي
48	العمل التربوي في القرآن الكريم	1429هـ	د.مسفر سعيد
49	معجم الإبداع الأدبي	1429هـ	أ.خالد اليوسف د.حسن حجاب الحازمي
50	ملتقى الرواية الثالث	1429هـ	مجموعة من الأدباء
51	بروق1	1429هـ	أسرة النادي
52	الأصولية والحداثة	1429هـ	د.كامليا عبدالفتاح
53	المنتدى1	1429هـ	أسرة النادي
54	حيث مر الغيم	1429هـ	ماجد الغامدي
55	مقالات في التربية والثقافة	1430هـ	د.صالح أبو عراد
56	المجموعة الشعرية الكاملة	1430هـ	إبراهيم مضواح
57	سطور سروية	1430هـ	جمعان الكرت
58	الثغر البسام	1430هـ	د.مزهر القرني
59	السروي والرياح البيض	1430هـ	عبدالرحمن سابي
60	عطاء ووفاء للوطن	1430هـ	مجموعة شعراء
61	الأماني الذابلة	1430هـ	شريفة الزهراني
62	سيرة الملك سعود	1431هـ	د. علي الزندي
63	توقيعات شعرية	1431هـ	عبدالله سالم الغامدي
64	أسرار	1431هـ	موسى الزهراني
65	بنية القصيدة في الشعر العربي	1431هـ	د.محمود عبدالمعطي

م	اسم الإصدار	تاريخ طبعه	المؤلف
66	بروق 2	1431هـ	أسرة النادي
67	ودوق 1	1431هـ	أسرة النادي
68	الصندقة	1431هـ	طاهر الزهراني
69	ضيف العتمة	1431هـ	خالد المرضي
70	القاع	1431هـ	عائشة الحسن
71	تحولات المعنى المراوغ	1431هـ	أبواليزيد الشرقاوي
72	ودوق 2	1432هـ	أسرة النادي
73	ملتقى الرواية الرابع	1432هـ	مجموعة أدباء
74	يا طولما تغيب	1432هـ	عبير الحمد
75	التشكيل بالصورة في الخطاب الرومانسي	1432هـ	د. حافظ المغربي
76	يطفو كحبات الهيل	1432هـ	عبدالله الهمل
77	شيء أفتقده	1432هـ	عبدالعزيز الظاهري
78	مواقيت الرمال	1432هـ	د.محمد الصفراني
79	حسب	1432هـ	عبدالرحمن الهايل
80	نقوش في كهف الوجدان	1432هـ	د.محمد عبدالله الشدوي
81	توظيف التقنية في شعر شعراء الباحة	1432هـ	عبدالرحمن المحسني
82	شعراء من منطقة الباحة بين الظل والتأثير	1432هـ	د.محمد عبدالله الشدوي
83	في موكب الحياة	1432هـ	أ.د.عبدالرزاق الزهراني
84	طابور المساء	1432هـ	محمد زياد
85	مقاربات في مفهوم الأسطورة	1432هـ	محمد يونس
86	نفي المنفى الصهيوني	1432هـ	أ.د.محمد أحمد صالح
87	النبويات	1432هـ	بهجت الحديثي
88	الحب كله	1432هـ	أحمد المنعي
89	أشواق الصوفي	1433هـ	عبدالرحمن سابي
90	قصيدة النثر العربي	1433هـ	د. عبدالناصر هلال
91	أساطير الأولين بين الخيال واليقين	1433هـ	محمد زياد
92	زوايا الشبيه	1433هـ	أيمن عبدالحق
93	مقامات في البرهة الشعرية	1433هـ	محمد العمري
94	حفلة الجن	1433هـ	بخيت طالع
95	إلا في المداد	1433هـ	الطيب برير
96	شرفات الذاكرة	1433هـ	عبدالقادر سفر
97	بروق3	1433هـ	أسرة
98	مقارنات في السرد العربي	1433هـ	د.أسامة البحيري
99	أغنية للجياع	1433هـ	صالح السهيمي

م	اسم الإصدار	تاريخ طبعه	المؤلف
100	سمادير	1433هـ	راشد القثامي
101	المعتق من قبس	1433هـ	فيصل الغامدي
102	أرح جوادك	1433هـ	علي الأمير
103	النقد الروائي في المغرب العربي	1433هـ	د.بوشوشة بن جمعة
104	البنية النصية وتبدلات الرؤية	1433هـ	محمد الحضرين
105	المهرجان الأول للشعر العربي	1433هـ	مجموعة من الأدباء
106	شيء يشبه الهمس	1434هـ	عقيلة آل حريز
107	الرسام شفيق	1434هـ	طاهر الزهراني
108	جماليات التكرار في شعر امرئ القيس	1434هـ	محمد أبو الفتوح
109	بعض وجع	1434هـ	سعد الثقفي
110	تطور البنية الإيقاعية	1434هـ	د.ناصر سليم محمد العباس
111	بين قصيدتين	1434هـ	محمد العتيق
112	مصابيح القرى	1434هـ	خالد المرضي
113	لدي ما أنسى	1434هـ	حسن المطروشي
114	هات البقية	1434هـ	حسن الزهراني
115	أول القمح آخر العنب	1434هـ	عبدالعزيز ابو لسه
116	الرواية العربية : الذاكرة والتاريخ (الملتقى)	1434هـ	مجموعة من الأدباء
117	رفيف رئة	1434هـ	أحمد الهلالي
118	تحولات الرواية في المملكة العربية السعودية	1434هـ	عالي القرشي
119	حلم اليتيمة	1434هـ	نايف الغامدي
120	نزف تحت الرمال	1434هـ	حسن البطران
121	الإسلام والنزعة الإنسانية	1434هـ	زكي الميلاد
122	الفصاحة في منطقة الباحة	1434هـ	د.عبد الرزاق حمود
123	صراع.كوم	1434هـ	ناصر العمري
124	شعرية الوطن ونشيد الشعراء	1434هـ	د.يوسف العارف
125	الجسد الغامض	1434هـ	بخيت طالع
126	خطابات مؤثرة في الصحافة السعودية	1434هـ	خالد الخضري
127	الحلو في مرحه وجذله وغيه	1434هـ	علي الشدوي
128	قصص الاطفال لدى يعقوب اسحاق	1434هـ	نورة الغامدي
129	لك الله	1435هـ	منصور دماس
130	عرافة المساء	1435هـ	شيمة الشمري
131	شقيق الماء	1435هـ	محمد البكري
132	روح تشبه البياض	1435هـ	زهراء المقداد

م	اسم الإصدار	تاريخ طبعه	المؤلف
133	الشيخ والجلاد	1435هـ	عبد الله سعيد الزهراني
134	هوية العنونة	1435هـ	د.عماد الخطيب
135	المرآة : الصوت والصدى	1435هـ	عبد المحسن الحقيل
136	حياد	1435هـ	عبد الرحمن الجاسر
137	العشرة المختارة	1435هـ	د.محمد علي سعد
138	مجلة جرن	1435هـ	مجموعة من النقاد
139	مقاربات سردية	1435هـ	د.علي عبيد
140	زمان الوصل	1435هـ	د.احمد العدواني
141	معترك الذكريات	1435هـ	أحمد العليو
142	استطيقا التحول النصي وسلطة التاويل	1435هـ	د.عبد الناصر هلال
143	تحولات الخطاب الشعري	1435هـ	د.عبد الحميد الحسامي
144	خطاب الأنساق	1435هـ	آمنة بلعلي
145	ظواهر أسلوبية في شعر حسن محمد الزهراني	1435هـ	مكية عيسى الناصر
146	فراغ المكان	1435هـ	معيض عبدالله
147	يوتوبيا الطين	1435هـ	د.عبدالله الناصر
148	الشعر وقضية الهوية	1435هـ	د. صلاح رزق
149	الرصاصة تقتل مرتين	1435هـ	محمد تركي الدعفيس
150	الأمن والسلامة والتنوير اللغوي	1435هـ	د. عائشة محمد جلال الدين
151	لا علي ولا ليا	1435هـ	إبراهيم الوافي
152	بلاغة الصورة السردية	1435هـ	إلهام عبد العزيز رضوان بدر
153	غربة	1435 هـ	علي المفضلي
154	أشياء تشبه الحياة	1435هـ	صالح الحسيني الحربي
155	نقوش الصحابي الجليل خالد بن العاص وأبنائه	1436هـ	د. أحمد بن سعيد قشاش
156	على ضفاف الغربة	1436هـ	محمد أحمد صالح الزهراني
157	ذكراك مواسم أشواقي	1436هـ	أحمد حسن محمد
158	معزوفات دم يرقص فلامنكو	1436هـ	عزيزة رحموني
159	سورة الحزن	1436هـ	عبير حسن الزهراني
160	نخب رأس المعتصم	1436هـ	عبد الرحمن لطفي
161	الممارسة النقدية	1436هـ	عادل ضرغام
162	أنا ليل بعينيها	1436هـ	خالد قاسم
163	ثلاث من الآهات	1436هـ	فاطمة الغامدي
164	ربيع بلون السماء	1436هـ	صالح سعيد الهنيدي
165	القرآن ولغة السريان	1436هـ	أحمد محمد علي الجمل
166	أجمل الطيور (فصص أطفال)	1436هـ	محمد وحيد عمر علي

م	اسم الإصدار	تاريخ طبعه	المؤلف
167	ليس يعنيني كثيراً	1436هـ	محمد إبراهيم يعقوب
168	مكارم الأخلاق	1436هـ	د.عبدالله خميس العمري
169	اللغة في رويات نجيب الكيلاني	1436هـ	د. محمد بن يحيى أبو ملحة
170	شعراء الباحة ـ مختارات وترجمة إنجليزية	1436هـ	د.أحمد جاد الرب
171	مجلة جرن العدد (2)	1436هـ	مجموعة من النقاد
172	«خرز» الوقت	1436هـ	علي الدميني
173	التهياب	1436هـ	عبد الهادي القرني
174	نفلة	1436هـ	محمد البشير
175	سردية الخوف	1436هـ	مجدي الخواجي
176	الاتجاه الانساني في شعر فدوى طوقان	1436هـ	د. مثيبة ماطر عطا الله الفضلي
177	فتنة القرار..فتنة الجواب	1436هـ	عبد العزيزأبو لسه
178	المهرجان الثاني للشعر العربي	1437هـ	مجموعة من الأدباء
179	مقاربات نقدية في ثلاث تجارب شعرية	1437هـ	د.حامد بن صالح الربيعي
180	..وسراجا منيرا	1437هـ	عمر جلال الدين هزاع
181	ركح الفرجة	1437هـ	ناصر بن محمد العمري
182	صقيع يلتهب	1437هـ	مريم الحسن
183	قبل نهاية الطريق	1438هـ	فتح الرحمن محمد يوسف
184	تجليات الإبداع السردي	1438هـ	د. زكريا كوينه
185	أناي...التي أريد	1438هـ	عبد الرحمن معيض سابي
186	رقص الجنوب	1438هـ	علي الشدوي
187	تيار الوعي في الرواية السعودية المعاصرة	1438هـ	أحمد يحيى علي
188	الرفض في الرواية السعودية	1438هـ	د. شادية شقروش
189	من أجل أبي	1438هـ	إبراهيم شيخ مغفوري
190	حواف	1438هـ	إبراهيم شحبي
191	العبور	1438هـ	ناصر الجاسم
213	النص القروي	1438هـ	يوسف حسن العارف
214	متهم..بخداع العالم	1438هـ	حسن شهاب الدين
215	أنثى تحرر الوجع	1438هـ	إبراهيم حلوش
216	أناشيد مرتلة	1438هـ	حسين الملاك
217	ثرثرة المرايا	1438هـ	عبدالله الأسمري
218	زرقة المواجع	1438هـ	إبراهيم عمر صعابي
219	لست أنا	1438هـ	هيا العيد
220	بعد عينيك لن أعشق	1439هـ	مصطفى الكحلاوي
221	وفاء قبر	1439هـ	عزيزة حافظ

م	اسم الإصدار	تاريخ طبعه	المؤلف
222	أبحاث في التاريخ الجغرافي للقرآن والتوراة ولهجات أهل السراة	1439هـ	د.أحمد سعيد قشاش
223	بوح النص ـ دراسات في الرواية السعودية	1439هـ	د.أبو المعاطي الرمادي
224	القصة النسائية في الأدب السعودي	1439هـ	أميرة الغامدي
225	أعلام في الظل	1439هـ	محمد القشعمي
226	شعرية اللغة الروائية	1439هـ	سميرة الزهراني
227	السماوي الذي يغني	1439هـ	محمد أبو شرارة
228	بالقرب من حدائق طاغور	1439هـ	عبد العزيز المقالح
229	وسكنت جنتك التي..	1439هـ	عوض بن يحيى العمري
230	(غبش اللهفة)	1439هـ	محمد مشعل الشدوي
231	عود على البدء	1439هـ	أمل طواهري
232	قبضة على ضباب	1439هـ	حسن الربيح
233	رجفة الوجد	1440هـ	عبد الرحمن بن ابراهيم العتل
234	معارضات نونية ابن زيدون في العصر الحديث	1440هـ	منال المحيا
235	عبد الرحمن الداخل في الشعر العربي الحديث	1440هـ	د.أبتسام الصبحي
236	نجائب الأبجدية	1440هـ	عائض الثبيتي
237	حدث في مثل هذا القلب	1440هـ	د.عادل خميس الزهراني
238	الثراء الثقافي الأنثروبولوجي في منطقة الباحة	1440هـ	إبراهيم بن يحيى الزهراني
239	بني فهم حقائق من الماضي والحاضر	1440هـ	خضران الداموك
240	ابتهالات المغني	1440هـ	أمير محمد صالح
241	غيوم السرد	1440هـ	د.إبراهيم أبو طالب
242	حزه	1440هـ	طاهر الزهراني
243	انسكابة حرف	1440هـ	توفيق محمد غنام
244	وطن متجدد	1440هـ	علي بن محمد الرباعي
245	تفاصيل صغيرة لفضاء شاسع	1440هـ	أحمد الدويحي
246	دنيا	1440هـ	عبد الرزاق بن حمود الزهراني
247	تقاسيم في ليل السراة	1440هـ	عبدالله ساعد
248	حجاب المرايا	1440هـ	عصام إبراهيم فقيري
249	أفلاك	1440هـ	أ.د. عبدالله بن أحمد الفيفي
250	سرديات خالد اليوسف	1440هـ	مجموعة من الكتاب العرب
251	أقدام حائرة	1440هـ	محمد بن رياد الزهراني
252	أطواق	1440هـ	هدى الزهراني
253	على بعد جرحين	1441هـ	صالح العمري (القانص)
254	سماء بعيدة.. وضوء شحيح	1441هـ	أحمد عائل فقيهي

م	اسم الإصدار	تاريخ طبعه	المؤلف
255	ليس نيرة ساك	1441هـ	أحمد نبوي
256	شعرية شوقي	1441هـ	محمد السيد إسماعيل
257	تحدي الحكمة	1442هـ	محمد الفوز
258	غياهب الصحو	1442هـ	خديجة السيد
259	بلاغة الاستفهام في شعر العشماوي	1442هـ	حصة السحيمي
260	ذاكرة أرجوحة	1442هـ	مريم عواجي
261	صمتاً ، حياة في حدود غرفتي	1442هـ	المها آل مهدي
262	الحجر في الخطاب الشعري	1442هـ	مي المحيميد
263	لآنك الله	1442هـ	أميرة صبياني
264	كلام لم يقل	1442هـ	خالد الغيلاني
265	قصة قصة	1442هـ	خالد سعيد الداموك
266	سقف القرية..قاع المدينة	1442هـ	محمد عبدالله الغامدي
267	تلوينة أخرى لقوس قزح	1442هـ	مطلق الحبردي
268	عين ثالثة (مقاربات نقدية وقراءات جمالية)	1442هـ	د. سعد بن سعيد الرفاعي
269	أحلق في كهف	1442هـ	زينب جمعان
270	مدن ألف وليلة وليلة	1442هـ	د. محمد عبد الرحمن يونس